من ستالين وخروتشيف

الى الاشتراكية العربية

للدكتور عبد الله عبد الدايم

في كلمة مرتجلة ألقاها خروتشيف ، لدى وصوله الى « ميسكولك Miskolc » في هنغاريا ، في السادس من نيسان الماضي ، أجاب الرئيس السوفييتي على بعض حملات الصين واتهاماتها ، وأشار خاصة الى ماتعرض له الاتحاد السوفياتي من تهمة النكوص عن الماركسية اللينينية والسير نحو « الانحلال البورجوازي » . ومما جاء في كلمته : « لقد تخلص حزبنا وشعبنا من نظام ستالين المقيت واستطاعا بذلك أن يحققا أعمالا عظيمة . صحيح أن ارتفاع مستوى الحياة لدينا جعل مواطنينا يوغلون في المطالب ، ولكنني أجيب أولئك الذين يزعمون أن التقدم الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة أمران لاينفصلان عن المفهوم البورجوازي للحياة ، اننا فخورون بأن نرى مواطنينا يحيون حياة أفضل . وبعد

لقد قمنا بالثورة من أجل أن نستمتع بحياة أحسن من جميع الوجوه » .

ويحمل الرئيس السوفياتي في هذه الكلمة على « أولئك الذين يتحدثون عن الانحلال في حين أن الاقتصاد ينمو والثروات تتكاثر والناس يثرون » . ويصرخ قائلاً : اذا كان هذا هو الانحلال ، فنحن من أنصاره .

وفي كلمة أخرى ألقاها في « بورسود Borsod » في السابع من ذلك الشهر يعاود مثل هذه الآراء ، ويقول : « لقد حققنا التحرر . لقد قضينا على الرأسماليين البورجوازيين ، وعلى أسياد الاقطاع وأمثالهم . **غير أن الذي نود أن نقوم به خاصة هو أن نقدم للمواطنين جميعاً حياة أفضل ومزيداً من الثروات »** .

ولسنا نورد هذه الكلمات لننتصر الى أحد الفريقين المختصمين ، بل لأننا نجد أنها جديرة بمزيد من التأمل والدراسة ، لاسيما في الظروف التي يجتازها بلدنا العربي .

قد تبدو أقوال خروتشيف هذه أقوالاً بدهية وضرباً من تحصيل الحاصل . غير أنها في الواقع تلخيص مبسط لمسائل طالما أثارت من الجدل ما أثارت ، ولأفكار قد تكون في نهاية الأمر جوهر النزاع بين الكثير من الاتجاهات والمذاهب في عصرنا الحاضر . بل لعل أهم ما فيها أنها تشتمل على مسألة تتحلق حولها الكثير من مسائل الخلاف بين الفرقاء المختلفين من أصحاب الاتجاهات الاشتراكية في العالم وفي البلدان العربية .

ولا يتسع المجال للخوض في شتيت المعاني التي توحي بها هذه الاقوال ، وحسبنا في هذه الكلمة الموجزة أن نستخلص أهم معانيها في نظرنا :

— ١ —

أقوال خروتشيف هذه توكيد لحقيقة هامة ، تبدو بدهية بيّنة بذاتها ، ولكنها تنسى وتهمل ويكوّن نسيانها واهمالها انحرافاً خطيراً عن المعنى الصحيح للاشتراكية .

هذه الحقيقة هي أن أهم مافي الاشتراكية هدفها الايجابي ، نعني الوصول الى زيادة الثروة ورفع مستوى النتاج والدخل القومي والفردي . أما القضاء على استغلال رأس المال وسيطرة الاقطاع فهدف يحمل دون شك بعض المعاني الايجابيـة (من مثل العدالة وتحرير الانسان وغيرها من المعاني الانسانية)غير انه لا يبلغ أهدافه كاملة ولا يصل الى مستقره الحقيقي الا اذا كان وسيلة لهدف أكثر ايجابية ، نعني زيادة الثروة وتحقيق الرخاء الاقتصادي . وليس القصد من الاشتراكية مجرد الحد من طغيان طبقة على طبقة ، وتحرير طبقة الكادحين من استعباد طبقة المالكين المستغلين ، وانما القصد منها أيضاً اقامة علائق اقتصادية جديدة من شأنها ان تؤدي الى رفع مستوى النتاج القومي وزيادة الثروة وازدهارها والى تحرير الانسان من عبوديته لأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية بالتالي . وكل مافي الامر ان من شرائط اقامة هذه العلائق الاقتصادية المنتجة الخصبة ، تغيير العلائق بين الناس وبـــين الطبقات الاجتماعية ، وردها الى علائق انسانية يستطيع فيها الجميع أن يعطوا خير ماعندهم ، وتستطيع فيها الطبقة الكادحة خاصة ان تكون قادرة على أحسن العطاء والنتاج . والقوانين الاشتراكية ، على اختلاف أنواعها ، ليست في أعماقها تدابير سلبية ، وانما هي أداة من أدوات التنظيم الصحيح للقوى المنتجة ولعلاقات الانتاج. انها لا تقف عند البؤس الاجتماعي والظلم الاجتماعي وحدهما ولا تكتفي بالوقوف ضد المسؤولين عنها ، وانما تقف فوق هذا عند فعالية الانتاج ونشاطه .

— ٢ —

وتنتج عن هذه الحقيقة الاولى حقيقة ثانية هامة وهي أن زيادة الثروة ورفع مستوى الدخل والوصول الى الرفاهية ، هي أهداف المجتمع الاشتراكي والمجتمع الرأسمالي على حد سواء . وليس الخلاف بينها حول هذه الغاية النهائية ، وليس صحيحاً ان نقول ، كما يخيل لكثيرين ، أن المجتمعات الرأسمالية تمنح قضية رفع مستوى المعيشة

المقام الأول ولو كان ذلك على حساب ارتفاع مستوى الحياة . ان في مثل هـــذه الأقوال تبسيطاً للواقع مخلاً .

ولا يتسع المجال لمناقشة هذه الفكرة من جوانبها جميعها ، ونقول موجزين ان انصار الاشتراكية وأنصار الرأسمالية يتفقون حول الهدف النهائي المرجو ، وهو الوصول الى مجتمع سعيد ثري يزول فيه الصراع ، ويتحقق فيه التكامـــل والوئام الاجتماعي . غير أنهم يختلفون حول وسائل بلوغ هـذا الهدف ، وحول السبيل الذي ستسلكه المجتمعات الانسانية في تطورها . ورغم قول كليهما بأن السير الطبيعي للتاريخ ينزع الى الاقلال من عوامل التناقض والصراع بين النـاس والى تحقيق الانسجام والتكامل الاجتماعي ، ورغم اتفاقهما على القول بأن هذاالسير التاريخي يوجهه التقدم التقني ، فهما يختلفان في تفسير مقومات هذا السير . فالغرب يرى أن التقدم التقني يؤدي مباشرة الى ازالة عوامل الصراع بين الناس ، وذلك عن طريق تحقيق الرخاء والقضاء على العوز في جميع المجـالات . وزيادة الثروة زيادة يعم خيرها الجميع ، هي عنده الأداة المثلى لازالة الصراع . والناس في نظره قد يصطرعون أمام قطعة « حلوى » صغيرة ، ولا يرتضي أحدهم أن ينـال الآخر منها لقيمة أو لقيمات قليلة زيادة عنه ، ولكن صراعهم يتضـــاءل أمام قطعة حلوى كبيرة جداً ، ولا يمد احدهم عينيه الى قطعة أخيه ولو فاقت قطعته ، ففي ماناله هو مايكفيه وزيادة . أما الشرق ، فيرى أن أثر التقدم التقني في المجتمعات الحديثة أثر غير مباشر ، وليس أثراً مباشراً كما يرى الغرب . فهذا التقدم التقني يخلق أشكالاً جديدة من الانتاج ، وهذه تولد بدورها نظماً اجتماعية جديدة ، تنزع خاصة الى الغاء الملكية الفردية ، وتنزع بالتالي الى القضاء على صراع الطبقات التي ينجم عنها ، وتقيم بذلك مجتمعاً بلا طبقات أي مجتمعاً بلا صراع .

أو نقول بعبارة اخرى : إن أنصار الاتجاه الغربي يرون أن تكامل المجتمع وانسجامه يتمان عن طريق الرخاء وفيض النعمة ، بينما يرى الماركسيون أن الرخاء والفيض في النعم ينجمان على العكس من تكامل المجتمع وانسجامه بالدرجة الاولى. فالصراع الاجتماعي في نظر الأولين ناجم عن التنافس بين أناس كثيرين على قصعة صغيرة فقيرة . أما الماركسيون فيرون أن الرخاء الحقيقي لا يمكن أن يتحقق فعلاً في المجتمع الرأسمالي ، لأن هذا المجتمع مجتمع « مالتوسي » بطبعه (زيادة كبيرة في السكان ، تقابلها زيادة ضئيلة في موارد المعيشة) . ثم إن تشويه النظام الرأسمالي للعامل يقلل من قدرته على الانتاج .

وفي وسعنا أيضاً أن نقول بتعبير آخر ، إن الغرب يرى أن الرخاء ينتج بطبيعته تكاملاً وانسجاماً اجتماعياً . أما الماركسي فيرى أن الرخاء شرط ضروري لازم للتكامل والانسجام ، ولكنه ليس شرطاً كافياً .

— ٣ —

ومعنى هذا كله أن البحث عن زيادة الثروة والعمل على تحقيق الرخاء والتكامل الاجتماعي، من أهداف المجتمع الرأسمالي والاشتراكي على حد سواء . والتنافس بينهما قائم حول الوسائل الناجحة التي تؤدي الى بلوغ هذا الهدف . ومعنى هذا بعد هذا أن أي مجتمع يبني حياته الاشتراكية لا يجوز أن يغفل في سيره الشائك التآخذ والتواصل بين هدفين هامين متكاملين من أهداف هذه الحياة ، هدف تحقيق تكامل اجتماعي أفضل من أجل بلوغ رخاء أكبر ، وهدف بلوغ رخاء أكبر من أجل تحقيق تكامل اجتماعي أفضل . وفي نظرنا أن الدول الحديثة التي تسير نحو الاشتراكية ومن بينها الدول العربية ، يمكن أن تفيد من دروس التجربة العالمية في هذا المجال ويمكن بالتالي أن تجتنب التخبط والتعثر الذي وقعت فيه بعض الحركات الاشتراكية في العالم قبل أن تجد طريقها . وليس صحيحاً أن نقول بأن هنالك حتمية معينة في

سير المجتمعات نحو الاشتراكية وأن هذه الحتمية تفرض لا محالة أن يمر كل مجتمع، خلال تحوله الاشتراكي ، بنفس المراحل التي اجتازتها المجتمعات الاخرى في سيرها نحو الاشتراكية . ومن الهام جداً أن نفرق بين تحـــــول اشتراكي تم في بداية القرن العشرين وبين تحول يجري في النصف الثاني من هذا القرن . ولعل من حسن حظ الدول التي تسير نحو الاشتراكية حديثاً أن أمامها تجربة عالمية غنية تستطيع أن تجنبها الكثير من آلام المخاض وتوفر عليها مآسي التجريب .

وأهم ماتوحي به التجربة العالمية في نظرنا ، لاسيما اذا نظرنا نظرة مقـارنة موضوعية الى التجربة الاشتراكية والرأسمالية ، ان افضل طريق نحو الاشتراكية في البلدان الحديثة ، وعلى رأسها البلدان العربية ، هو الطريق الذي يحقق التداخل العميق بين معنيي الاشتراكية : معنى الوصول الى الرخاء وزيادة الثروة ، ومعنى التوسل الى ذلك عن طريق تغيير بنيـة المجتمع بحيث تيسر هذا الرخاء وأخطر ماتتعرض له الاشتراكية أن تأخذ بأحد المعنيين دون ان تدرك ارتباطه العضوي بالآخر . فان هي أخذت بمعنى الرخاء وزيادة الثروة دون أن تدرك أن من شرائط ذلك احداث تغيير في علائق الناس وفي وضع الطبقة العـاملة خاصة ، انزلقت نحو اتجاه رأسمالي بورجوازي فعـلا ولم تصل الى زيادة الثروة . وان هي وقفت خاصة عند القضاء على رأس المال والاقطاع دون أن تضع ذلك ضمن اطار زيادة الثروة وزيادة الانتاج ، وقعت في تفسير سلبي خالص للاشتراكية ، يفهمها على انها ثورة طبقية مقصودة لذاتها ، وانها عمل موجه ضد طبقة معينة ولو على حساب فقر المجتمع كله وفقر الطبقة العاملة نفسها بالتالي .

ان الاشتراكية عمل بنـــــاء ، عمل ايجابي ، انها تعني زيادة الثروة والنتاج عن طريق اقامة مجتمع يسوده الانسجام والتكامل ولا تؤمن بامكان

زياده الثروة دون تغيير بنية العلائق الاجتماعية والاقتصادية بين الناس ، كما لاتؤمن بتغيير العلائق الاجتماعية لمجرد تغيير هذه العلائق ودون ان يكون رائد هذا التغيير كياناً اجتماعياً واقتصادياً أكثر خصباً ونتاجاً . وليست الاشتراكية موقفاً سلبياً فالموقف السلبي ضد انسان ما يرتد ضد الانسان اي انسان في نهاية الأمر . وأخطر ماتتعرض له الاشتراكية أن تنقلب الى عمل ضد طبقة معينة ، بدلاً من أن تبدو عملا بناءً منتجاً لمصلحة أفراد المجتمع جميعهم. والاشتراكية لاتكره طبقة او افراداً وانما تحارب علائق اجتماعية واقتصادية أدت الى تشويه الفرد الرأسمالي والكادح على حد سواء ، وتعمل على اقامة علائق جديدة تحول دون هذا التشويه وتحقق الخصب والعطاء في اطار انساني ، وعن طريق هذا الاطار الانساني . والاشتراكية في البلاد العربية مدعوة قبل غيرها الى الوقوف عند هذه المعاني الاقتصادية والانسانية للاشتراكية ، ومدعوة الى تجنب اخطاء وقعت فيها بعض الحركات الاشتراكية في العالم اثناء سيرها ومحاولاتها ، وكادت هذه الحركات نفسها تتنكر لها اليوم . أفلا نجد في تصريح خروتشيف ، اشارات الى مثل هذه المعاني ؟ أفلا يطرح الصراع القائم اليوم بين روسيا والصين مشكلة انسانية عميقة في واقعها ، مشكلة « اعادة النظر » في التجربة الاشتراكية المالية بعد سنوات طويلة من تطبيقها ، واستخلاص نتائج جديدة جديرة بأن تقدم دروساً ثمينة للدول التي تسير نحو الاشتراكية حديثاً ؟ أفلا نجد فيما يوصف اليوم « باعادة النظر » في الشيوعية ، توكيداً لحقائق سبق للاشتراكية العربية أن وكدتها ؟

— ٤ —

ولا شك أن من ابرز أمائر التحول في الاتجاه السوفيتي، الاتجاه نحو حرية أوسع سواء في الاقتصاد او في الحياة عامة . فالخطة الاقتصادية كما نعلم تتحرر فيه من المركزية المطلقة الصارمة ، وتأخذ باتجاه اقتصادي فيه الكثير من اللامركزية (وهو اتجاه

سبقت اليه يوغسلافيا منذ سنين) . والنظام السياسي يسير في طريق التحرر من الحكم الاوتوقراطي الفردي . والاهتمام بالاقتصاد الاستهلاكي يتضح ويقوى ، في سبيل توفير رفاهية أكبر للمواطنين وفي سبيل الاقتراب من رخاء نسبي لايوفر الحاجات الاساسية للناس فحسب (من مأكل ومسكن وملبس) وانما يوفر أيضاً الحاجات الثانوية (من رفاهية وثقافة ومتع) . ونستطيع ان نقول دون ما غلو ان من أهم عوامل الاتجاه نحو مزيد من الحرية والانفتاح في الحياة السياسية ، هو ذلك الانفتاح الذي تم في الحياة الاقتصادية وذلك الرخاء الذي تتجه نحوه الاوضاع الاقتصادية هناك. ومعنى هذا أننا لانستطيع أن نفصل في الواقع بين الافكار الحرة والانسانية وبين بعض عواملها الاقتصادية . بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول ان الطابع الاوتوقراطي الديكتاتوري في نظم الحكم لا يرجع فقط الى مفهوم معين حول السلطة السياسية ، وانما يرجع في كثير من الاحيان الى عوامل اقتصادية ، على رأسها سيطرة الاقتصاد المتخلف . والصلة في الواقع صلة دائرية بين طبيعة النظام السياسي الذي يفرض اقتصاداً معيناً وبين طبيعة النظام الاقتصادي الذي يفرض نظاماً سياسياً معيناً .

ان الاشتراكية العربية ليست في معزل عن هذا المخاض كلـــه ، وعن معاني هذه التجربة العالمية ، وهي تجد فيها مايؤكد من جديد ارتباط المفاهيم الديمقراطية والانسانية للاشتراكية العربية بمفاهيمها الاقتصادية والاجتماعية .

ان شيوعية خروتشيف نفسها تنطلق اليوم من حقيقة كانت تنكرها شيوعية ستالين ، كانت عاملاً من عوامل الصراع بينهـــا وبين بعض الحركات الاشتراكية الاخرى ولاسيما الحركة الاشتراكية في يوغوسلافيا ، وهي أن ثمة طرقاً مختلفة لا طريقاً واحداً للاشتراكية .

ان في هذا التطور خير رد على الذين ينظرون الى السير الاشتراكي في البلدان العربية نظرة مبسطة مقلدة لماض تجاوزته الانسانية ، مغفلين الظروف الخاصة التي توجد فيها هذه البلدان ، تلك الظروف التي تحدد في نهاية الأمر شكل العلائق الاقتصادية الصحيحة التي تؤدي بهذه البلدان الى مطلبي التكامل الاجتماعي وزيادة الثروة معاً .

فالاشتراكية العربية ولا سيما في هذه المرحلة خاصة ، مرحلة الدخول في الاشتراكية ، تقيم كبير وزن لملائق الانتاج ولخطة الانتاج ، وتعي أعمق الوعي أن الاشتراكية تعني بناء الاقتصاد واغناءه بوسائل عديدة من بينها القضاء على عوامل الصراع الطبقي ، كما تعني التغلب على الاستغلال الرأسمالي والاقطاعي وتيسير ذلك التغلب عن طريق الحفاظ على المعنى الاقتصادي الايجابي للاشتراكية، معنى زيادة الثروة والدخل وتحقيق النماء والازدهار . ولئن كان من اللازب أن يتعرض المجتمع الاشتراكي في بداية أمره الى بعض التقشف ، فمن الواجب أن يكون بيناً ان ذلك التقشف يعد حقاً برخاء أكبر وازدهار آت ، وان تكون رؤية ذلك الرخاء والازدهار واضحة للأعـــين عن طريق خطة اقتصادية علمية مدروسة ، يستبين فيها دور رأس المال الخاص والقطاع الخاص الى جانب الدور الأساسي الذي للقطاع العام .

وبعد لنقل موجزين ان الاشتراكية العربية — رغم افتراقها في كثير من الامور عن الاشتراكية السوفياتية — لا بد أن تفيد من تطور هـــذه الاشتراكية ومن التحول الكبير الذي طرأ عليها ، وهي لا تعيش ١٩٦٤ وكأنها في عام ١٩٠٥ أو عام ١٩١٧ أو أيام ستالين . ولا نغلو اذا عدنا فقلنا ان هـــذا

التطور تصديق لكثير من المبادىء العامة التي نادت بها الاشتراكية العربية في بداية نشأتها وفي بداية خلافها مع الشيوعية .

لقد وضعت الاشتراكية العربية طابعها الانساني الديمقراطي والقومي في وجه الشيوعية يوم كانت هذه معادية لهذا الطابع . ولن تنسى الاشتراكية العربية اليوم هذا الطابع ، يوم أن أخذت بتقبله فمايبدو شيوعية خروتشيف نفسها . لقد تفاعلت شيوعية روسيا مع الاحداث في الدول الاشتراكية ومع التطورات التي أصابت المجتمعات الرأسمالية نفسها ، فغيرت وعدلت وقدمت تفسيرات جديدة . ولن تنسى الاشتراكية العربية هذه الاحداث والتطورات .

القواعد العسكرية والقانون الدولي (١)

بقلم عبد الوهاب الأزرق

— ٢ —

أما شراح قانون نابوليون وأعني بهم فقهاء القانون الخاص وهو القانون الذي يطلق عليه العلامة دوغي : قانون الملكية الخاصة : فانهم انتصروا لنظرية سلطان الارادة — (Pacta sunt servanda) وحرصوا على تطبيق جميع آثارها ووقفوا سداً منيعاً أمام تطور القضاء لم يجاروا القانون الدولي ولا القانون الاداري ولا قضاءهما ، ولم يرغبوا الاخذ بما تستدعيه مقتضيات العدالة وروح الانصاف ، ولو تغيرت الظروف تغيراً جوهرياً واصبح تنفيذ الاتفاق جائراً ، وحرموا ازالة هذا الحيف الطارىء عن هذا التغيير المفاجيء في الظروف مها كان مرهقاً (يراجع في ذلك بلانيول وريبر واسمان في الجزء الاول فقرة ٣٩١ و ٣٩٦ ، واطروحة سان مارك الصادرة في باريس

(١) نشر الجزء الاول من هذا البحث في العدد الماضي .

عام ١٩١٩ أو اطروحة رادوان الصادرةفيباريس عام ١٩٢٠ وموضوعها الحوادث الطارئة).

والمبدأ الذي تمسك به شراح قانون نابوليون واعني به (القوة الملزمة للعقد) يصفه الفقهاء المحدثون بأنه مبدأ يعتمده المستعمرون والمستبدون في الاتفاقات التي يفرضونها على البلاد المستضعفة ويتخذونه مؤيداً لباطلهم الذميم الذي عززته القوة الباغية في فترة سانحة من الزمن ، ويرى رجال القانون في وقتنا الحاضر ان النظريات الطويلة العريضة المبيقة التي تبناها شراح قانون نابوليون كلها ليست بذات غناء وهي نظريات تحاكي نظرية شيلوك في رواية تاجر البندقية لشكسبير حيث يقول : لأصل الى حقي ولو ادى ذلك الى خراب البسيطة (يراجع في ذلك مقال الاستاذ الفاريز تايو قاضي المحكمة العليا في مجلة القانون المقارن في بروكسل عام ١٩٦٣ العدد العاشرواطروحة ديجو نكير الصادرة في باريس عام ١٩٢٦ وموضوعها : نظرية الظروف الطارئة) . على أن هذا الجليد الذي كثفه شراح قانون نابوليونوالقضاء المدني الافرنسي من ورائهم اخذ يذوب على ايدي الفقهاء الجدد الذين اوسعوا نظرية التمسك بسلطان الارادة نقداً وتشهيراً ..

وفي طليعة هؤلاء الاعلام نذكر هوريو وديموغ وجوسران وبوميكاز وفاهل ..

ويقيم الفقيه الالماني الكبير فيندرشيد نظرية الظروف الطارئة على أساس افتراض وجود ارادة ضمنية بدون قيد لتبنى هذا الشرط ، والاثر القانوني لايتم الا عن حالة ملحوظة وبينة .

وأما الفقيـــه جيوربي فانه اعتبر هـــذه النظرية من البديهيـــات المستمدة من العدالة الارسطو كاليسية القديمة (Jus sumcuique tribuere) وهي تقتضي اقامة العدل واعطـــاء كل ذي حق حقه .

أما الفقيه الكبيرديموغ فانه يرى أن أساس هذه النظرية قد بني على التضامن فيالالتزامات ويرتب على ذلك هذا الاثر .

ويقول الفقيه روغجييرو في تبرير الاخذ بهذه النظرية ان روح الانصاف يجب أن تلطف من قسوة القانون عندما يتبين ان الالتزام ينطوي على عنت كبير ، ويؤكد الفقيه موري بأن التوازن بين الالتزامات هو اساس التراضي ، فان اختل هـــذا التوازن لأي سبب من الاسباب كان الرضاء مشوباً ، وان مبدأ القوة الملزمة للاتفاق يحده مبدأ آخر يقوم على وجوب توفر حسن النية ، ولهذا يقول فون تور ان مما يناقض مبدأ حسن النية ويخل به الزام المدين على التمسك بالتزامات فرضت عليه عند تنظيم العقد ولو تغيرت الظروف واضطرب التعادل في الالتزام بحيث اصبح تافها او غير عادل .

وجاء في اجتهـــاد لمحكمة النقض في توران بتاريخ ١٩١٦/١/١٦ أن العقود الملزمة للجانبين والتي يتم تنفيذها بصورة متلاحقة وليس لها اجل محدود يتم انعقادها كما لو انها تضمنت شرط تغير الظروف .

وصدر قرار عن محكمة جنوا بتاريخ ١٩١٥/١٢/٦ جاء فيه مانصه : (يوجد تعذر بالاضطلاع بالالتزام اذا كان هذا الالتزام ينطوي على خطر قد تتعرض له حياة المتعاقد المدين...).

وفي انكلترا تمشى العرف القانوني العام على تأييد الاجتهاد الفقهي القائل بانقضاء العقد عند توفر انعدام الهدف المتوخى بسبب حوادث طارئة (Frustration of the adventure) ، وقد عالج الاستاذ احمد زكي في اطروحته عام ١٩٣٠ الظروف الطارئة في القانون الانكليزي .

وفي المانيا استقر اجتهاد محكمة الرايخ الى اقرار مبدأ طلب فسخ العقد والغائه عندمايكون الوفاء بالالتزام اصبح يتطلب تعديلا جوهرياً ، أو اصبح محل الدين الذي اراده الفريقان في اساس العقد مختلفا وصار الاكراه على تنفيذه يغاير حسن النية .

والولايات المتحدة قد درجت على ذلك ، وقد اقرت المحكمة العليا فيها صحة صدور قانون مستعجل عند توفر الشروط التالية :

١ — وجود ظرف يستدعي العجلة ويفرض على الدولة حماية المصالح الحيوية للمواطنين .

٢ — اذا كان القانون له غرض مشروع لحماية المصالح العامة للمجتمع لا لمصالح اشخاص معينين .

٣ — اذا كان تخفيف الالتزام الذي بررته الظروف ، معقولا وضروريا .

٤ — اذا كان الخروج على احكام العقد وقتياً ومحدداً بالمهلة الضرورية لزوال الاسباب التي جعلت هذا الخروج لامفر منه .

وفي عام ١٩٣٢ اقر قانون خاص للعقود قنن الاجتهاد القضائي السائد حولها ونص على انقضاء الالتزام التعاقدي في العقود الملزمة للجانبين اذا استحال تنفيذه بسبب ظرف قاهر او حالة مفاجئة او حادث غير متوقع ومثله اذا صار الالتزام مرهقا او مختلفاً ايضا ..

وفي كوبا ذهبت محكمة القضاء الاداري في هافان بتاريخ ٩٥٦/٥/٧ وأيدت حكمها المحكمة العليا وقضت بفسخ عقد ايجار اداري للاسباب التالية .... وحيث انه في مثل هذه الظروف وتوفيقاً للمادة /١١٢٤/ من القانون المدني الذي يسود العقود الادارية وفق احكام المادة /١٦/ من القانون المشار اليه فانمن اللازم ان يقضي بانحلال العقد المطعون فيه ، لا لسبب عدم تنفيذ الالتزامات الاساسية المترتبة على المحافظة فحسب وانما بسبب الظروف — التي لم تكن متوقعة والتي هي اجنبية عن الفريقين ، واقتضت ذلك بتعديلها الشرائط الاساسية للعقد ، اذ تحول الالتزام بسببها من الوجهة الاقتصادية من جديد وصار يختلف اختلافا كبيرا عن الالتزام الذي هدف اليه المتعاقدان عند انشاء العقد لانه اذا جعلنا العقد اليوم ملزما نكون قد غايرنا مبدأ حسن النية الذي يسود كل اتفاق (المادة ١٢٥٨ من القانون المدني والمادة /٥٧/ من القانون التجاري)، او بتعبير اصح نكون غايرنا مبدأ العدالة وروح الانصاف التي يقتضيها السبب في العقود التي تكون بعوض والتي يشترط فيها تعادل الالتزامات فان انتفى هذا التعادل انحلت بالتالي تلك العقود ..) .

واخذت محكمة استئناف مصر بهذه النظرية في حكمها الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ والمنشور في المحاماة /١٢/ رقم /٤١/ صحيفة /٦٣/ وقد جاء فيه مانصه : انه وان كان من المقرر احترام العقود باعتبارها قانون المتعاقدين مادام لم يصبح تنفيذها مستحيلا ـ استحالة مطلقة لحادث قهري الا انه يجب ان يكون ذلك مقيدا بمقتضيات العدالة وروح الانصاف ، فاذا طرأت عند التنفيذ ظروف لم تكن في حسبان المتعاقدين وقت التعاقد ، وكان من شأنها ان تؤثر على حقوق الطرفين وواجباتهما بحيث تخل بتوازنها في العقد اخلالا خطيراً وتجعل التنفيذ مرهقا لدرجة لم يكن يتوقعها بحال من الاحوال فانه يكون من الظلم احترام العقد في مثل هذه الظروف ، ويجب عدلا العمل على مساعدة المدين وانقاذه من الخراب ، وان نظرية الطارىء بما لم يكن في حسبان المتعاقدين تختلف عن نظرية الحادث الجبري ، اذ ان هذه تتطلب لاجل ان تتحقق استحالة التنفيذ كلية ، وتلك تتطلب استحالة نسبية او بالاحرى ظرفا يجعل التنفيذ افدح خسارة واعظم ارهاقا للمدين ، وان الروح التي املت نظرية الاثراء على حساب الغير بغير سبب مشروع ونظرية الافراط في استعمال الحق مع عدم وجود نصوص في القانون خاصة بها هي نفسها التي تملي نظرية احترام الظروف الطارئة التي لم يكن يتوقعها المتعاقدان وقت التعاقد وقد اخذ بتطبيقاتها في نظرة الميسرة وفي الضرر غير المتوقع ...) ، «تراجع مجلة القانون والاقتصاد السنة الثانية مع تعليق الدكتور حامد زكي » .

وكان طبيعيا ان يضطرب آنذاك الفقه والقضاءان المختلط والوطني لهذا الحكم الثوري الجرىء الذي هزم هزاً عنيفاً وهم من نظم صيانة لنظرية القوة الملزمة للعقد — وتأييداً لما وسبق ان دعي القضاء المصري وعلى الاخص المختلط لابداء رأيه بشأن تطبيق نظرية الطوارىء في مناسبات مختلفة فرفض الاخذ بها واصر على هذا الرفض واستكبر استكبارا لان المدين المستضعف المنكوب الذي وجدت هذه النظرية لانصافه واسعافه عند اختلال التوازن هو الجانب الذي لم يكن له من يمثله في الاجهزة القائمة على اختلافها ، وليس ادل على ذلك من ان مصلحة الفئة المستبدة عندما تعرضت للاذى سارع القضاء المختلط فأخذ بهذه النظرية في المنازعات التي وقعت بعد تقلبات سعر المارك الالماني والفرنك الفرنسي .

وذهب رجال الفقه مذهب القضاء المختلط فعلقوا على هذا الحكم منكرين له ، وحجتهم (ان القضاء عليه ان يطبق القانون على ما هو عليه ، وان هذه النظرية التي اخذ بها الحكم التي سماها نظرية الطارىء بما ليس بالحسبان هي موضع نقد الناقدين الذين عابوا عليها « مضادتها للمبادىء التشريعية الاساسية ووقوفها حجر عثرة في سبيل تقدم الجماعة ورقيها وانها لا تتفق اصلاً مع الفن التشريعي الحاضر !!!) (يراجع في ذلك حامد زكي صاحب الاطروحة L'imprévision en Droit-Anglais) نظرية الطوارىء في القانون الانكليزي في مقاله المنشور في مجلة القانون والاقتصاد.

السنة الثانية (لم تماش محكمة النقض المصرية محكمة الاستئناف في هذه الخطوة الجريئة وانما غايرتها رأيها ونقضت حكمها مع اقرارها بأن هذه النظرية تقوم على اساس من العدل وحجتها ان الشارع وان كان قد اخذ بنظرية حساب الطوارىء في بعض الاحيان الا انه قد استبقى زمامها بيده يتدخل به فيما يشاء وقت الحاجة فما يكون للقضاء بعد ذلك الا ان يطبق القانون على ما هو عليه (نقض مدني في ١٤ يناير ١٩٣٢ مجموعة عمر ١ رقم ٣٢ ص ٥٢) ، وقد جاء القانون المدني الجديد وهو السائد فتدارك هذا النقص وسد تلك الثلمة واتى بالتشريع الذي كانت تتوخاه محكمة النقض وتشتهيه ، ولعل من الانصاف ان نقرر بأن العلامة الدكتور السنهوري « باشا » هو الذي يرجع اليه الفضل في استحداث هذا النص بعد ان رأى ... « ان من الواجب ان يفرد مكان لهذه النظرية في نصوص القانون لتظل منفذاً رئيسياً تجد منه التيارات الاجتماعية والاخلاقية سبيلها الى النظام القانوني لتثبت فيه عناصر الجدة والحياة ... (يراجع مشروع تنقيح القانون المدني).

وخاصة والقضاء المصري لم يجرؤ على اخـذ المبادهة ولعل له عذره في ذلك لأن التشريع المصري القديم مأخوذ من التشريع الفرنسي ، وهذا الاخير ، كما وصفه بحق العلامـة دوغي هو تشريع الملكية الخاصة وتسود احكام مواده قاعدة عدم جواز الانحراف عن ارادة ـ العاقدين ونظريه القوة التعاقدية الملزمة وقررهـا في مادته /١١٣٤/ نقلا عن الرومان وهو يرى ان استقرار التعامل يقتضي حرصاً بالغاً على التمسك بهذه المبادىء .

ولهذا اغتنمت الطلائع الفقهية الجديدة فرصة تنقيح القانون المدني المصري لتزيل مبدأ الجمود الذي علق بمواده وطالعتنا بحكم بالغ الاهمية في الفقرة الثانية من المادة ٢١٣ من مشروع القانون وقد استمدتها من المادة /٢٦٩/ من القانون البولوني واستثنى هـذا الحكم مبدأ الطوارىء غير المتوقعة من نطاق تطبيق القاعدة التي تحجر على القضاء تعديل العقود ، وجاء الشارع فأقر هـذا الحكم في الفقرة الثانية من المادة /١٤٧/ ونصها ما يلي : ومع ذلك اذا طرأت حوادث استثنائية عامة لم يكن في الوسع توقعها وترتب على حـدوثها ان تنفيذ الالتزام التعاقدي وان لم يصبح مستحيلا صار مرهقاً للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة ، جاز للقاضي تبعاً للظروف وبعد الموازنة ان يرد الالتزام المرهق الى الحد المعقول ويقع باطلاً كل اتفاق على خلاف ذلك ...) .

وجاء القانون المدني السوري الذي اقتبس مواد أحكامه من القانون المدني المصري بعجرها وبجرها وخيرها وشرها فأثبت هذا الحـكم بحذافيره في الفقرة الثانية من المادة ١٤٨ .

ومن جهة اخرى فان الفقه الحديث في جميع دول العالم اخذ يطالب بضرورة تطبيق هذه النظرية في العقود الخاصة مثل تطبيقها في القانون الدولي ونادى بذلك الاستاذ (Bruzin) في اطروحته التي صدرت عام ١٩٢٢ في بوردو وعنوانها : - Essai sur la notion de L'im Prévision } وايد هذه الدعوى الفقيه الافرنسي الاكبر دوغي في مقال له نشرته مجلة السياسة

والبرلمانية عام ١٩١٦ ، وقبل مثل ذلك العلامة هوريو ، وذلك لان هذه النظرية تستجيب لحاجة ملحة تقتضيها العدالة والنصفة وما هي في الواقع الا بسطة في نطاق نظرية الاستغلال ، ولهذا جاءت الشرائع الحديثة حريصة على التمسك بها وعملت على اثباتها (المادة ١٠٢٤ كيبل والمادة ١٢٣٢ الارجنتيني والمادة ١٣٩ المشروع الافرنسي الايطالي والمادة ٦٠ البولوني والمادة ٢١١ الصيني .) ، وقد وجد الفقهاء لها سنداً في المبادىء العامة للقانون المدني لان النظرية تقوم على أساس المبدأ القاضي بأن العقود يجب تنفيذها بحسن النية ، وان نظرية السبب تصلح سنداً لانه متى وصل التزام المدين الى حد الارهاق اصبح لا يستند الى سند كامل ووجب انقاصه .

واذا كان العقد شريعة المتعاقدين فليس ثمة عقود تحكم فيها المباني كما كان الشأن في بعض العقود عند الرومان ، فحسن النية يظل العقود جميعاً سواء فيا يتعلق بتعيين مضمونها ام فيا يتعلق بكيفية تنفيذها .

وهذا المبدأ الفقهي الذي اطلنا واسرفنا في الاطالة في التحدث عنه كان ما زال يلقى مقاومة بعض المشتغلين في القانون المدني ، فان الاجماع قد انعقد عليه في القانون الدولي العام ، واصبح من المتفق عليه أن يفترض في كل اتفاق دولي شرط تغير الظروف (Rebus sic stantibus) أي أن الاتفاق ينفذ كما هو ما دامت ظروفه لم تتبدل فان تغيرت هذه الظروف وجب ازالة الحيف الناشىء عن هذا التغير الفجائي في الظروف .

واذا كان حقاً ما ذهب اليه الاستاذ الكبير « السنهوري باشا » من أن العصر الذي نعيشه هو عصر تغلغل الاشتراكية والروح الخلقية في قواعد القانون المدني (Socialisation et moralisation du droit) ، وانه لزاماً على هذه الشرائع أن تفسح المجال لهذه المبادىء ... فانا نستطيع جريا على هذا القول ان نقرر أنه في ميدان القانون العام يعتبر عصرنا هذا عصر التحرر وحق تقرير المصير وتصفية الاستغلال .

ويقول الفقيه الارجنتيني الاستاذ انتوكولتس في مؤلفه في القانون الدولي العام : (انه عندما تكون المعاهدة ليس لها مدة محددة أو أنها طويلة الاجل وكان الفريق الذي يستغل بنودها قد أصم اذنيه ولم يسعف المتعاقد المنكوب الذي طالب باعادة النظر في احكامها فان من حق الفريق الضعيف الرجوع الى التحكيم لتطبيق مبدأ تغير الظروف (Rebus sic stantibus) .

وطريق المراجعة هذا قد لحظته المادة ٣٦ من نظام محكمة العدل الدولية اذ بموجبها تختص هذه المحكمة بالفصل في المنازعات التي يرفعها اليها المتخاصمون وفي جميع الحالات وخاصة منها تلك التي لحظها ميثاق الامم المتحدة .

وان المادة ٣٨ من النظام الذي اشرنا اليه تحتم على محـكمة العدل الدولية تطبيق المبادىء العامة للقانون التي اقرتها الامم المتمدنة والاجتهاد القضائي الذي استقر على تطبيقها .

ومن جهة اخرى فان المادة ٣٦ من ميثاق الامم المتحدة يخول مجلس الامن حق الطلب الى الفريقين المتنازعين ، ان كان نزاعهما قد يؤدي استمراره الى تهديد السلم والامن الدوليين ان يطرحا هذا النزاع على محكمة العدل الدولية توفيقاً لنظام هذه المحـكمة .

وان الدساتير التي حرمت تصديق أو ابرام معاهدات أو مواثيق أو اتفاقات من شأنها المساس في سيادة الامة على كامل تربتها ... ان هذا المبدأ الدستوري له اولوية التطبيق ، وكل معاهدة أو اتفاق يحد من مدى هذا المبدأ الدستوري لا يراعى ولا يحترم .

ويخطيء الباحثون الذين يقولون بأن هذا المبدأ الدستوري لا يشمل ما قبله ولا يمتد الى المعاهدات التي اقيمت القواعد العسكرية بموجبها ، ذلك لان الدساتير عندما تحدد مهلا للتطبيق تنص على أن (القوانين) ليس لها مفعول رجعي ، أي أن ذلك يسري على القواعد التي تصدر عن الهيئة التشريعية ولكنه لا يتناول بأي حال من الاحوال القواعد التي قررها الدستور واقرتها الجمعية التأسيسية لان هذه القواعد هي واحدة في اهميتها ومداها وتعتبر ككل لا يقبل التجزئة ، وبالتالي لا يمكن الرجوع الى قاعدة منها للحد من قيمة قاعدة اخرى دستورية أو انتقاص فعاليتها أو حجيتها .

ولهـــذا فان جميع الاتفاقات الدولية التي تتعارض مع نص دستوري ولو صدر النص الدستوري بعد التوقيع على تلك المعاهدات فانه يمتد اليها ويجعل الحـكم الذي نصت عليه لاعبرتها .

وان احتواء المعاهدة على عقد ايجار ممتد ومتراخ أو لاجل طويل الامد يعتبر من الوجهة العملية كالحاق جزء من الارض الوطنية أو اشغالها من قبل دولة اجنبية . ان السيادة على التربة الوطنية هي ملك الامة ولا يحق للحكومة أن تتنازع حقها الا وفق نصوص الدستور .

والاجتهاد القضائي قد استقر على أن المعاهدات التي لها قوة القانون يمكن أن يصار الى تفسيرها وفق القواعد العامة المتبعة في تفسير القوانين الخاصة ، وهذا التفسير يمكن أن يمحص من قبل المحـكمة العليا التي تملك حق البحث في دستورية القوانين والمراسيم والاتفاقات ، واذا قامت هذه المحـكمة بتفسير هذه العقود والصكوك الدولية فانها لا تكون قد تخطت اختصاصها وجاوزت صلاحيتها وتعدت الحدود التي اقيمت لمارسة وظيفتها ، وذلك لان المعاهدة بعد اقرارها من مجلس الامة تصدر كقانون مثله كمثل سائر القوانين ، وهكذا تنتقل من الميدان الدولي الى الميدان الداخلي وتصبح جزءاً من القانون الوطني ويصار الى تفسيرها كما يصار الى تفسير الصكوك الحقوقية الخاضعة للقانون الداخلي انه لا يفصل فيه على انه صك ديبلوماسي ولكن على اساس تحديد مدى اختصاص السلطة الوطنية التي وقعته واقرته .

وقد صدرت اقضية في ايطاليا تؤيد هذا الاجتهاد ، ووضعت محكمة النقض في فلورانسا المبدأ التالي : ان المعاهدات التي لها قوة القانون تفسر القانون المحلي ، ويتقيد القاضي قانوناويخضع لرقابة محكمة النقض في التفسير الذي يصدر عنه ذلك لان قاضي الموضوع عندما يستخلص ارادة المتعاقدين من الواقع الذي ثبت عنده ، يجب ان يكون هذا الواقع ثابتاً من مصادر موجودة فعلا لا وهماً ... ومتى كشف القاضي عن ارادة المتعاقدين كيفها بعد ذلك التكييف الصحيح ورتب على هذا التكييف آثاره القانونية . فان قام شك في التعرف على ارادة المتعاقدين فسر الشك في مصلحة المدين ، وهذه القاعدة الاساسية اخذت بها اغلب التقنينات .

وقد يقال بأن الدول التي كانت بالامس محتلة ثم انقلبت الى دول مستأجرة اجارة طويلة ليست ملزمـة بالرضوخ لاحكام قضائنا ... ومثل هذه الحجة قد تثير الشك في الموضوع ، ولكن متى رجعنا الى ان هذه الدول ذاتها قد اعترفت بالسيادة القطعية للدول التي اقامت فيها قواعدها العسكرية بما فيها الاراضي التي اقيمت فيها هذه القواعد انهارت هذه الحجة لان الايجار لا يعطي المستأجر حقاً غير الاشغال والانتفاع ولايمس حق الملك والتصرف ، ولهذا يظل القضاء المحلي هو المختص للفصل في النازعات التي قد تنشأ حول قيمة عقد الايجار واثره القانوني .

وان من يطالع اتفاقيات القواعد العسكرية يجد انها جاءت بصيغ متماثلة ، وانها نصت في بنودهاعلى أن الاراضي المؤجرة اذا كان فيها ما يعود للافراد العاديين وجب على الدولة المؤجرة ان تقوم بحيازتـها اصولاً ... ولعل هذا الاقرار بحق الدولة المؤجرة في الـ (Dominium) والـ (Imperium) على كامل ترابها من الوضوح مالا يحتاج معه الى أي دليل آخر .

هذا من الناحية القانونية ، اما من الناحية السياسية فالامر الذي لايقبل الشك ولا يحتمل الجدل ان الدول المستعمرة في اقامتها هذه القواعد ، تحت ستار عقود الايجار انما ارادت ان تجعلها ، خوازيق جحا ، وان المعاهدات المعقودة بين الدول المحتلة والامارات المقتسمة اريد بها مجاراة لغة العصر الحديث واستبدال الدولة الحامية والامارات المحمية بدول متعاهدة متحالفة ذات مصالح متبادلة ؟ ، وهي تهدف من وراء هذه الصورية ان تلبس لباساً جديداً يواري سوآتها وعوراتها ... ولكنها في الواقع لم تلبس لباس التقوى ولم تخصف عليها من ورق الجنة ... وانما لبست خزياً الى خزي واضافت عاراً الى عار ، وظلت تسعى سعي الافاعي وتنق نقيق الضفادع وهي في جوحها وبغيها واستذلالها لا تحفل بسخط الشعوب ولا تستحي من لعنة التاريخ ... اولئك الذين لعنهم الله فأصمهم واعمى ابصارهم ... أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم ... ام حسب الذين في قلوبهـم مرض ان لن يخرج الله اضغانهم ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ... انهم لن يضروا الله شيئاً وسيحبط اعمالهم ... ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ...

ان المعاهدة التي تريد التستر على عقد إيجار ممتد الى اجل طويل ، وان تتخذ المأجور قاعدة حربية تدخر فيها قنابل الموت وصواريخ التدمير وتجعل السماء تفور بركام من السحائب الجوف اصبحت حين تعرض بنودها لاتخفي منها خافية انهـا احتلال عسكري في ثوب جديد وغصب بيّن ظاهره وباطنه العذاب .

ومهما قيل في تبرير هذا الغصب على ضوء احكام القانون المدني من زخرف الوصف فانه لايستطيع ان يجد متكأً له في القانون الدولي ، لان احكامه قد استقرت بعد الحرب العالمية الثانية على امكانية الغـاء المعاهدات الدولية من جانب واحد اذا كان ثمة اسباب جسيمة تستدعي ذلك ، وذكر الفقهاء الدوليون ان انعدام التوازن والتساوي يعتبر في طليعة هذه الاسباب لتنافيه مـــع المادة الاولى الفقرة الثانية والمادة الثانية الفقرة الاولى من ميثاق هيئة الامم المتحدة ، وان مقدمة الميثاق تقرر ايمان الشعوب في التساوي في حقوق الامم . .

ان التطور الخطير الذي وفق اليه القـانون الدولي الحديث جعل من المبادىء المقررة ان الدول تستطيع التنكر للتعهدات التعاقدية التي تمت في زمن كانت فيه خاضعة للاستعمار — او لأي نوع من انواع التبعية السياسية والاقتصادية وذلك استناداً لمبـــدأ تغير الظروف الذي سبق واوضحناه حتى ولو لم ينص على مثل هذا القيد الاحترازي .

ولاشك انه يكون الامر اولى ثم اولى عندما يكون الالتزام ثمرة من معاهدات تمت مع الدول التي كانت مستعمرة او حامية ، والصلة التي كانت قائمة بين الدول المستعمرة وبين كل من الدول والامارات العربية التي تحتفظ فيهـا بقواعد او بأحلاف هي صلة تبعية لايجمع بينها لسان ولا تاريخ ولامجد ، والشرع الدولي والمؤتمرات الدولية السياسية او القانونية كلها تتجه لتخويل الدول الناشئة حق التحلل من رواسب الاستعمار ومخلفاته بعد ان غربت شمسه ومد جزره وقضى نحبه .

وان حق الدول بالغاء التعهدات الدولية بسبب تغير الظروف وتبدل الاوضاع قد اعترف به في مناسبات دولية مختلفة واقرته محكمة العدل الدولية في النزاع الاخير الذي قام بين الهنـــد والبرتغال والمتعلق بحق المرور في بعض اجزاء من الارض الهندية (القضية رقم ٢٥٨ عام ١٩٦٠) والدول اخذت تعترف بحق الغاء التعهدات الدولية عند وقوع تبدل جوهري في وضـع احدى الدول او في الصلات التي كانت تربط الدول المتعاقدة ، وما زلنـا نذكر ان الولايات المتحدة انسحبت غداة استقلال اندونيسيا من القواعد العسكرية والبحرية التي كانت فوق الاراضي الاندونيسية .

واستغلت الولايات المتحدة هذا الحق في المؤتمر الثامن لوزراء خارجية الدول الامريكية المنعقد في بونتا حيث أصدر المؤتمرون قرارا بتاريخ ٣١/١/٩٦٢ قضى بأخراج كوبامن منظمة الدول الامريكية واستند في اصدار هذا القرار على مبدأ تغير الظروف اذ انهم وجدوا في اعتناق

كوبا للماركسية اللينينية سبباً صالحاً لاتخاذ القرار الذي نوهنــا بــه : وان القواعد العسكرية والاحلاف الصورية التي استبقاها الاستعمار في الاقطار العربية بالحيلة والقوة في الظـلام الداجي تعتبر اعتداء دولياً صارخاً على سيادتها ، انها تمنع شعوب البلدان الناشئة التي ارتبطت كرهــا او خداعا بهذه التعهدات من ممارسة حقها حرة طليقة بالتصرف في شؤونها ، كما انها تعرض للخطر بصورة دائمة سلامة بلادها وتعويق وحدتها واستقلال مرافقها وهي بذلك تغاير حكم الفقرة الرابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة وتعبث في تطبيقها .

ان استبقـاء القواعد الحربية في البلاد العربية ليس له أي طابع دفاعي ، والاستعمار اذا يعلن ذلك انما يفند الحق ويؤيد الباطل ويخادع نفسه ولا يخدع احدا سواه ، وقيام هذه القواعد لاتضار منه البلاد العربية وحدها وانما يهدد السلم والامن الدوليين وناهيكم بما في ذلك من اخطار يجب العمل على تجنبها ومحاذرتها لا من الامة العربية وحدها وانما من المحــافل الدولية بأسرهـا لتجتث اصولها من فوق الارض فما لها من قرار .

ان الغرض الاسمى للشرع الدولي المعاصر هو الحفاظ على السلم والعمل بمختلف الوسائل على توطيده ، فاذا كانت التعهدات لاتأتلف وهذه الغاية المرجوة او ان بقاءها كان من شأنه ان يزيد في التوتر الدولي فانه لايمكن أن تصطبغ بالشرعية ، لقد نصت المادة الاولى من ميثاق الامم المتحـــدة على مايلي : « بغية تجنب واقصاء كل تهديد للسلم والقضاء على كل عمل عدواني أو أي تعكير للامن ... »

اننا نستطيع ان نؤكد انه لأول مرة في التاريخ تشرق شمس القواعد الدولية من افق هيئة الامم المتحدة لتلتي اضواءها الهادية فتغمر الشعوب النامية لتؤكد لها ان الدول كبيرها وصغيرها اصبحت سواسية كأسنان المشط ، وان الدول المستعمرة لم تعد تقوى على اشاعـــة الظلم ونشر الارهاب وانها مهما اوتيت من ملكوت وجبروت فانهـــا لن تستطيع ان تطفيء نور الحرية أو تخفت صوت الحق .

ان الدول الصغيرة تملك من امر سيادتها وسياستها الخـارجية ماتملكه الدول الكبرى ، وهي قادرة على الحفاظ على حقوقها المشروعة من غير ان تخشى رعودا قاصفة او بروقا خاطفة ، وتدخل دولة في شؤون دولة اخرى مبدأ اندثر ومات ، واذا ذكر فللعبرة والتاريخ ...

وان اشعة الحياة والعزة التي تمثلت في المبادىء والاهداف التي بشر بها ميثاق هيئة الامم المتحدة يوم ميلاده في سان فرنسيسكو في السادس والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٤٥ لن تقوى قوى الاستعمار ان تطفيء نورها الوهاج وان استفحل الشر ، لأن الله قد كفل لها الخلود ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الـكافرون .

الثقافة بين الفعل والاهمال

بقلم عبد الرؤوف الخنيسي

تونس -

« مثلما اخاف على وجودي من العدم
اخشى على الثقافة من الهدم »

تنثال علي وانا أكتب عن الثقافة افكار شاسعة الرحاب هي اقرب الى الخواطر والعوارض منها الى المنهجية العلميـة والتحديد الموضوعي الدقيق ، ذلك لأن مفهوم الثقافة تطور عبر الاجيال والزمن الى معان كثيرة لاتحصى ولا تحد واصبح مفهوم الثقافة كمفهوم الحياة يحتاج الى بحث وعرض واستنتاج ونقد ، وذلك لأن الثقافة المعاصرة تلونت بالوان الحضارة وتكيفت بها حتى خلناها طريق التفنن والتمدن فهل يراد بالثقافة مايحصل لنا من لغـــة وفقه ودين وأدب وعلم وفن ؟ أم مايحصل لنا بعد استقراء التاريخ ودراسة احوال الامم والمجتمعات ؟ أم باعتبارها أثراً زاخراً تضافرت على انمائه واحيائه حضارات الشعوب ؟ او هل الثقافة يقظة وحس وفعل ؟

انه لعسير جداً ان نأتي بالاجابة المفصلة عن هـذه الاسئلة كما انه ليعسر علينا شرح مفهومها الازلي والحديث ـ رغم انتشارها في بطون المعاجم وأمهات الكتب ـ فلنعد الى معجم البلدان للشيخ الامام شهاب الدين ابي عبد الله ياقـــوت ابن عبد الله الحموي، والى اساس البلاغة للزمخشري ، والى لسان العرب لابن منظور والمثاليين كعبد الله بن المقفع وكأبي عثمان الجاحظ وأبي حيان التوحيدي وبديع الزمان الهمذاني وابن سينا وابن رشد وابن حزم وابن خفاجة وابن طفيل وابن خلدون والكندي .

● ثقف : بالفتح ثم بالسكون ، رجل ثقف أي حاذق ، وفي أساس البلاغة للزمخشري ثقف العلم أو الصناعة في أوحى مدة اذا اسرعت أخـذه ... ومن المجاز ادبه وثقفه ... ولولا تثقيفك وتوفيقك لما كنت شيئاً ... وما تهذبت وتثقفت الا على يدك .

ويعرف لسان العرب « الثقافة » بقوله : ثقف الشيء ثقفـــاً حذقه ، ورجـل ثقف و ثقف ، حاذق ، فهم ، واتبعوه فقالوا ثقف لقف ، اذا كان ضابطاً لما يحويه ، قائماً به ، ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم ...

● ولئن انسى بعض ذكريات عذبة مرة من طفولتي فلن انسى اليوم الممطر الحزين الذي قادتني فيه امي الى كتاب جدي قائلة : سأحملك ياعزيزي الى والدي مؤدب الصبيان ليفعم صدرك قرآنا ولسانك طلاقـة وقلبك ايماناً . ورحم الله جدي فلقد ثقفني ثقافة دينية منبعها الكتاب العزيز والحديث المحمدي الشريف . ورحم الله جدي فقد حفظني بالعصا والقلم ألفية ابن مالك والبردة والاجرومية وما كنت ادري ان مؤدب حومتي الحمراء ترك في نفسي ثقافة دينية اصيلة وجعلني اعتقد ان الثقافة درس ومعرفة وادراك وحس وفعل . ثم ما كنت ادري ان حفظي لنصيب من القرآن الكريم سيقوّم لساني ويثقف وجداني ويجعلني معتقداً بان

الثقافة الاسلامية شعت على الشرق والغرب عن طريق القرآن فجعلت من الاعرابي الجلف مؤمناً حكيما ومن الجاهلي الغليظ مسلماً كريماً .

● واذا كانت الصحراء العربية — مهبط الانبياء والوحي — قد خلقت فيها اللغة الاداة الاولى للثقافة العربية ، فان هذه اللغة هضمت بعض الالفاظ الاعجمية وعربتها واخذت من غيرها ، فكانت اللغة احدى دعائم اسس الثقافة أوجدت كيانها واثبتت مرونتها ومتانتها في آن واحد .

● ويمكن أن نعتبر الثقافة العربية انسانية في مضمونها وشكلها ساعدت اثر الاسلام والفتوحات الاسلامية على تثقيف الانسان روحيا وجمعت بين أجزاء البشرية شرقيها وغربيها . والدارس للتاريخ يعترف ماكان لثقافتنا من مقومات خلقية غلبت البداوة . فقد ساعدت العقل في طفولته وصقلته وهذبته ، وعندي ان ثقافتنا قامت بدور تاريخي مهم أوضحت طريق الانسان في وجوده وفتحت سبل الخير والسعادة والحقيقة والجمال والطمأنينة وما اتصالها بالصين والهند والترك والفرس والروم والفرنج الا اتصال خير قوّى كيانها وفرّع جذورها بالعلوم والحكمة ، وهو اتصال ربط الثقافة بمفهوم انساني جمالي لها يصله الانسان بعدعمل الفكر والذوق وبعد المعرفة الشاملة التي تولد فينا ثقافة شاعرة مدركة تبدع وتفتن كما يرى الغزالي في حديثه عن الذوق :

« فانظر الى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع ادراك ، ويحرم منه بعضهم حتى لاتتميز عندهم الالحان الموزونة من الرجفة وانظر كيف عظمت قوة الذوق في آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والاغاني وصنوف الدستانات التي منها المحزن ومنها المطرب ومنها المنوم ومنها المبكي ، ومنها المجنن ، ومنها القاتل ، ومنها الموجب للغشي . وانما تقوى هذه الآثار فيمن له اصل الذوق . وأما

العاطل عن خاصية الذوق، فانه يشارك في سماع الصوت، وتضعف فيه هذه الآثار وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشي » (١)

● وكل دارس لأدب الجاحظ والكندي يدرك علاقة الحس بالعقل المثقف وقد ذكر لنا التاريخ أئمة في الفكر جمعوا بين ثقافة الحس والفعل وقاموا بأبحاث يقرها عصر الفضاء والوصول الى القمر فالعربي المثقف استخدم الموسيقى آلة طبية تروّح المحزون والكندي فيلسوفنا المثقف قام في ترتيب الانغام المنعشة والانغام المقبضة. وورد عنه في ابن القفطي في مداواة احد أبناء التجار:

فلما رأى الكندي ابنه واخذ بجسه امر بان يحضر اليه من تلاميذه في علم الموسيقى من قد انتم الحذق بضرب العود وعرف الطرائق المحزنة والمفرحة والمقوية للقلوب والنفوس فحضر اليه منه اربعة نفر فامرهم ان يديموا الضرب عند رأسه وأن يأخذوا في طريقة وقفهم عليها (٢).

فالثقافة حس حاد ينتاب المثقف ويدخل عليه شعوراً غريباً لا يعرفه الا المثقف الشاعر. وهذا الشعور يجن به صاحبه ويبقيه في حيرة من امره ترى ماذا يفعل: وهنا يكون المثقف قد دفع بفعل الحس الى البحث والاستنتاج فتخاله طبيباً يجرب آلات طبه لتكون صالحة للمرضى المساكين. او تخاله مهندساً يبحث عما في طبقات الأرض من خفايا وخبايا. وأشهد ان المثقف الحق يمر بهذه الحالات وفي كثير من الأحيان يخطيء وفي قليل من الأحيان يصيب، اذ عمل المثقف أعسر مما نتصور ونظن..

---

(١) الغزالي.
(٢) اضواء جديدة على الكندي بقلم محمد يحيى الهاشمي رئيس جمعية الابحاث العلمية بحلب مجلة الأنباء ـ السنة الرابعة كانون الاول ١٩٦٣

لكن قد نسأل هذا السؤال : ماذا يفعل المثقف ازاء اخفاقه في صورة ما، ايقطع التجربة ويستكين ام يواصل السير فلا قطيعة ولا انهزامية ؟

وللاجابة عن هذا السؤال اضيف حرف التاء الى المثقف حتى لا ينفخ ما في الصور . فالمثقف ليس هو من كملت ثقافتـه وثقف عقله وزخر قلبه بل هو الانسان الذي يتثقف باستمرار ان لم اقل يتثقف آناء الليل واطراف النهار وفي رأيي ان رجل الثقافة لا يحقق في رسالته المنشودة ما دام على صلة بالواقع المعاش ولا يعرض عما يخلقه الفكر البشري في المجالين العلمي والأدبي بقدر الامكان .

وقديماً قالوا : اطلب العلم من المهد الى اللحد ، وما العلم هنا الا الثقافة التي تماشيك وتسايرك فاطلبها من المهد الى اللحد — اطال الله في عمرك — .

صحيح ان دنيانا اليوم زخرت بالفنون الغربية التي تقصي الانسان حتى عن محيطه النفسي والعائلي ، وصحيح ان الحضارة بما فيها من سينما وتلفزة ودور لهو وفنون ابقت الانسان يشكو الهوى ولا يعرف لماذا ينقاد والى اين المصير ..

ولكني ارى المثقف الصحيح يثبت في هذه الحالة ثباتاً يعزز وجوده الاخصب.

● اما اذا حلى لبعضهم فتحدث عن حضارة اوروبا وثقافتها فالحق اني اخشى ما اخشاه ان يفهم الناس خلط هذا بذاك اذ الكثير منهم يرى البلد المتحضر هو البلد المثقف روحياً وعقلياً . فلننظر ملياً مافعلته النازية الهدامة في بني الانسان أليس ذلك خور الحضارة ؟ ولننظر ملياً في الحضارة الامريكية كيف يحيا اصحابها حياة المجون والمادة تستعبدهم السينما والتلفزيون والاعلانات التجارية ثم انظر ملياً في المانيا وانكلترا وفرنسا ثم انظر ملياً في ثقافتنا واسباب قوتها ورخاوتها عبر العصور . . . والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة احواله ، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ او الملابس او المباني او الفرش او الانية ، ولسائر أحوال المنزل . وللتأنق في كل

واحد من هذه صنائع كثيرة لايحتاج اليها عند البداوة وعدم التأنق فيها واذا بلغ التأنق في هذه الاحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بالوان كثيرة لايستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها ... فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هي الحضارة والترف ، وانه اذ بلغ غايته انقلب الى الفســـاد واخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات ، بل نقول ان الاخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد ، لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته اما عجزاً لما حصل له من الدعة او ترفاً لما حصل له من المربى في النعيم والترف ، وكل الامرين ذميم وكذا لايقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خلق الانسان بالترف والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ، ثم هو فاسد أيضاً غالباً بما فسدت منه العوائد وطاعتها ، وما تلونت به النفس من مكانتهـــا كما قررناه الا في الاقل النادر ، واذا فسد الانسان في قدرته على اخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخاً على الحقيقة،وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقد تبين ان الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لايشغله شأن عن شأن» (١) .

● فالحضارة اليونانية مثلاً قبل ان يفهم الانسان اسرار الكون وقبل أن يسخر قسماً كبيراً من الطبيعة حضارة فيها المثل الوهمي وفيها الآلهــة المزعومة فاحدثت ثقافتهم كتابا ككتاب الالياذة وهو كتاب لا يمكن ان يكتب في القرن

---

(١) المقدمة لابن خلدون « في ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده » صفحة ٦٦٩ منشورات دار الكتاب اللبناني .

العشرين مثلا وقد تقدمت الحضارة كما تقدمت ، ثم ان حضارة القرن العشرين من جهة اخرى ما كانت لتكون على ماهي عليه من رقي مادي لو لم تتقـــدم مكونات الثقافة بأجمعها من علوم،وأدب وأخلاق وفنون (١) .

● فالحضارة شرط أساسي لثقافة المرء دون ان تكون شرطاً كافيـــا فكل متثقف متحضر وليس كل متحضر مثقفاً .

● والحضارة تتأثر بثقافة المرء اذا عرف المرء سبيل الرشاد اليها اما اذا اثرت فيه فلا يعدها نهوضا ولا صعوداً لان الحضارة تأخذ في أكل الجانب الحسن من رجل الثقافة وتمتص ينابيع الخلق والابداع فيه ولا يفهم من هذا ان الحضارة الغربية أضرت بمثقفيها وهي حضارة مادية الجوهر والعارض فأنا أعترف بكثير من المقومات الخلقية التي جاءت بها الحضارة الغربية عن طريق مثقفي الماضي والحاضر .

● ولقد يبتهج الانسان ـ وحق له ان يبتهج ـ عندما يرى في تاريخنـــا شخصيات فذة فتحت امام بني الانسان آفاق المعرفة فالثقافة شرقا وغربا شعت من معرة النعمان ومدارس الكوفة وبيت الحكمة القيروانية .

ولعل شيخها الكبير أبي العلاء المعري خير مثقف جمع بين الحس والفعل ويروي القفطي انه كان يحفظ مايمر بسمعه وان رجلا من اليمن وقع اليه كتاب في اللغة سقط أوله وأعجبه جمعه وترتيبه فكان يحمله معـــه ويحج فاذا اجتمع بمن فيـه أدب أراه اياه وسأله عن اسمه واسم مصنفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره واتفق ان وجد من يعلم حال ابي العلاء فدله عليه فخرج الرجل بالكتاب الى الشام ووصل الى المعرة واجتمع بأبي العلاء وعرفه ماحاله وأحضر الكتاب وهو مقطوع الاول ، فقال له ابو العلاء : اقرأ منه شيئاً فقرأه عليه فقال له ابو العلاء هذا الكتاب اسمه كذا ومصنفه فلان ثم قرأ عليه من أول الكتاب الى ان وصل الى ماهو عند

(١) عامر غديره

الرجل ، فنقل عنه النقص وأكمل عليه تصحيح النسخة وانفصل الى اليمن فأخبر الادباء بذلك ، وقد قيل ان هذا الكتاب هو ديوان الادب للفارابي اللغوي وهو مضبوط على أوزان الأفعال (١)

● ولقد كان الأدب في بلاط المعز على درجة عالية من الثقافة الأدبية والذوق الفني الرفيع بما أهله لنقد آثار كبار الشعراء نقداً يدل على سعة اطلاع وحس وفعل وإدراك وهي ثقافة اتجهت ان ترفع من اسرة المعرفة والعلم واتجهت الى المجالس العلمية والأدبية وإقتناء نفائس الكتب والاقبال على رجال العلم حتى انه كلما سمع بعالم او شاعر ذاعت شهرته استدعاه لبلاطه وضمه لخاصته وأغدق عليه ألوان الحظوة والتشجيع فأصبح (محط بني الآمال) كما قال ابن خلكان في وفيات الأعيان وكل ذلك جعل الثقافة تورق وتورف حتى ان رجال بلاطه حافظ عليهم التاريخ أمثال ابن أبي الرجال استاذ المعز ومربيه ورئيس ديوان رسائله وابن شرف وابن رشيق وابي اسحاق الحصري صاحب الآداب وشيخ الجماعة الذي كانت داره كعبة يحج اليها في القيروان .

● قال ابن رشيق :

« كانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه وهو راس عندهم وشرف لديهم »

وكم تحدى اهل الثقافة بعضهم بعضا وكم فخروا بأنفسهم واتساع معارفهم أليس الحصرى هو القائل في رثاء ولده :

ولا عجب لجوهــرتي — أليس البحر معدنهـــا

● ولئن حددنا بعض الشيء مفهوم الثقافة العام ، فما هي الثقافة العصرية وما هي رسالة المثقف في المجتمـــع المتقدم والنامي وبالتدقيق ما هي مسؤولية رجل الثقافة ؟

(٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف الطبعة الثالثة منشورات مكتبة الاندلس.

اذا أردنا ان نختصر الزمن والمجال وضبط ما يفهم من الثقافة بشيء من الوضوح قلنا انها في الجملة ملاقاة معارف عامة عند مصب واحد وهي ادراك يقترن بالمعرفة والعمل اقتراناً لا انفصال فيه فالمثقف اليوم رجل مسؤول في المجتمع مسؤوليته كبرى تتطلب الجد ومواصلة البحث وثبات الموقف ، وهي مسؤولية على المثقف العربي ان يتحملها في مجتمعه المتخلف ، او النامي لان كلمة التخلف اكرهها وما مسؤوليته في المجتمع النامي الا مسؤولية عسيرة مزدوجة تجمع بين حقيقته كمواطن من الشعب وبين حقيقته كمفكر من المثقفين وسيمون دي بوفوار Simone de Beauvoire في كتابها قوة الاشياء La force des choses تعيب على اندري مالروكيف قبل الوزارة الثقافية الفرنسية ويقضي حياته بين التقارير والملفات مبتعداً بنفسه وعقله عن دنيا المثقفين الخاصة وان كانت تستدرك فتقول : ربما يقع ذلك في البلدان المتخلفة فمسؤولية المثقف في البلد المتخلف تختلف عن مسؤوليته في البلد المتقدم لكن ماذا نعني بالتقدم اهو التقدم الحضاري وقد سبق لنا ان قلنا ان الحضارة المعاصرة هدامة لاسس الثقافة الخلقية الجمالية ؟ انعني التقدم الصناعي ام التقدم الاجتماعي الاقتصادي ؟ .

لاشك أني اعني التقدم الاجتماعي الذي يقضي على الفاقة والفقر ويوفر اسباب العيش والسلامة والصحة ، ففي هذا المجتمع المتقدم المثقف مسؤول مسئولية لاتقل اهمية عن مسؤوليته في المجتمع المتخلف وهي مسئولية تعمل على خلق أخاء كامل يقضي على بذور الشر ويشيد مدنا يسكنها الانسان مع بني الانسان في كل زمان ومكان .

بينما في المجتمع تكون المسؤولية متنوعة في رفع معرة الجهل والقنوط من روح الله والى معايشة الشعب من قرب ، لان الشعب في عصورنا الحديثة اصبح

هو مصدر السلطات ينفذ مايشاء ويقرر مايشاء واذا رجل الثقافة ابى واستكبر على هذا الشعب فسيكون المثقف في غربة عظمى نهايتها الموت .. وكيف للمثقف ان لا يلتزم واقع شعبه لفترة معينة وفي الشعب خصوبة فكرية لا تنضب وفي الشعب مواضيع ثقافته وبحثه ؟

ان عمل المثقف ان يهدي الناس ويقرب الشقة بينهم ويؤثر في حياتهم التي كثيراً ماتكون في حاجة الى توضيح الداء وتقديم الدواء وبقدر مانجزم ونؤمن بان المثقف في المجتمع المتخلف يحمل مسؤولية تلزمه معايشة الواقع بقدر ماينبغي أن نترك للمثقف حريته الضرورية التي تخلق الادب البطولي الكبير الحامل في طياته تجربة الانسان العملية ... فمن خصائص الادب الكبير ان يعبر لا عن مشاكل الفرد فحسب، بل عن حقيقة مأساة جيل باسره، ومأساة غيلان(١) في الحقيقة مأساة جيل كامل من شباب تونس في اعوام ماقبل الحرب الاخيرة، طغت عليه نزعة من نزعات الفكر الغربي ترد مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية وتحصرها فيها ولا تطلب لها حلا الا في نطاقها، فتسربت اليه قيمها العاتية وصلفها الرومنطيقي الوهاج، فيعود الى اهله كالمسافر (٢) الغريب يسألهم عن سر موقفهم من الوجود وفهمهم للكون ويحاسب نفسه (٣) .

فهذا المسافر الغريب يطلب حلا لحيرته من الوجود والكون .

● اذكر اني تقابلت ذات يوم مع رجل يحسب نفسه مثقفاً ولا اراه في المنتديات والمجالس الا يتحدث عن الثقافة ولكنه يكفر بالثقافة العربية ولا يعترف بفضلها وماضيها .

---

(١) غيلان شخصية في رائعة « السد » لمحمود المسعدي وزير التربية القومية وهي رائعة تحمل تجربة وجودية انسانية كبرى لا اعرف احداً كتب عنها في الشرق الا الدكتور طه حسين ..

(٢) راجع قصة المسافر في « السد » .

(٣) راجع مقدمة الشاذلي القليبي وزارة الثقافة والارشاد لكتاب « السد » .

قلت لصاحبي هذا : هل قرأت المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون .

قال : لا

قلت : هل سمعت بالمثل السائر لابن الاثير .

قال : لا

قلت : هل قرأت القصص العربي القديم المتمثل في ليالي الف ليلة وليلة وشعراء العربية وأغانيهم القديمة المرحة .

قال : لا والله ، قرأت نصيباً من القصص الحديث ان عبر على شيء فانما عبر على ما في البيئة من تخلف وعراء .

قلت : وهل قرأت شيئاً من التراث التونسي .

قال : نعم وانا احفظ نصيباً من شعر الشابي وقصيدته ارادة الحياة خير شعر اتغنى به .

ودار الحوار العنيف العنيد بيني وبين صاحبي وكلما أمتد بنا الوقت شعرت اني ازاء رجل جاهل لا يعرف شيئاً ، واظن ان كثيراً من مثقفينا اليوم انقطعوا عن حياة الجد والدرس ومواجهة الابدية واخذوا في الدعة والراحة والفراغ وتلك هي مصيبة الثقافة العظمى ، وتلك نكبة المفكرين الكبرى واعتقد ان الكثير منا يجهل الى الان ادب الشام القديم والمعاصر ويجهل ادب بلادي القديم والمعاصر فلا يعرف شيئاً عن الطاهر الحداد رائد المرأة والفكر الجريء ولا يعرف شيئاً عن شيخ الأدباء العربي الكبادي ولا عن الحصري شاعر القيروان الفذ ولا عن الفكر التونسي وماضيه وحاضره .

الأسس الاقتصادية للنظام الاشتراكي

للدكتور يوسف حلباوي

كتب « جيد » و « ريست » Gide et Rist في كتابهما المشهور «تاريخ المذاهب الاقتصادية» l'Histoire des Doctrines Economiques أن القرن التاسع عشر بدأ والفكر الاجتماعي والفلسفي والسياسي ضد كل ماهو حكومة وفي غمرة حماس لكل ماهو حرية اقتصادية ومبادهة فردية وانتهى هذا القرن الخالد وسط نداءات متتالية وصرخات قوية جامحة لاجل تدخل الدولة لتنظيم المجتمع على اسس جديدة .

فهل هذه النداءات والصرخات هي الاسس الاقتصادية للاشتراكية ؟ أم أن هذا النظام الانساني يشمل امنيات اعم وأوسع ويهدف الى تحقيق غايات اقتصادية تطورت كثيراً منذ انتهاء القرن الخالد وفي السنين الستين التي نعرفها في القرن العشرين كي تجسد نظاماً يقوم على اسس تهدف الى اجراء تغيير جذري لأوضاع وعلاقات المجتمع ولكنه حين عرف تطبيقه كنظام اقتصادي اختلف من بلد الى آخر ومن مجتمع الى غيره حتى عشنا يومنا هذا ونحن امام انظمة عدة تقوم على اسس في كثير من الاحيان مختلفة ومتباينة منهـــا اشتراكية البلدان الشرقية واشتراكية حزب العمال البريطاني واشتراكية الاحزاب السكندنافية وغيرها من البلدان الاوروبية ومنها ايضاً وخصوصاً اشتراكية البلدان التي حصلت مؤخراً على استقلالهـــا والتي لازالت تصارع التخلف الاقتصادي والاجتماعي وتحارب الرجعية والرأسمالية والاستعمار كالعديد من الدول الافريقية والآسيوية أو كآراء الكثيرين من زعمائها أمثال سيكوتوري Sikoutory «غينيا» ومامادو ضيا Mamado Dia «السنغال»

لاشك أنه اذا توقفنا امام هذا النظام الذي طغى على عالم اليوم حتى اصبح يشمل اكبر عدد سكان العصر الحاضر واكثر بلدانها لوجدنا له الواناً عدة وأشكالا مختلفة واهدافاً متباينة وأنه حتى اذا رجعنا الى التاريخ نستقريء من سطوره منبع وتطور الاشتراكية لرأينا أيضاً أن الفكر الاقتصادي قدعرف الواناً عدة عن الاشتراكية منها اشتراكية «روبرتوس» Rubertus و «لاسال» Lassale ومنها اشتراكية كارل ماركس ومدرسته ومنها اشتراكية «لوبلي» Le play المسيحية واشتراكية «فوريه» Fourrier و «برودون» proudhon و «سان سيمون» Saint Simon الى غير هؤلاء من رجال الفكر الذين تتابعوا في القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا وخلدوا اسماءهم وآراءهم ولهم في هـــذا الميدان حصاد قيم يمكن ان يخصص لكل منه بحث خاص .

غير أنه رغم هـــذا التعدد والتباين فقد أصبح من المتفق عليه في يومنا هذا ان النظام الاقتصادي الاشتراكي يقوم على اسس عامة اهمها الخمس التالية :

١ ـــ هو ردة فعل ضد الرأسمالية ؛

٢ ـــ انه نظام ضد تمركز الملكية الكبيرة والثروات الضخمة ؛

٣ ـــ انه ضد الاستغلال الفردي ولصالح المنظمات الجماعية ؛

٤ ـــ انه يقوم على اساس تدخل الدولة لصالح الفرد كجزء متمم للمجتمع ؛

٥ ـــ أن السوق ليس بالناظم الاول والاخير للعلاقات الاقتصادية ولكن التخطيط هو الناظم المهيمن لهذه العلاقات .

وسنحاول في مايلي شرح هذه الاسس الخمسة على التوالي :

قامت الرأسمالية او كما يسمونها ايضا النظام الحر او الـكلاسيكي على أسس ثلاثة :

١ — الأسعار : كانت فكرة الاسعار الناظم ومحرك المجتمع . فالاسعار حسب هـذا النظام هو العـامل الرئيسي لتنظيم الانتاج والاستهلاك على اساس العرض والطلب في الاسواق الحرة التي لايسيطر عليها الا المنتجون الصغار والمستهلكون الصغار .

وتسود في هذه الاسواق المنفعة الشخصية فالمشتري يسعى لأن يحصل على حاجاته بأرخص الاثمان والبائع يسعى بالعكس لأن يبيع سلعته بأعلى سعر وكل فرد يتوخى منفعته الشخصية .

٢ — التوازن الحر والعفوي : وفي احتكاك كهذا في جو من المنافسة الحرة بين جميع الأفراد على قدم المساواة التامة وفي حرية مطلقة تتوحد مصلحة الافراد مع المصلحة العامة وينتج عن هذا توازن عفوي بين الانتاج والاستهلاك . فالدافع الاول والاخير لأصحاب المنشآت هو الربح والدافع الاول والاخير للمستهلكين هو حصولهم على المنتجات باسعار معقولة . فرب العمل عند تدني الاسعار سوف يقلل او يوقف انتاجه فينخفض العرض الى درجة يتساوى فيها الانتاج مع مستوى الاستهلاك .

٣ — اما الدولة ، فالدولة لاتلعب في هذا المجتمع الا دورا سلبياً يتلخص بايجاد الاطار القانوني الذي يضمن الحرية الفردية ضد كل فرد او جماعة تحاول ان تعرقل او تمنع التمتـــع بالحرية المطلقة .

غير ان هذه المبادىء التي تخيلها الكلاسيكيون لتحمل الى المجتمع الرخاء والنمو سرعان ماظهرت عند تطبيقها مخالفة لهذه الاهداف ومتضاربة مع ابسط مبادئه فالسوق والاسعار الحرة لم تولد المنافسة الحرة ولم توصل الى توافق المنفعة الشخصية مع المصلحة العامة . وسرعان مابدا أن المنتج كي يستطيع المنافسة عليـه ان يتكتل مع غيره وان يسعى الى الهيمنة على السوق بوسائل تتنافى تماما مع مبدأ الحرية والمساواة التي تخيل انها ستسوده . فالسوق والاسعار الحرة التي ظن انها سوف توصل الى توازن عفوي بين الانتـاج والاستهلاك وتنظيم توزيع الثروات وتشكل الاستثمارات والدخول سرعان مابين انها غير قادرة على تحقيق هذه الاهداف بل انهـــا ولدت دورات تجارية Trade Cycle تتراوح بين السبع والعشر سنوات يتحول بها المجتمع من نشاط ورفاهية الى أزمة كثرة الانتاج ومن ثم الى انحطاط يتوقف أثناءها العمل تماما وتتلوها من جديد دورة جديدة تتعاقب عليها هذه الادوار الثلاثة .

أضف الى ذلك ان الكلاسيكيين حين نظموا تصرفات المنتج والمستهلك قد أغفلوا مصالح أخرى وفئة مهمة تسهم اسهاما فعالا في الانتاج ألا وهي فئة العمال ، خصوصا والنظام الرأسمالي قد اوجد علاقات جديدة بين العامل ورب العمل .

ففي هذا النظام أصبحت الآلة عنصرا هاما للانتاج وهي ذات قيمة يزداد ثمنها مع الزمن ومع تطور اسلوب الانتاج وبالتالي أصبح لايملكها الا من كان يملك المال الكافي لشرائها ، ومع الزمن والتطور فرقت الآلة بين العمل والمال وأوجدت طبقـة الرأسماليين المالكين للاموال والآلات وطبقة العمال الكادحين الذين لايملكون الا اذرعهم يقومون بها بعملهم اليومي وينالون بها بدل أتعابهم وعرق جبينهم . وقد حصل تدريجيا بين هاتين الطبقتين اختلاف بين فالأولى تملك كل شيء والثانية لاتملك الا الخضوع الى عقدهي فيه فريق ضعيف مجبر لأجل كسب قوت اليوم والى الخضوع الى احكامه مهما كانت جائرة .

وقد نتج عن هذا الوضع وعن المنافسة التي كفلها النظام الحر والازمات الاقتصادية والبطالة التي ولدها أن سعى المنتج الى تخفيض كلفة سلعته وذلك عن طريق خفض أجر العامل المضطر الى العمل مهما تدنى هذا الأجر . ناهيك عن الفضائح الكبيرة الـتي ارتكبت في سبيل تحقيق هذا الغرض من تشغيل النساء والأولاد والتعذيب الذي كان يقترف لزيادة الانتاج مما ولد فضائح اجتماعية هائلة ومخاز يثور لها الضمير الانساني ويستنكرها الفكر المنصف .

وهكذا سرعان ماحكمت الرأسمالية على نفسها وأوجدت من ثمارها معاول تهدم بها أبسط أسسها وتمهد لبناء انظمة هدفها الاول والاخير مساواة الضعيف بالقوي والرأسمالي بالمعدم ورب العمل بالعامل فكان من ثمار صيحة الضمير هذه ولادة الاشتراكية التي نادى بها الكثير من فلاسفة القرن التاسع عشر ومصلحيه .

وكان من الطبيعي أن يحاول الاتجـاه الجديد هدم بذور الشر ومحو أداة الاستغلال فسعى رجال الفكر أول ماسعوا الى محاربة الملكية والثروات الضخمة الكبيرة وخصوصا محاربة ملكية وسائل الانتاج على اعتبار أنها الوسيلة الرئيسية الـتي تمكن فئة المالكين من السيطرة على فئات العمال .

غير أنه من الانصاف القول أن الباعث على هذه المحاربة لم تكن صيحة الضمير فقط بل كانت هناك غايات نبيلة أخرى اهمها المساواة . غير أن المساواة لم تنبع من الاشتراكية بل عرفها الفكر البشري منذ قديم الاجيال نراها في افلاطون Platon وفي Thomas More في كتاب كل منهما UtoPie ونراها ايضا عند سان جوست Saint Justè وعندبابوف Babeuf في اوائل مراحل الثورة الفرنسية .

غير أن الاشتراكية ركزت في مساواتها على وسائل الانتاج ورأت في استملاكها الوسيلة الرئيسية التي تحد من تفاوت الثروات والدخول . وقد اختلفت الانظمة الاشتراكية في تطبيق هذا التحديد فمنهم من منع كليا ملكية وسائل الانتاج الا البسيط منها ورد هذه الملكية رأسا الى الدولة . ومنهم من حدد هذه الملكية بحدود لايجوز تعديها شأن ذلك تحديد ملكية

الاراضي في الاصلاح الزراعي وتحديد ملكية الاسهم في الشركات المساهمة وتحديد ملكية العقارات وغير ذلك ورد مازاد منها الى الفئات المحرومة يوزع عليها حسب طرق ومبادىء متعددة . ومنهم من حصر ملكية بعض المشاريع الرئيسية وذات الصالح العام بيد الدولة وترك الباقي للافراد والهيئات الخاصة . ومنهم من حدد الملكية بالنسبة للقطاعات والانشطة الاقتصادية فحرمها في الميدان الصناعي والميدان التجاري وتركها حرة في قطاع الزراعة والنشاط الحرفي على اعتبار ان الملكية في الميدانين الاخيرين لاتكون الا صغيرة ووسائل مراقبتها او السيطرة عليها سهلة .

أما الثروات فقد استخدم للحد منها وسائل مختلفة منها وسائل تذهب الى الجذور فتحد في الاصل من تشكلها امثال تحديد الاجور والارباح والتدخل المباشر في الاسعار . ومنها مايذهب الى الدخول بعد تشكلها فيقتطع منها نسبا مختلفة كضريبة الايراد العام التصاعدية وضريبة الارباح وضريبة الأرث وغير ذلك من التشريعات الضرائبيـة التي تهدف الى التخفيف من حدة تفاوت الدخول وتعمل على تحقيق العدل الاجتماعي اذ تحمل اصحاب الدخل المرتفع جزءاً لابأس به من الاعباء العامة وتحد من قدرتهم الاستهلاكية في سبيـل اجراء توزيع جديد يرمي الى مساعدة الفئات المحرومة والفقيرة .

وكانت الغاية الاولى والاخيرة من هذه التدابير هو خلق مجتمع جديد يعمل على تقليل الفوارق بين طبقاته ويهدف الى توحيد فئاتـه لاتسوده الطبقة المبنية على الثروة بل طبقة أسسها تكافؤ الفرص والبناء والعمل .

وكان الغرض الاول والاخير من محاربة الملكية والثروات الضخمة هو الحد من تحكم رأس المال واقصاء الاستغلال الفردي ذلك الاستغلال الذي عرفته الرأسمالية من خلال تكتلات عدة منها المؤسسات الكبيرة المسماة Holding أو الترست Trust وكان من جرائه تسلط أناني لفئة قليلة لاتملك الا المال على فئات الكادحين والعمال والمستهلكين .

ويقول الكثيرون أن هذه التجمعات أملاها الاسلوب الفني الحديث للانتاج أكثر من عوامل جشع البعض وحب سيطرة البعض الآخر . فالانتاج الحديث قد فرق بين الصانع وانتاجه وجعل بينهما آلة تتطور مع الزمن تكبر وتتضخم ويرتفع ثمنها بحيث لايملكها الا اصحاب رؤوس الاموال الكبيرة ويشتغل عليها افراد عديدون لايملكون تجاهها شيئاً سوى الاتجار بحركاتها واتباع شروط انتاجها وشيئاً فشيئاً اصبحت هناك هوة عميقة بين رب العمل والعامل، بين ارباب عمل قليلي العدد يملكون المال ومن جرائه السيطرة وعمال لايملكون الا همتهم وعرق جبينهم وعملهم الكادح.

ولم ير العمال أمام هذا الوضع سوى التكتل والتنظيم للمطالبة برفع الحيف عنهم وتحسين أوضاعهم تارة بالتوجه الى الضمير الانساني وأخرى بالاضراب والتظاهر والاستنكار ونشاعن

ذلك النقابات والمنظات الاخرى التي صهرت الفرد كفرد في مجموعة واحدة جمعها وحدةالهدف ووحدة المصير .

غير أنه من الواجب أن نشير الى ان طرق الانتاج أيضاً قد طغت على الفرد ومحته كفرد كي ينصهر في بوتقة مجموعة الانتاج تملي عليه شروطها ويضيع في علاقاتها . فالعمل لم يعد تلك الحرفة الصغيرة التي تكتفي بعامل أو عشرة عمال بل اصبح أتونا يضج بآلاف العاملين الكادحين يملي عليهم شروط العمل الفنية ويخضعهم الى تحركاته ونظامه . ولم يعد العامل سوى آلة صامتة كبقية الآلات ، عليه ان يشد « البرغي » ويفك الآخر فهو يعمل بحركاته أكثر منه بعقله وفنه وذوقه وهو بعمله يخضع الى روتين معين واسلوب نظم على أساس وحدة مستقلة تضم مئات العاملين يقومون بنفس العمل . وكبر العمل شيئاً فشيئاً وكان كلما تطورت المدنية الصناعية وتطور أسلوب انتاجها يكبر معها وتكبر كذلك متطلباته المالية والعملية هادفة من ذلك الخضوع الى نظرية « كلفة الانتاج » التي تقول أن خفض هذه الكلفة يأتي عن طريق زيادة كمية الانتاج .

ومع صدق هذه النظرية اقتصادياً غير أنها اجتماعياً وبال على العمال وساعد قوياً في تشجيع الرأسمالية وتحكمها يؤدي لاعالة الى تضخم وحدات الانتاج وكذلك الى زيادة الفروق والتباين بين صاحب الآلة ومالكها من جهة وبين العامل الفقير الذي سيشتغل عليها من جهة ثانية .

ولم ترد الاشتراكية أن تقف في وجه هذا التيار الاقتصادي ولكنها لم ترد ان تستسلم الى حكمه ووجدت لذلك حلولا عدة منها نقل ملكية وسائل الانتاج كلياً او جزئياً من الافراد الى الدولة وادارة هذه الوسائل من قبلها او بالاشتراك مع ممثلي رأس المال والعمل ومنها تمليك رأس المال الضخم الى فئات عديدة يملكون في آن واحد المال والعمل ويجمعون في آن واحد الملكيات الصغيرة في استثمارات العمل الضخم او الارض الواسعة . وقد وجدت في التعاونيات مؤسسات تساعد على مسايرة مقتضيات الانتاج الحديثة مهما كبرت وتؤمن في نفس الوقت تملك وسائل الانتاج الى عدد وفير من المالكين الصغار . فاوجدت لذلك تعاونيات الانتاج الزراعي والصناعي وتطورت هذه التعاونيات الى تعاونيات للاقراض وتعاونيات للتوزيع وتعاونيات للاستهلاك حيث يأتمر العضو فيها بأمر ولصالح المجموع وينصهر في وحدته ولكنه عوضاً عن أن يضيع لمصالح فئات معينة شأنه لدى الشركات المساهمة فهو بالعكس ينال نصيبه حسب عمله ومساهمته الفعلية .

هذا بالنسبة لوحدة الانتاج أما بالنسبة للمجتمع وتنظيمه وتنظيم علاقة الفرد بالمجتمع والدولة فقد قال الأب لاكوردير Lacordaire ينتقد النظام الرأسمالي : « عندما يسود المجتمع القوي الغني ويتحكم في الضعيف الفقير تنعدم الحرية وتصبح ظلماً عندها لايحمي القوي من الضعيف الا القانون » .

قال ذلك هذا الانساني الكبير وقد رأى بأم عينه نتائج الحرية الكلاسيكية التي اصبحت سلاحاً مسلطاً بيد الرأسمالي على رؤوس عمال لن يتقدم من تعاستهم الا تدخل الدولة لحمايتهم .

وشيئاً فشيئاً لم يعد للحرية الفردية الاقتصادية التي نادى بها الكلاسيكيون سوى معنى واحد: سيطرة رأس المال وجشع رأس المال، وشيئاً فشيئاً اتضح ان الطريق الوحيد المنقذ من هذه الهاوية هي الدولة، تتدخل لتنظيم الحياة الاقتصادية ولتنصف الفقير ولتخلص الضعيف .

ومن الدور السلبي كليا ، كما يراه المفكرون الرأسماليون، تطور دور الدولة شيئاً فشيئاً الى دور تدخلي لاصلاح مافسد وتأمين بعض الحلول لمشاكل قائمة ومن ثم الى دور ايجابي للتدخل في الحياة الاقتصادية لبناء سياسة جديدة بعيدة المدى تكفل مستقبلا أحسن وحياة افضل . وقد اتخذ تدخل الدولة أشكالا عدة يمكن ارجاعها الى ثلاث :

١ — التنظيم والمراقبة لمسائل عدة كوسائل الانتاج وأساليب التوزيع وطرق الملكيات العائدة للقطاع الخاص وللاقتصاد القومي بأجمعه Reglementation et Controle .

٢ — التوجيه Dirigisme وذلك بأن تقوم الدولة بتوجيه القطاع الخاص من حيث الانتاج والتوزيع والاستهلاك .

٣ — التدخل الفعلي Interventionnisme وذلك بأن تكون الدولة ربة عمل بجانب القطاع الخاص مستخدمة لذلك أساليب متعددة منها التأميم ومنها التملك الصرف والتام لصالح الدولة ومنها اخيراً تأسيس منظمات جديدة تقوم رأساً بعمل القطاع الخاص .

وقد كان تدخل الدولة الفعلي في بادىء أمره ، خصوصاً في الفترة مابين الحربين العالميتين لتقويم اعوجاج او اصلاح خطأ معين كايجاد حل لازمة اقتصادية او لرفع حيف اصاب فئة دون اخرى وقد كان هذا التدخل متفرقاً متباينا لم يبن وفق اسلوب علمي ولم يهدف الى ايجاد حلول جذرية تستند على اسس واضحة وسياسة معينة .

غير أن هذا التدخل مالبث ان تطور وتنظم وسرعان ماتطلعت الدولة الى ضرورة رسم سياسة شاملة لكل نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ولكل أنشطتها تستند على جرد كامل لكل موارد وامكانات المجتمع الطبيعية والبشرية والمالية وعلى جرد مماثل لكل حاجاته ومتطلباته وتبني على أثر هذين الجردين سياسة واقعية تنظم التنفيذ وتحدده على قدر الامكانات ووفق سلم أفضليات يراعى به الربط بين جميع هذه المعطيات .

وبالتدريج تحول تدخل الدولة من تدخل عشوائي الى تدخل منظم في جهة معينة وفي مشاكل محدودة الى تدخل شامل لكل نواحي الحياة معبئاً لكل طاقات المجتمع وفق خطة شاملة تستند على واقع المجتمع : امكاناته وحاجاته وتهدف الى ايجاد اصلاحات وحتى تغييرات جذرية في هيكل هذا المجتمع وأسسه وترسم تنفيذ هذه الاهداف وفق مراحل زمنية معينة .

وهكذا لم تعد الحياة الاقتصادية ونشاطها تدور بصورة عفوية ووفق أهواء متضاربة بل اصبحت الحياة الاقتصادية خاضعة لاطار خطة مدروسة ومبنية وفق دراسات واحصاءات علمية دقيقة وموجهة وفق فلسفة سياسية واقتصادية معينة ، واصبح النشاط الاقتصادي موجهاً نحو أهداف مبينة حددت وفق هذه الدراسات والاحصاءات وحسب امكانات المجتمع وآماله .

. . . . . .

تطورت الاشتراكية منذ بدء القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا تطوراً كبيراً . فبعد ان كانت تقتصر على صيحة ضمير ضد نظام فلسفي واجتماعي وحتى سياسي وتحاول التطور والنضوج لتشكل بدورها نظاماً جديداً يقوم عليه المجتمع ويهتدي بهديه ، استطاعت هي الاخرى ان تشق طريقها الى التطبيق العملي وتمكنت من ان تكون اساسا لانظمة حكومية مختلفة ولسياسات عديدة.

وهنا ايضا لم تستطع الاشتراكية ان تتبلور وترتكز في قالب موحد وفي نظام وسياسة معينة بل سعى جميع من ارادوا تطبيقها الى تطويرها حسب المجتمع الذي يعيشون فيه ويحكمونه حتى اصبح لها اوجه للحكم عدة وحتى انظمة تختلف في بعض الاحيان اختلافا بينا فيما بينها .

غير انه لو لجأنا الى مواطن النصف الثاني من القرن العشرين وطلبنا اليه الرجوع الى قرارة نفسه يستقرىء فيه مفهوم الاشتراكية لرأينا ان لها مفهوماً غامضاً بعض الشيء متعدد الاوجه مختلف بين مجتمع وآخر ولكنه بوجه عام يتضمن في كثير من الاحيان النقاط الاساسية التالية :

١ ـ ان للاشتراكية في كثير من الاحيان مفهوماً مرادفاً للمساواة ، محارباً للرجعية والاستغلال ، ممجداً للتحرر والتطور والانطلاق نحو مجتمع جديد لايزال يتكاثر ويمتد منذ بدء هذا القرن الذي نحن فيه .

٢ ـ انها لاتقوم على اساس الصراع الطبقي ، بل على أساس تقليل الفوارق والتناقض بين الطبقات ، وتحويل الملكية من أداة احتكار واستغلال الى وظيفة اجتماعية شأنها في ذلك شأن اي وظيفة أخرى في مجتمع يقوم على أساس تكافؤ الفرص بين جميع افراده .

٣ ـ وتعمل الاشتراكية ثالثاً على ايجاد تغيير جذري في شكل المجتمع وأسسه .فالمجتمع في ظل النظام الاشتراكي يبنى على العمل لا على اساس فرض استغلال رأس المال ، فالعمل هو النشاط الخلاق سواء كان عقليا او عضليا في سبيل تحقيق حياة أفضل تتطور دوما لتتخلص من القيم البالية والعقول المتحجرة أو الرجعية وتتحرر من الملكية ورأس المال الى الانسان نفسه ، الى قوته ، الى تفكيره ، الى امكاناته الخلاقة اللامتناهية .

٤ ـ اضف الى ذلك انها لاتقوم على اساس محو القطاع الخاص . فالقطاع الخاص ركن من اركان المجتمع مهما صغر حجمه وحدد نشاطه ،وكل ماتشترط الاشتراكية عليه هو ان لايصرف

نشاطه في الفوضى والاحتكار والاستغلال ، ولكن في تعاون وثيق مع القطاع العام وضمن اطار واضح وضعته الدولة لتطور المجتمع بكافة عناصره وطاقاته . وتدخل الدولة هنا تدخلا فعلياً يفترض به ان يكون مبنياً على احصاءات دقيقة ودراسات علمية وتنبؤات واقعية .

٥ ـ اخيرا تقوم الاشتراكية على التغيير الجذري المجتمع لا على الاصلاح . والفرق بين الطريقتين شاسع . فالاصلاح يعمد عند تأزم حالة المجتمع الى معالجة مشاكله معالجـة ظاهرة أو مؤقتة أوجانبية قد تخفف من حالة التأزم ولكن لاتقضي على المرض ولا تمس جذوره لتجتثها تماما وتبني على ترائها أسساً جديدة ، بعكس التغيير الجذري اي التغيير للاسس التقليدية المتوارثة التغيير من وضع الطبقات الاجتماعيـة السائدة والمسودة ، والمستغلة والمالكة والاجيرة ليستبدل بالعلاقات التي كانت قائمة بين هذه الطبقات بعلاقات جديدة وأسس جديدة ونظم جديدة تتوافق مع روح العصر وتنسجم مع معطياته وأسسه وتتوافق مع انطلاقه وتطوره .

عدد « المعرفة » الممتاز

عن المسرح

يسر تحرير المعرفة ان يعلم اصدقاء المجلة وقراءها انها استعدت لاصدار عدد ممتاز عن المسرح ، على النطاق السوري ، والعربي ، والعالمي ، ومن جميع جوانب الموضوع تاليفاً واخراجا وتمثيلا وتزيينا .

يشترك في تحرير هذا الجزء الخاص من (المعرفة) بالتأليف والترجمة ، وباستفتاء الآراء ، فريق من الادباء والفنانين والنقاد والباحثين . يقدر عدد صفحات العدد الخاص باكثر من ٣٥٠ صفحة ، ويباع بنفس الثمن المعتاد في جميع الاسواق العربية .

يرجى من المكتبات العربية ومراكز التوزيع ان تراسل الادارة لحجز نسخها سلفاً .

الكتاب والموضوعات

- مع عباس محمود العقاد
  من زواياه المختلفة
- من حياة العقاد
  للامير مصطفى الشهابي
- العقاد المفكر
  للدكتور جميل صليبا
- العقاد الشاعر
  احمد الجندي
- العودة الى النبع
- **شعر سلمى الخضراء الجيوشي**
- الوحدة في شعر المهجر
  للاستاذ فريد جحا

الآداب

من زواياه المختلفة

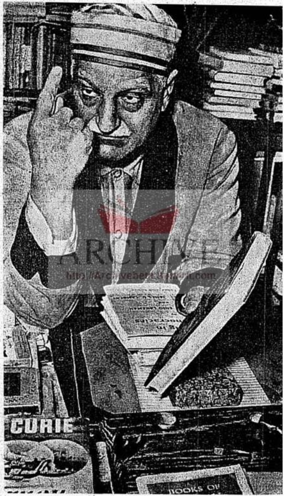
يسر تحرير المعرفـــة أن تنشر في جزء الآداب من هذا العدد ، نظرات ودراسات في الكاتب العربي المرحوم عباس محمود العقاد ،القى بعضها في حفلة الاربعين التي اقامتها وزارة الثقافة والارشاد القومي اجلالاً لذكرى الفقيد الكبير، وأثنينا على وصفها في عدد (المعرفة) الماضي .

يشترك في تحليل شخصية العقاد والقاء الضوء على أدبه وحياته ، في الجزء التالي من المعرفة :

الامير الاستاذ مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي .

الدكتور جميل صليبا عميد كلية التربية .

الاستاذ احمد الجندي مقرر لجنة الشعر في مجلس الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .



المغفور له عباس محمود العقاد في آخر صورة له في مكتبه

مِنْ حياة العقاد

للأمير مصطفى الشهابي

عندما يطول عمر الانسان ويطعن في السن العالية يكون من الموجعات أن يرى أترابه من الصحاب يغادرون هذه الحياة الدنيا واحداً اثر واحد .

لقد عرفت العقاد ، رحمه الله ، من مقالاته الماتعة ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وفي اول تشرين الاول سنة ١٩٢٦ أبلغني الاستاذ الرئيس محمد كرد علي أن أعضاء المجمع العلمي العربي عقدوا في ذلك اليوم جلسة انتخبوا فيها خمسة مرشحين لعضوية المجمع وهم عباس محمود العقاد ومحمد الخضر حسين وابراهيم المنذر وشفيق جبري ومصطفى الشهابي .

وبعد أيام قليلة قال لي : لقد وردتنا من العقاد ترجمة قصيرة له، وبحث طريف بعث به لكي يلقى في المجمع وينشر في مجلته .

فأما الترجمة — وهي بخطه — فهو يقول فيها :

« ولدت ببلدة أسوان في صيف سنة ١٨٨٩ م ، وتلقيت دروس الابتدائية بمدرستها ، فتخرجت منها سنة ١٩٠٣ . وكان أبي يصطحبني أيام دراستي الأولى الى مجلس الأستاذ الأديب أحمد الجداوي أحد فضلاء الأزهريين الذين لازموا السيد الأفغاني أثناء قيامه بمصر . فكنت أسمع مطارحاته الشعرية وقراءاته لمقامات الحريري وبعض القصائد المختارة ، وأستظرف فكاهته ونوادره التي كان يرويها عن المتقدمين والمتأخرين ، فشوقني ذلك الى مطالعة الكتب الأدبية . وكان أول ما وقع في يدي منها (كتاب المستطرف في كل فن مستظرف) وديوان البهاء زهير وقصص ألف ليلة وليلة ثم مجلد من دائرة المعارف للبستاني ، وأعداد مختلفة من صحيفة « الأستاذ » لصاحبها السيد عبد الله نديم ، وكنت أسمع اسمه كثيراً في مجلس الأستاذ الجداوي ، ومن ثم أقبلت بمجلتي على المطالعة العربية والافرنجية ، ورغبني في الاستزادة من هذه كثرة ورود السائحين الى البلدة في الشتاء ، وترددهم على المدرسة يسألون تلامذتها ويلطفونهم بالهدايا وأكثرها كتب موثقة مكتوبة في لغاتهم . ونظمت الشعر ولا أزال أذكر أبياتاً من قصائد صبيانية نظمتها في فضل العلوم اذ كنت في العاشرة من عمري وهي :

علم الحساب له مزايا جمة ... وبه يزيد المرء في العرفان
وكذلك الجغرافيا تهدي الفتى ... لمسالك البلدان والوديان
وتعلم القرآن واذكر ربه ... فالنفع كل النفع في القرآن

الخ . الخ .

ولم أتلق في المدارس بعد انفصالي من مدرسة أسوان غير أبواب محدودة في الكهرباء والطبيعة حضرتها بمدرسة « الصنائع والفنون » وقد عاقتني عوائق شتى عن متابعة التعلم المدرسي كما كنت أود يومئذ ولست على ذلك الآن بنادم

اشتغلت بعدة وظائف حكومية كنت أستقيل منها واحدة بعد الاخرى نفوراً من قيودها الثقيلة وتكاليفها الغثة ، أو رغبة في الدعة والعلاج لما كان ينتابني أحياناً من الضعف والسقم . وكان أول عمل صحفي لي في جريدة الدستور التي انشأها الاستاذ فريد وجدي ، ثم كتبت في صحف أخرى هي المؤيد والاهالي والاهرام والافكار ، وفي خلال ذلك كنت أزاول التدريس تارة بالقاهرة وتارة بأسوان ».

هذه هي الترجمة التي كان الفقيد وضعها في سنة ١٩٢٣ ، وبعث بها الى مجمعنا بعد ثلاث سنين أي عقب انتخابه عضواً فيه ؛ وقال في رسالته الى المجمع : (... لم يجد على الترجمة جديد سوى اني أخرجت في السنوات الثلاث التي تلت تاريخ الترجمة مجموعات « الفصول » و « المطالعات و « المراجعات » .) ومما قال أيضاً : « ... وعسى ان تنال رضاكم كلتي التي بعثت بها لالقائها في المجمع الموقر ... » .

والكلمة المذكورة تقسم الدعوات الأدبية في العالم العربي ، في رأيه ، ثلاثة مذاهب وهي : مذهب العصبية والمذهب الطبيعي ومذهب الاباحة أو الانطلاق من جميع القيود . فأما دعاة العصبية فهم الذين ينتصرون لأدب الجاهلية وصدر الاسلام ، ولا يقرون التبديل ولا الزيادة في اللغة بعد تلك البرهة من الزمن . وأما أصحاب المذهب الطبيعي فهم الذين يفهمون أن العربية لغة حية تنمو وتتجدد ، وانه يجب العمل على تنميتها بتسهيل القياس وبوسائل الاشتقاق والتعريب ،

مع الاحتفاظ بسلامة أصولها وقواعدها الأساسية . وأما الاباحيون أو المنطلقون من جميع القيود فهم جماعة يريد كل منهم أن يخرق في اللغة خرقا ، وان يتخذ لنفسه نحواً وصرفاً ، وان يلفق ويخترع من دون أن يكون له ضابط غير هواه .

وهـــذا البحث من أطرف البحوث وأنفعها كان نشر في المجلد السادس سنة (١٩٢٦) من مجلة المجمع ، ثم اعـدت نشره الان في الجزء الثاني من المجلد التاسع والثلاثين (نيسان ١٩٦٤) بعد كلة لي في الفقيد . ونصيحتي الى كل شاب أديب أو متأدب أن يقرأه ، فأبناء هذا الجيل هم أحوج اليه من أبناء جيلنا .

وفي ١٨ من فبراير « شباط » سنة ١٩٢٩م كتب الى رئيس مجمعنا رسالة يقول فيها : (... وأرجو أن أفرغ للكتابة في مجلة المجمـــع فليس أحب الي من الاشتراك في هذا العمل المأثور . وأتمنى لكم وللديار التي تخدمونها كل رخاء وفلاح ... » .

ولم يتمكن رحمه الله ، من الكتابة في مجلة المجمع ، لأنه قصر جهــده القلمي في شبابه على التأليف ، وعلى الكتابة في الجرائد والمجلات المصرية . ولكنه ظل يطلب ويطالع أجزاء مجلتنا ، ويذكر كتابهـا في أحاديثه الى المتأدبين وفي مقالاته في الصحف . فقد سأله أحد الادباء في سنة ١٩٣٠ مثلاً عمن يقرأ لهم من الكتاب السوريين واللبنانيين فأجاب قائلا : (... وأقرأ لنير هؤلاء فريقاً هم أقرب الى العلماء منهم الى الادباء مثل الكرد علي والحمصي والشهابي والمغربي ومن على هذه الشاكلة من الكتاب ، وأرى أنهم يقومون في خدمـــة اللغة والعلم بعمل لا يستغنى عنه »[1] .

وفي الخامس والعشرين من نوفمبر « تشرين الثاني » سنة ١٩٤٠ صدر مرسوم في مصر بتعيينه عضواً في مجمع اللغة العربية فقصر بحوثه اللغوية عليــه .

(١) مجلة (كل شيء) المصرية ، عدد ٢٦ أبريل « نيسان » سنة ١٩٣٠ م .

وقد عين في المرسوم نفسه كل من أحمد لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل وعبد العزيز فهمي والشيخ مصطفى عبد الرزاق وعبد القادر حمزة والدكتور علي ابراهيم.

ولمس الأدباء في ذلك الحين تضلعه من علوم العربية بما كان يلقيه في مؤتمرات المجمع من بحوث مفيدة نشرت في اجزاء مجلته. ففي الجزء الثامن منها مثلا بحث له عنوانه « كلمات عربية بين الحقيقة والمجاز »، وفي الجزء التاسع بحث في السيمية Semantic ، وفي العاشر « أمال من اللهجات العامية »، وفي الحادي عشر « أغراض البحوث في الفصحى والعامية »، وفي الرابع عشر « الزمن في اللغة العربية » الخ. هذا عدا مشاركته المثمرة في وضع المصطلحات او تحقيقها، في لجنة الأدب ولجنة الأصول ولجنة الفاظ الحضارة وغيرها من لجان المجمع، وعدا تعقيباته على بحوث الأعضاء ومحاضراتهم، وعدا مقالاته العديدة في شؤون اللغة، ولاسيما كلامه على مشكلة المعجمات الحديثة، ثم كلامه على معجم المصطلحات الجراحية ومعجم الالفاظ الزراعية في عدد يوليو اغسطس سنة ١٩٦٣ من مجلة « قافلة الزيت »، فليس في مقدور كل اديب أن يميز مثله الغث من السمين في مصطلحات العلوم الحديثة الواسعة.

وكان العقاد من المحافظين على سلامة اللغة وآدابها، لا يرى تعريب المصطلحات العلمية إلا عند الضرورة وبعد العجز عن ايجاد مصطلحات عربية بوسائل الاشتقاق. وقد اشتهر لدى الأدباء بمحافظته على بيان الأدب العربي القديم المشرق، وبمحافظته على الوزن والقافية في الشعر العربي، وباطراح مذاهب الأدب السخيفة عند الغربيين كمذهب المستقبلية Fnturism ، وفوق الواقعية Surrealism والذئبية Fauvrism ، والتأتأة Dadaism ، وأشباهها، والاقتصار على مذاهب الجد المعقولة التي تسمى عندهم الرومنتزم، والنيو كلاسيزم[1] ، والريالزم (الواقعية)، والايديالزم (المثالية).

---

(١) يسميه الاستاذ العقاد مذهب السلفية الحديثة

وله بحث ما تم عنوانه « الشعر العربي والمذاهب الغربية الحديثة » نشر في مجموعة البحوث والمحاضرات لمؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته السادسة والعشرين (١٩٥٩-١٩٦٠)(٢).

وبعد ، ان للعقاد مزايا كثيرة تحتاج كل مزية الى دراسة خاصة في صفحات حياته ، ومن ذلك انه كان قوي الارادة شديد الشكيمة ، عزيز النفس ، قويم الأخلاق ، صادق الوطنية ، مخلصاً لحرية الفكر ، معتداً برأيه ، نزّاعاً الى مقارعة مناوئيه في الرأي ، لم يصانع حتى رئيس حزبه السياسي « سعد زغلول » ، وهو من هو ، وحتى مثل الملك فؤاد في إبان عنفوانه ، فقد قيل له في البرلمان المصري « وكان فيه نائباً » : ان المراجع العليا تعارض في اصدار أحد القوانين ، فما كان منه الا أن وقف يقول : سنسحق اكبر رأس في الدولة اذا ما حاول بين الشعب ورغباته . وكانت مغبة ذلك محاكمته والحكم عليه بالسجن تسعة أشهر .

رحم الله العقاد فقد كان من أوسع كتاب العرب ثقافة ، وأغزرهم انتاجا وأكبرهم مشاركة في الحركات الفكرية الحديثة في بلادنا العربية ، وأحرصهم على سلامة لغتنا ، وعلى جعلها صالحة للتعليم العالي وللتعبير عن حاجات المدنية الحاضرة .

---

(٢) ورد في المجموعة المذكورة (ص ٤٠) أني سألت الأستاذ العقاد ، في التعقيب على بحثه ، عما نجده في بعض المجلات الادبية من شيء يسمونه شعراً ، لا نرى له قافية ولا وزناً ، ونجد الشطر أحياناً مقتصراً على كلمة او كلمتين بعدهما أداة تعجب وبضع نقط ، فما هي الموسيقى الشعرية في ذلك ؟ وهل يسمى هذا الشيء شعراً ، أم يسمى نثراً ، أم ماذا يجب ان نسميه ؟ هذا مع العلم بأن له انصاراً من الناس يمكن ان يقال انهم ادباء او شعراء .

وجاء في المجموعة الملمع اليها رد الاستاذ المحاضر على هذا السؤال وهو : « اذا جاءنا شيء من هذا مما لا وزن فيه ولا قافية - في المجلس الاعلى للفنون والآداب - أحلناه الى زميلنا الدكتور مهدي علام رئيس لجنة النثر ، لينظر فيه اذا شاء ان يعتبره نثراً . وغاية ما هنالك انه ليس لنا ، ولا نحب ان نحجر على احد يختار لنفسه منهجاً للكتابة يسميه ما يشاء ، ولكن الحرج في ان نحكم انه عاجز عن اداء الافكار الشعرية .

ان لهم ان يكتبوا ما يشاؤون ، ولكن ليس لهم ان يحكموا على الاوزان او المعاني الشعرية » .

هذا ما اجابني به . واجاب عن سؤال مماثل للاستاذ فريد ابو حديد بالجواب الآتي : « .. أما عن الشعر الذي لا تتوافر له المقاييس التقليدية مثل ، الآنسة نازك الملائكة ، فنحن نقرأ لها ما تكتب ولكن لا نسميه شعراً . قد يكون كلاماً بليغاً او نثراً شعرياً ، وبهذا نفرق بينه وبين غيره من الفنون » .

العقاد المفكر

للدكتور جميل صليبا

ما رأيت احسن أدباً ، ولا ألطف نفساً من صديقي الفقيد عباس محمود العقاد ، وما سمعت متحدثاً في مجالس العلم والادب كان آخذ لعقول الرجال ولا اجذب لأسماعهم منه . كان آخر لقاء بيني وبينه في القاهرة يوم اتفقنا على ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية في الآداب . فحدثني عن كل شيء ، حدثني عن اللغة والأدب ، والفلسفة والاجتماع ولم يحدثني عن نفسه ، ولا عن ميزات أدبه ،

ذلك لأنه كان يعلم حق العلم انني كنت أفضله على سائر المرشحين بلا بغضة مني لغيره، فلما اجتمعنا للنظر في انتاجه الادبي قال بعض اخواننا : ان العقاد غزير الانتاج ، جم الثقافة ، يكتب في كل فن ومطلب ولكنه على كثرة كتبه ومقالاته لم يبلغ في عالم الفكر مابلغه غيره من كبار الاختصاصيين، فهو شاعر واديب وناقد ، ولكن شعراءنا وادباءنا المعاصرين لايقرون له بالتقدم عليهم ، وهو اذا صح القول فيلسوف ولكنه لم يشارف الابداع الفلسفي الا في القليل من الآراء المبعثرة والمقالات المتفرقة . والصنعة الغالبة على كتبه الفلسفية اقرب الى الادب الوجداني منهـــا الى الفلسفة ، فهي كتب فلسفية بالمعنى الواسع ، لا بالمعنى الدقيق ، أو قل اذا شئت ، انها مشتملة على افكار وآراء متخيرة بلغت من السمو درجة عالية ولكنها لم تشرب من نبع فكري واحد ، ولم تعبر عن مذهب فلسفي محكم الحلقات . ولو ترجم كتاب منها الى اللغات الاوروبية لوجده القراء متهـــافتاً وفوق التهافت . دع ان كتب العقاد أقرب الى النقد الفلسفي منها الى التركيب الـكامل ، فيهـــا أصالة وابداع ، وفيها روح فلسفية وتحليل علمي، ولكنها لاتشتمل على اطر مذهبية محكمة ولا على نزعة تركيبية ترد افكاره وآراءه الى نظام واحد . وهذه العيوب التي ذكرها اخواننا لم تكن من القوة بحيث تصرف اعضاء المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عن منح العقاد جائزة الدولة، لأنهم كانوا يعلمون ان كتب العقاد ومقالاته اشبه شيء بالبنـــاء الشامخ الذي وضع كل حجر من حجارته في الموضع اللائق به ، ولأن ميزة العقاد لاترجع الى نحت هذه الحجارة واحداً بعد واحد بأزميل دقيق ، بل ترجع الى مجمل صورة البناء وهيئته العامة ، فهو هرم من اهرام مصر لايقل شموخاً عن هرم خوفو ، وهو قد أثر في الجيـل العربي الجديد اعمق تأثير وطبع الفكر العربي الحديث بطابع خاص ، فلا غرو اذا عد علماً من اعلام الادب ، ورائداً من رواد الفكر .

ونحن نعلم ان الرجل كما يقول الجاحظ قد يكون له طبع في كتابة المقالات وتأليف الكتب والرسائل ، ولا يكون له طبع في قرض بيت من الشعر . وقد تكون له قدرة على الخوض في المعقولات ، ولا يكون له قدرة على التعبير عن افكاره باسلوب بليغ وبيان واضح . وفي الناس من يخطب ، وفيهم من لايجيد الخطابة ، وفيهم من يجيد الحديث ، وفيهم من لايجيده ، وفيهم من يكون اديباً ، ولا يكون فيلسوفاً ، أو يكون لغوياً ، ولا يكون كاتباً . أما العقاد فقد جمع بين هذه الصفات كلها ، فكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً ملهماً ، وناقداً مدققاً ، ومفكراً رصينـــاً ، يصيب عيون المعاني ، ويأخذ بمجامع القلب ، مع بيان عجيب ، وطبع سليم وذهن حاضر . لقد كان ، كما يقول المازني ، سريع البديهة ، حاضر الذهن ، وله قدرة عجيبـــة على النظر المحيط ، والتصفية والتلخيص في اوجز عبارة ، اذا قرأ كتاباً اجمل لباب مسائله في بضع كلمات ، وتفطن الى جوهره بسرعة عجيبة، كان لايكتب في موضوع الا اذا تصور أجزاءه ، فاذا تم له هذا التصور

انتقل من الشكل الى الاجزاء تارة ومن الاجزاء الى الشكل اخرى ، لأنه كان يعلم أن تصور الشكل ومعرفة موضع الاجزاء منه هو الطريق المستقيم الموصل الى الانتاج الادبي الصحيح .

وقد يؤخذ على العقاد انه كان موزع الفكر بين موضوعات مختلفة لاتلبث ان تولد في ذهنه حتى يؤلف منها كتابا ، ولكننا لو وزنا آثاره بميزان النقد الدقيق وجدناها مصطبغة بصبغة فكرية اصيلة هذا الى جانب مااشتملت عليه من روح فلسفية عامة تحدد موقفه الفكري ازاء كل مسألة تناولها بالبحث فالعقاد في نظري مفكر قبل كل شيء ، تعمق في التفكير حتى كشف ببصيرته النافذة عن افكار فلسفية مختلفة عبر عنها بالتشابيه الجميلة والاستعارات المبتكرة ، وهو لم ينظر الى الحياة نظرة علمية جامدة ، بل نظر اليها على انها عمل فني تحكمه الاصول التي تحكم بيتاً من الشعر او لحناً من الموسيقى . فالكون والحياة ، والفن ، ومناظر الارض والسماء ، كل اولئك في نظره « مظهر للتآلف او للتنازع بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، او بين الروح والمادة ، أو بين افراح الفن واوزانه » (١) قال : ان الضرورات والقوانين « هي القالب الذي تحصر فيه الحياة عند صبها وصياغتها ليكون لها حيز محدود » (٢) . فعلى الانسان ان يجعل « من القانون حرية ، ومن القيود حلية ، ومن الثورة نظاماً ، ومن الواجب شوقاً وفرحاً ، ومن المادة عالماً مقسماً وفلكاً دائراً » (٣) هذا هو المثل الاعلى في الحياة ، وهذا هو كنه فنها الالهي . ومعنى ذلك كله ان الجمال في نظره غاية الحياة القصوى ، وهو الحرية بعينها . والذين يعيبون على هذه الفكرة الفنية اقتصارها على السطوح دون الاعماق يلسون ان الجمال البادي على وجه الاشياء متصل باغوارها العميقة . ولو ادركوا ان هذه الالوان التي نراها ، وهذه الاصوات التي نسمعها ، وهذه الارايج التي نحسها ليست سوى الصورة الحسنى للحقائق الابدية لكانوا اقرب الى الحق ، فكل شيء في الوجود في نظر العقاد على مسافة واحدة من سطوحه واعماقه ، وما يصدق على ظواهر الاشياء يصدق أيضاً على حقائقها الخفية .

وفي الانسان كما يقول العقاد ملكة تعينه على مجاوزة ظواهر الاشياء الى حقائقها ، وهذه الملكة هي ملكة الوعي الكوني ، وهي اعلى من الاحساس والعقل .

اما الاحساس فانه على ضرورته للمعرفة لايكفي للكشف عن حقائق الاشياء ، لان هناك اشياء كثيرة لانستطيع الاحساس بها . ومن زعم ان الوجود هو مايدركه الحس دون غيره

(١) العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، المقدمة ، (آ)
(٢) المصدر نفسه ، المقدمة ، (ب)
(٣) المصدر نفسه ، المقدمة ، (ب)

كذبه الحس نفسه ، واذا كان كل محسوس موجوداً ، فليس كل موجود محسوساً. فليس يصح اذن ان نكتفي بالاحساس والملاحظة والتجربة للاحاطة بالحقيقة من جميع جوانبها ، لان الحقيقة أغنى من اطار الادراك الحسي ، ولو مضينا في الحس الى غاية مداه لما إطلعنا الا على ظواهر الاشياء » .

واما العقل فانه لايختلف عن الاحساس في عجزه عن التغلغل في بواطن الاشياء ، لانه كثيراً مايبرهن على اشياء لانعرفها ، او يعجز عن البرهنة على اشياء لانعرفها الا بالوعي والوجدان وليس أدل على ذلك من تلك المذاهب العقلية التي تصوغ الوجود صيغة جامدة لاتنطبق على الواقع ونحن نخطىء فهم العقل حين نتصور انه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة، وانه لايعمل الا على طريقة التقسيم المنطقي ، وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج (١) ، فالمعوّل في طريق المعرفة على العقل المجمل لا على العقل المفتت ، ولكن العقل مجملا كان او مفتتاً لايستطيع الكشف عن الحقائق الابدية ، بل يقف امامها حائرا ، فلا يجزم فيها بنفي ولا اثبات .

وخلاصة رأي العقاد في الاحساس والعقل انهما ضروريان للمعرفة العلميـــة ، ولكنهما لايكفيان للوصول الى الحقيقة لان الحواس تدرك ولا تعرف ، ولان العقل يبرهن ولا يعرف . فالموجودات اذن غير محصورة في نطاق الحس والعقل ، ولا بد لنا من التسليم بقيام موجودات لاتحيط بها الحواس والعقول . (٢)

ففي الكون اذن مجال لملكة اعلى من الاحساس والعقل ، وهذه الملكة هي ملكة الوعي الكوني ، وهي ملازمة لفطرة الانسان ، لابل هي أعم من العقل المجمل وأعمق منه ، بها يدرك الانسان ذاته المطلقة ، وبها يدرك الحقيقة الكونية المحيطة بكل موجود . قال العقاد: «وللانسان وعي بما في الكون من جمال ، وله وعي بما فيه من نظام ، وله وعي بما فيه من اسرار والغاز وعيوب ، فاذا احتجب الجمال عن الناس ، وأسفر لاناس آخرين ، فليس ذلك بقادح في وجوده ، واذا خيل الى فريق من البشر ان هذا الكون السرمدي خلو من الاسرار ، فليس لهذا الفريق حق الاستئثار بالتصديق دون الفريق الآخر الذي يستشعر تلك الاسرار ، ويبادلها المكاشفة والمناجاة » فالوعي الكوني حقيقة يستلزمها العقل وتؤيدها المشاهدة في كل زمان ومكان . ان الديانات التي اعتنقتها الانسانية تترجم عن هذا الوعي وتمثله بما تشاء من الرموز والامثال وان الاشخاص الممتازين الذين بلغ فيهم هـــذا الوعي اقصاه لايسهل تفسير حالاتهم بالشذوذ أو بعوارض الجنون ، لأنهم في الغالب من اعظم الرجال واقدرهم على تبديـــل احوال الشعوب والاجيال .

---

(١) العقاد ، الله ، ص : ٢١٢

(٢) المصدر نفسه ، ص : ٣٧

على ان الناس في هذا الوعي متفاوتون ، فنهم من تمتلىء نفسه به ، ومنهم من تقفر منه ، فاذا قال قائل انني احس الحقيقة الكونية فلا ينبغي ان نكذبه واذا كنا نكذبه احيانا كما يكذب بعض الناس شعور الموسيقى بمئات الاصوات والالحان فرد ذلك الى مافي طبيعتنا من نقص ، وليس لأحد ان ينكر وجود شيء لانه لايدركه بحواسه ولا بعقله . فان الحقيقة الكونية لاشك فيها ، وان الوعي الكوني لاشك فيه .

والنتيجة التي انتهى اليها العقاد في خاتمة مطافه ان الوعي الكوني يكشف لنا عن الوجود المطلق ، وان التصوف عبقرية كسائر العبقريات ، وهو القدرة على الشعور بحقائق الدين ، فيه قلق يتطلب الراحة بالتعبير عن نفسه وفيه ذوق يتجلى فيه الوعي الكوني بأجلى مظاهره ، وهو يعلمنا ان الله تعالى ذات كاملة ، وان الذاتية اعلى مانتصوره من مراتب الكائنات وان الترقي انما هو انتقال من وجود بغير ذات الى وجود له ذات ، الى وجود يعلم ذاته ، ويشعر بوجوده ، وان الايمان بالحقيقة الكونية المطلقة ظاهرة انسانية لامحيد عنها ، وهي خير تفسير لسر الخليقة ، يعقلها المؤمن ويدين بها المفكر ، ويوجبها الطبع السليم . ومتى خلا الانسان من الايمان كان مخلوقاً شاذا ، ومن اعجب العجب أن يقال ان الانسان خلق ذا وعي وانه مع ذلك يعيش بلا عقيدة ولا ايمان .

هذا مجمل رأي العقاد في الوعي الكوني والحقيقة الكونية ، وهذا سر اعجابه بآراء الغزالي وغيره من المتصوفين أهل المكاشفات والمشاهدات ، واصحاب الذوق والكشف والالهام ، فهو لايعصم الغزالي من الخطأ في التفكير ولكنه يدرك ان تخطئته في التجربة الدينية من اصعب الامور (١)، وهو لايذهب الى كل ما ذهب اليه المتصوفون من شطحات عجيبة ولكنه يدرك مع ذلك انهم اقدر من الفلاسفة على معرفة حقيقة الذات الالهية ، والمعول في تفكير المتصوف على المعنى المعبر عنه لاعلى الرموز والمجازات : فالشاعر الذي يقول لنا ان في جوف البحر عرائس تغويه بالمدح وتغريه بالوثوب اليه يعبر لنا عن حقيقة نحسها وان كذبنا الفاظه وحروفه ، والموسيقي الذي تستهويه بهجة الربيع فينقلها الينا بألحانه واصواته يعبر عن حقيقة نتخيلها ، وان كانت الرياحين والنسمات والامواه شيئاً غير الاصداء والاصوات . وكذلك المتصوف فهو يعبر عن الحقيقة الدينية التي يحسها وان كانت الفاظه ورموزه مخالفة للمألوف من ألفاظنا ورموزنا ، انه يدرك الحقيقة الالهية مباشرة بالذوق والالهام ، ويدرك ما يفيض منها على الكون من أيات الحق والخير والجمال. والفرق بين تصوف العقاد وتصوف القدماء ان القدماء يبطلون الظواهر ، ويعرضون عنها بالزهد فيها ، لأنها في نظرهم حجب تستر الحقيقة الالهية عن النفس البشرية ، على حين ان العقاد لايبطل

(١) العقاد ، السببية عند الغزالي ، مجلة الكتاب ص ٧٠١

الظواهر ، ولايعرض عنها . بل يعتقد انها صور جميلة متصلة بالحقائق الكونية ، فهي بالقياس الى الوجود كالموج بالقياس الى البحر ، ولا فرق في النهاية بين سطح الوجود وداخله ، كلاهما ضروري لتفسير الآخر . وما الكون الا أثر فني جميل صاغه الخالق صيغة حسنة ، وجعله على مثال مستقيم . وفي هذا المثال المستقيم مجال للشعر والموسيقى والتصوير والفلسفة .

وميزة العقاد في نظري انه انتظم لنفسه صفات روحيه تميز بها دون جميع معاصريه ، وانه شبه الكشف الصوفي بالنجوى على البعد ، وهي الحالة النفسية التي تجعل الرجل يدرك مايفكر فيه اصحابه على بعد الدار بينه وبينهم . وما اختار العقاد هذا الموقف الروحي الا لانه شاعر يدرك الاشياء بالحدس والالهام قبل ان يدركها بالحس والعقل ، فهو شاعر وجداني جعل وصفه لظواهر الكون ذريعة الى الكشف عن معانيه العميقة ، وهو مفكر وجداني آمن بالوعي الكوني ، وزعم ان الحقيقة الكونية الكبرى لاتدرك الا بالوجدان .

وما علمت انه كان بين كتابنا المعاصرين رجل بلغ من التجرد الروحي مابلغه ، او ادرك من حقيقة الفكرة الفنية ما أدركه ، كان مؤمنا بضرورة المعرفة الحسية وقيمة المعرفة العقلية ولكنه كان عالماً ان الحس والعقل لايغنيان عن ملكة اعلى فيهما ، اعني ملكة الكشف الباطني او الوعي الكوني ، كان عاشقاً للحق والخير والجمال ، وكان اتجاهه الادبي في وزن احلامه وتفكيره المثالي في وزن تجربته ، فتكلم على الحرية والفنون الجميلة ، وعلى فلسفة الحب والجمال والالم واللذة ، وعلى التشاؤم والتفاؤل ، وعلى القديم والجديد وعلى العقيدة الدينية ، وذكر صفات المرأة بالقياس الى الرجل ، وصور عبقريات الشعراء والمفكرين كالمتنبي والمعري ، والفارابي ، وابن سينا والغزالي ، وعبقرية الصديق ، وعمر ، والامام والدوس هكسلي وغيرهم تصويرا صادقا يحفز الى اقتفاء آثارهم ولم تكن حياته اليومية الظاهرة بأقل جمالا وسموا من حياته الفكرية العميقة ، بل كان حبه للكمال غالبا على كل حركة من حركاته ، وعلى كل معنى من معاني الفاظه ومخارج كلامه . اوتي القدرة على استيعاب سنن الحياة وصروفها ومصادرها ومصائرها على نحو ادى الى تغذية عاطفته وفكره ، فما تكاد هذه الاحاسيس والعواطف تستقر في عقله الباطن حتى تسلك سبيلها الى عقله الظاهر ، وما تكاد تجارب الحياة تحكم سلوكه حتى تنقلب الى تصورات محكمة ، فاذا هي فلسفة وفن ، وذوق وتأمل وتفاعل عميق بين السليقة والبديهة وبين الواقع والخيال . يطل عليك وهو عابس متجهم الوجه ، فما تلبث ان تكلمه حتى يستقبلك بابتسامة جميلة ونظرات لطيفة تدل على ماتنطوي عليه نفسه من حنان ووداعة وحلم . ولئن احزنه جهل الناس وفسادهم وتهالكهم على المنافع المادية فمال الى التشاؤم في الحكم عليهم ، فقد

كان مع ذلك اكثر اهل زمانه ايمانا بالخير والتفاؤل . واذا كان قد آثر الاعراض عن وظائف الدولة ليكسب رزقه من تأليف الكتب وتحرير المقالات والرسائل فرد ذلك الى حبه للاستقلال والحرية . لم يثنه مديح المتقربين واطراء المتحاقين عن نقد نفسه بنفسه ولا منعته الشهرة من مواصلة العمل الأدبي حتى الموت .

لقد قضى العقاد نحبه ، وكنت اعتقد انه لايموت ، لقد قضى نحبه وذهب الى حيث يذهب الموتى جميعاً ، ذهب ليلحق بالحقيقة الكونية التي هام بها كل ايام حياته . فعليه مني سلام المودع ، وله علينا جميعاً حق الذكرى بما اتحفنا به من مقالات جميلة وكتب خالدة .



العقاد الشاعر

بقلم أحمد الجندي

ما كنت اريد لنفسي ان تزج في هذا المأزق وان اكون انا السبب في حرجها وارتباكها مع استاذ قديم وصديق قضيت زهرة الشباب وصدر الكهولة في صحبته وعشرته فوجدت لكليهما لذة لا تعد لها لذة ونفعاً لايزيده تطاول الزمن الا استمراراً وجمالاً .

لقد عرفت العقاد رحمه الله واحسن اليه منذ عام ١٩٢٤ وكنت ما ازال تلميذاً في اول عهد الشباب .. رأيت صورته وهو شاب يمتلىء قوة ونشاطاً في عدد من اعداد جريدة الميزان الادبية لصاحبها الاديب المعروف احمد شاكر الكرمي تغمده الله برحمته ايضاً ، ثم قرأت له مقالا في

عدد من أعداد البلاغ الاسبوعي وكانت من أشهر المجلات الادبية هاتيك الأيام ، ولم تمض فترة قصيرة حتى اكتمل عندي عدد الرجال الاربعة اولئك الذين امتدت صحبتي معهم الى ان استأثرت بثلاثة منهم رحمة الله وبقي صاحبهم الذي ارجو أن يمد الله في اجله حتى يتم رسالته وينجز مقالته . هؤلاء الاربعة هم هيكل والمازني والعقاد وطه حسين .

لقد عرفت العقاد كاتباً ، وكاتباً فذاً ، ولكني لم اعرف أنه شاعر الا بعد لأي ، فلما عرفت ذلك وجدت له استغرابا في ذهني ، وتعجبا في سريرتي ، لأن كتابة العقاد تدل على الفكرة العميقة والجملة الرصينة ، والرأي المنطقي واللمحة العقلية ، وهذه الاجواء كلها لا تنبىء بالشعر وانما تنبىء بالفلسفة من أقرب سبيل .

ان كتابة الشاعر لا بد أن تكون قريبة قرباً كبيراً من شعره . فالجملة عنده وان كانت الفاظها منثورة لا تخلو من نكهة الشعر والعبارة لديه لا تعدم أن تحس بين حروفها أرج الشعر وعبير الاحساس بل لا بد للشاعر حين يكتب النثر ان يتكلف هذا النثر بعض الشيء . وهذا فكتور هوغو لقد كتب رواياته النثرية فكان فيها متكلف الاسلوب لأنه لم يستطع الخلاص تماما من ربقة قيود الشعر التي تبدو مع النثر مستقلة على حين تبدو مع الشعر منسجمة كل الانسجام وهذا شوقي شاعرنا الأكبر ، ولو كره العقاد رحمه الله ، لقد كتب ما كتب من النثر فكان في نثره متصنعا وهو الذي علمنا كيف تكون السهولة الرائعة والطبيعة السمحة في نظم القريض .

لكن العقاد كان على العكس من هذا كله ، كانت القضية عنده مختلفة تماما عما هي عند الشعراء المطبوعين ، لقد كان النثر عنده أصلا وجوهراً على حين كان الشعر عرضاً ، كما يقول الفلاسفة وكان نثر العقاد على جهامته أحيانا ،

عميقاً عمقاً يجعلك تحس باحترام كاتبه ، كما تحس بعبقرية الفكرة عنده ان فاتتك عبقرية اللفظ والموسيقى والشعور ، فاذا قرأت شعره احسست بالغموض والاضطراب والبعد عن الطبع الشاعر الذي يحس به الشاعر حين يقرأ الشعر ، لأن مقومات الشعر تبعد كثيراً او قليلا عن مقومات النثر . وهما أي الشعر والنثر، يفترقان خاصة في عنصر الالهام ومصادر هذا الالهام وبواعثه ، النثر يغرف من العقل المفكر ،على حين ان الشعر ينبع من القلب . وأنا استأذن في هذه العبارة السادة الاطباء وعلماء التشريح فالقصود بالقلب الشاعر النبع الذي تنبعث منه الاحاسيس والخطرات العابرة التي تعبر عن معاني الحياة تعبيراً موسيقياً فيه جمال وفيه ايضاح يملأ النفس بهجة ولذة . فاذا قرأت النثر فهمت ماينثر ، واذا قرأت الشاعر احسست احساساً بما ينظم ، والفرق ظاهر بين الفهم والاحساس وان التقيا عند نتيجة واحدة في آخر الشوط . وهنا لا بد ان استدرك فأقول ان الكاتب مهما يكن عقلياً لايمكن ان يخلو من الطبيعة الفنية او يتجرد من الموهبة الشعرية كما ان الشاعر مهما يكن ملهما وموفقاً فهو غير معزول تماماً عن الفكر ، هذا الفكر الذي لاتقوم جملة بدونه ، سواء أكانت هذه الجملة جملة نثرية او كانت بيتاً شعرياً .

وعلى هذا فقد كان العقاد ،الكاتب الجبار ،شاعراً ايضاً وان انحصر مجده ، وارتكزت عبقريته على آثاره النثرية التي بلغ بها حداً يمكن أن يكون معه كاتباً عربياً عالمياً ؛ لو انصف النقاد، ولا يضير الكاتب الكبير ان يكون شاعراً أقل منه كاتباً ، ولو ان العقاد لم يكن يريد ان ينزل في مستوى الشاعرية عن مرتبة التفوق والنبوغ واحراز قصب السبق ، والانسان لايعرف نفسه حق المعرفة كما لايستطيع تقويم هذه النفس واحلالها محلها الذي تستحق بين نفوس الناس كما

لا يستطيع الرجل تقدير قيمة اولاده . ان رأي الرجل في شعره كرأيه في ولده. يسير وفق منطق العاطفة لا منطق العقل ، وهو رأي اقرب الى الخطأ وألصق بالغلط ، وكم كان ابو تمام حكيماً حين قال يمتدح احد ممدوحيه .

ويسيء بالاحسان ظناً لا كمن هو بابنــه وبشعره مفتــون

ويمكن القول ان العقـاد يمكن ان يعدّ في الشعراء الذين نجحوا في ابراز الفكرة التي ارادوا التعبير عنها ، ولم ينجحوا في كيفيـة الابراز او الاخراج على حد التعبير التمثيلي لأن العقاد لم يستطع ان يكون موسيقياً في شعره ، وموسيقى اللفظ ، او الغناء ، ان اردت الدقة ؛ موهبة اخرى تضاف الى موهبـة الشاعرية ، والشعر الموسيقي هو الذي عرفناه عنـد البحتري ، وهو الذي وصفه ابن الاثير حـــين ذكر البحتري فقال : أراد البحتري أن يشعر فغنى والعقاد في رأينا اراد أن يشعر فشعر ولكنه لم يغن .

وقد حرص العقاد أشد الحرص على اختيار اللفظ الشعري ، اللفظ الذي لا يحتاج حتى الى المعنى ليؤدي معناه عن طريق الاحساس ، وهذا اللفظ اذا وجدت واحدة من كلماته في البيت ارتفع البيت من حضيض التفاهة او السطحية أو العادية، الى مستوى الشعر العالي ، هـــذا هو النوع من الالفاظ الذي عرف به شعراء البارناس والرمزية عند الفرنسيين من أمثـــال لكونت دءليل وبودلير وسوللي برودوم وفرلين واميل فرهارين وعرف به من العرب ابن الرومي صاحب العقاد ، والشريف الرضي ، وابو تمام ، ومسلم بن الوليد ، وشوقي ، هـذا النوع من اللفظ أشبه بالقطع النادر ، بل هو اشبه بالحجارة الكريمة التي تفيد في الزينة والتجميل. وإثارة الذوق والاعجاب ،وانظروا الى قول ابي القاسم الشابي مثلا يصف محبوبته :

كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود

فكلمة « موقّع » وحدها يمكن ان تبث الحياة في قصيدة بكاملها لا في بيت واحد ، أو قول شوقي في كيلوبترا :

ولكن عشقت العبقرية طفلة وفي الغافلات « البله » من سنواتي

فلفظة «البله» هذه تفتح امام القارىء آفاقا لا تحد من الاحساس والشعور وتعبر عن معانٍ قد لا تحيط بها صفحات بكاملها .

أو قول أبي تمام يصف ارضاً أمطرتها السماء بعد عطش قاتل :

ديمة سمحة القيـاد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

وما اعظم استغاثة الثرى بل ما أعظم وأبدع الكرب الذي اثقل كاهل الأرض .

ان هذه الالفاظ هي كل شيء في الشعر ، وبمقدار ما تكثر في عرض القصيدة يكثر عنصر الشعر فيها .

بعد اللفظة الشعرية تأتي الصورة الشعرية وتتلخص في ان الشاعر ينقلك معه وبواسطة الفاظه ليصور لك الشيء الذي هو غـــير واضح في ذهنك فيجعله واضحاً ممثلا سهلا على الفهم والادراك وابن الرومي من اغنى الشعراء في هـــذه الصور ، وصوره الشعرية معروفة مبثوثة في كتب الادب والفضل في استخراجها من مخبئها وعرضها على الناس في معرض واحد جامع لها ، حاو لأطيبها ، الفضل في ذلك كله يعود للمرحوم العقاد ثم للمرحوم المازني زميله وصفيه .

والعقاد قد أستطاع في بعض شعره ان يكون مصوراً ولـكن خطوط الصورة عنده ليست موفقة ، اعني أن اللفظ عنده ،وهو الذي يشكل اطار الصورة غير منسجم مع سمو الصورة وفنيتها ، لهذا لابد لك من الزور بعقبات وموانع حتى تصل الى الصورة العقادية — أو — المعقدة — ان صحت الاستعارة . انك حين تنظر الى صورة العقاد بعين ذهنك لا بد لك ان تسعى لازالة الغشاوة عن عينيك

وكأن شيئاً ما يحول دون استساغتك لجلال الصورة وجمالها . هذه الغشاوة هي التي تنشأ من اضطراب اللفظ واهتزازه لوقوع اللفظة مزعزعة في مكانها الذي لم تخلق له . . .

نصل من هـــذه الفكرة الى القول ان العقاد ليس بصانع للشعر لأن ادوات الصنعة غير كاملة لديه . لقد اعتمد العقاد على الفكرة ونسي التجويد والتصنيع وهما أساسان لكل شاعر فنان ودليل اعتماده على الفكر اولا ، هذه المقدمة التي افتتح بها ديوانه الكبير ، يقول :

هـــذا كتابي في يد القراء
يـــنزل في بحر بـــلا انتهاء
فيـــه من الحكمة والغنـــاء
وفيه من حب ومن بغضـــاء
وفيـــه من صمت ومن ضوضاء
صورة محياي لعـــين الرائي

فهو كما ترى يبحث في ديوانه عن الحكمة والغناء وعن اليأس والرجاء وعن الحب والبغضاء وكلها يمكن ان توجد في أي كتاب من كتب علم النفس فاذا اراد الانتقال الى الشعر الفني قال في قصيدته التي بدأ بها ديوانه وعنوانها « فرضة البحر » .

قطب السفين وقبـــلة الربان	يا ليت نورك نافـــع وجداني
يزجى منارك بالضياء كأنـــه	ارق يقلب مقلـــتي ولهان
وعلى الخضم مطارح من ومضه	تسري مدلهـــة بغير عنان
كمطارح الافكار في لجج على	لجج من الشبهات والاشجان
تخفى وتظهر وهي في ظلمائها	باب النجاة وموئل الحيران

انك لتحس معي بالصور المتراكبة المتعاقبة وقد تمر بومضات من الاحساس العميق حتى اذا بلغت الى نهاية الابيات لم تعثر على شيء في ذهنك . ان قول الشاعر « ارق يقلب مقلتي ولهان » قول جميل وخاصة في كلمة « يقلب » ولكن هذا الارق يبدو غير ذي علاقة بالشطر الاول من البيت ولأعد على سمعك كل البيت لتتأكد مما أقول :

يزجي منارك بالضياء كأنه ارق يقلب مقلتي ولهـــان

ولن تستطيع مها اوتيت من دقة الفهم ان تفهم ماعلاقة « ضياء المنـار » بهذا الأرق العجيب . أما البيت الرابع الذي يقول فيه :

كمطارح الافكار في لجج على لجج من الشبهات والاشجان

يريد الشاعر القول : ان مطارح ومض النار تشبه مطارح الافكار في لجج على لجج من الشبهات والاشجان .

المعنى عميق والصورة قد تأنق فيها صانعها ولكنها أشبه بالصورة التي يرسمها لك فنان فاذا نظرت فيها لم تكد تعرف نفسك او هي أشبه بصور صاحبنا بيكاسو التي لا يتفق اثنان على الغاية منها .

لقد تأثر العقاد في حيـــاته كشاعر بمؤثرين تناقضا في ذاته وتضاربا في كيانه فخرج شعره الوانا منوعة لاضابط لها ولا جامع لمظاهرها . تأثر اولا بحياته الاولى في مدينة اسوان ، وهذه المدينة اشتهرت بمناظرها النيلية وبلياليها القمراء التي تكسو مياهها بالأشعة اللينة الناعمة حتى لترى النهر وكأنه سيال من الذهب الذائب ، وكان العقاد وهو صغير السن ، مولعاً بهذا المنظر ، منظر النيل في الليلة القمرة ، وكثيراً ما كان يجلس الساعات الطوال وهو غرق بهذا المنظر الساحر : فالشاعر العقاد اذا وصف لك هذه الفترة من حياته ، وهذه النظرة من وجوده

في اسوان بلغ حدالابداعوكان الشاعر الكبير. حقاً واستمع اليه في هذهالقصيدة الفائية لترى اثر الطبيعة في النفس الحساسة الشاعرة :

لذ الطاف بجنة المصطاف	وصفا اللقاء على النمير الصافي
وحدا الخرير بنا فكان حداؤه	نعم الغناء لنا عن المجذاف
لبس الظلام من الضياء غلالة	فكأنه خاف وليس بخاف
والبدر منفرد الجلالة سادر	متنقل كالناعس الطواف
رطب الجبين سرت حلاوة وجهه	في الروض بين ربا وبين نطاف
اضفى على تلعاتها ووهادها	حللا تخف اليه بالاعطاف

ثم يخاطب النهر ويذكر القمر بقوله :

إيهاً أبا الانهار فوقك شادن	يشفي الغليل وانت لست بشاف
فرعون لم يحمل عليك نظيره	والبحر لم يحرزه في الأصداف
اوفى علينا من سماء جماله	فاجل بطلعته وماؤك غاف

الالفاظ هنا والصور وحتى الاسلوب تختلف اختلافا كبيرا عن شعر الديوان كله لأن العقاد شاعر حقا حين يصف النيل فهو ابن النيل الصادق الوفي. وانت ادركت ولا شك الجمال الاخاذ في قوله يصف الليل « فكأنه خاف وليس بخاف » وقوله يصف البدر « رطب الجبين » و « سرت حلاوة وجهه » و « الماء الغافي » تلك الفاظ هي الشعر . بل قل إنها الوحي والالهام .

وتأثر العقاد ايضاً بقراءاته الطويلة التي لم تنته حتى في ايام مرضه الاخير رحمه الله . والشاعر عندي هو ابن البيئة وابن القراءة أما الوراثة فأثرها ضئيل جداً وان أثار هذا الحكم حنق العقاد؛ان ابن الرومي عربي رغم روميته ؛ لانه تأثر بالجو العربي والشعر العربي وجبران شاعر متأمرك لانه تأثر بالادب

الاميركي اكثر من تأثره بالادب العربي ، ولا دخل لهذه الامور بالأصل والعرق لأن القضية قضية ادبية فحسب .

فالعقاد تأثر بالأدب الانكليزي الذي يعتمد على الفكر الا عند القليلين من شعرائه الرومانتيكيين لذلك كان في شعره « عقليا » ولقد نقل لنا الصور التي اوحتها اليه قراءته لتوماس هاردي المهندس الشاعر وشكسبير فرأينا في ديوانه مشابه من هذه الصور الانكليزية التي وفق فيها العقاد غاية التوفيق . وانظر الى هذا الموضوع الشعري الذي طرقه الشاعر في قصيدته « العقاب الهرم »

يهم ويعييه النهوض فيجثم ... ويعزم الا ريشه ليس يعزم
يلملم حدباء القدامى كأنها ... اضالع في ارماسها تتهشم
ويثقله حمل الجناحين بعدما ... اقلاه وهو الكاسر المتقحم
ويلحظ اقطار السماء كأنه ... رجيم على عهد السماوات يندم
ويغمض احيانا فهل أبصر الردى ... مقضا عليه ام بماضيه يحلم

الصورة مثقلة بالمعاني الرائعة وان كانت الالفاظ فيها تنم على بعض الكلفة التي لا بد منها عند شاعر يشكو جور الفكر على الشعر وحيف العقل على الشعور ، ولكنه ابدع كثيراً في وصف الهرم بقوله « ام بماضيه يحلم » انها قصة الحياة التي رأت نهايتها او كادت .

ولقد تأثر العقاد ببعض الشعراء العرب ؛ تأثر بابن الرومي الذي اكتشفه فقلده وقصر عنه وتأثر بالمتنبي الذي احبه وهو خليق انيكبو دونه ، ولعله اجاد حين قلد ابا العلاء في شكواه ، لان أبا العلاء شاعر فكر كالعقاد وليس بشاعر صورة أو لفظة او اسلوب واليك شيئاً من هذا القبيل يخاطب فيه شاعر ابائساً :

شكوت الذي أشكوه فاعلم بأنني ... وجدت من الايام ما انت واجد

اضر بعيني النقـــع حتى حسبتني   اجاهد وحدي في الوغى ما اجاهد

. . .

اتحسب أن اليم يسكن إن شكا   تظلم ما نشكو من الثوران
ولو كان يلقى ما نـلاقي من الاذى   لطـاف على الارضين بالفيضان

. . .

عجبت من الدنيا توالي صروفهـا   واعجب منـــه حبنا لدوامهـا
هـــو العيش داء والنفوس مريضة   ولـــكنها تأبى شفاء سقامهـا

. . .

انه المعري مـع شيء من المتنبي . ولكن التشاؤم العلائي بارز ظاهر بحيث لايخفى على احد .

اعتقد ان صورة العقاد الشاعر قـــد اصبحت واضحة . فهو شاعر فكر وعقل ورأي . لاشاعر صورة ولفظة وديباجـة . وهو ان اعوزته صنعة الشاعر وبديهته ورهافته فلن تعوزه الفكرة الشاعرية : ولقـد حاولت جهدي ان اعيّن له مكانه ولعلي قد وصلت الى بعض الهدف . اننا لانريد ان نسمي العقاد اميراً للشعر كما صنع الدكتور طه حسين العميد الجليل كما لانريد ان نشوي العقاد على «السفود» كما فعل الرافعي سامحه الله وانما قصدنا الى الانصاف جهد المستطاع .

ان انصاف العقاد واجب في عنق كل عربي ، فلقد خدم قومه وامته ولغته واهل بلاده خـــدمة جليلة . ولقد كان قوي الشكيمة ولكن على اولئك الذين حاولوا الاساءة للشعر العربي واللغة العربية فكان ينفخ في وجههم فيتطايرون كالفراش من حوله على حد قول بشارة الخوري :

كلما اطبـــق الغبار عليهم   حشرجوا تحته وماتوا اختناقا

ولكنني كأني اسمع العقاد من وراء الابدية يخاطب اولئك الحاقدين بقوله :

خـــذوا دنياكم عني   فدنيـــاواتنا كثر

لقد ايقن العقاد طوال حياته بأن اللغة العربية هي اساس القومية العربية ، ويكفيه هذا فخراً .

رحم الله العقاد وعوض العرب عنه خير العوض .



العودة الى النبع

شعر : سلمى الخضراء الجيوسي

افقنا من الموت ، صوت بأعماقنا يرعشُ
« هوانا القديم ، سنرجع ، لن نترك النبع يستوحش »

اما نضب النبع بعد نواح النواقيس دهراً عليه ؟
يقول الرواة بأنا انتهينا
تركنا لديه البراءة والحلم ثم مضينا
بلا عودة في الحياة اليه
ويروون ان الدماء التي اقلقت عمرنا
تجنّت علينـــا
كأن بأعماق اشواقنا تعيش جذور الردى
فيوم الرحيل يقولون انا هدينا
الى النبع زهرة آس من القلب ثم بكينا
ورحنا نجرر خسراننا
تضم الحنايا فراغاً سحيقاً تناوح فيه الصدى

★ ★ ★

ولكن نبعاً سقيناه من حبنا وأفانا عليه الظلالْ
فأغنى مناهلنا الزاهرات ، عميق ولا ينضب
فلو عدت يوماً اليه
والقيت جرحي عليه
سيغمو في قلبه المتعبْ
ويسقط عنا ، بلمحة عين ، ركود السنين الطوالْ

★ ★ ★

لقد جبتُ في الكون يا منهل العمر ، ضب
وعريت قلبي لعصف الرياح
وعانقت مأساة شعبي ، عشقت حنين الجواح
ووحدي اسيت ، تعذبت ، وحدي جعت
وسالت دمائي نبعاً من الصبر واليأس لكن رجعت
الى سرك الاوبحي ، فهل الرضى والسماح .

★ ★ ★

دعوني الى النبع ! منه انبثاق الحياهْ
وفيه النهاية ، نامت رؤاي عن الكون ، هلّ بشير الرحيل
دعوني ، فما افجع الصبر ! قطرة ماء تندي الشفاهْ
هنيهة حلم قبيل النعاس الطويل
وأرجع
قلبي امين على العبء ، قلبي .
حني على مشتهاه العليل
ولكن دربي
الى النبع عدىّ عليها الالهْ .

الوحدة في شعر المهجر

في المهاجر البعيدة ، ومنذ مطلع هذا القرن ، تغنى الشعراء المهجريون بعروبتهم . . . من عل. فوق حضيض العصبيات والاقليميات . وحلموا أبداً بالحرية العربية على أنها وحدة عربية . وفي هذا المقال لانحصر اشعارهم وهي لاتحصى ولكننا نعرض بعضها .

بقلم : فريد جحا

— ١ —

عاشت البلاد العربية ثلاثة قرون إبان العهدين الاموي والعباسي **في وحدة تامة** ، تخضع الدولة فيها لسلطان خليفة واحد . ثم أتت عصور الضعف والانحلال ، وانقسمت الدولة الى ممالك وإمارات تصطرع فيما بينها ، وحدث مرة أن حكم ثلاثة خلفاء في آن واحد : أحدهم في بغداد والثاني في القاهرة والثالث في قرطبة . ومع هذا فقد ظلت الوحدة قائمة ولم يكن العربي ليشعر بذلك الانقسام . ذلك أنه لم تكن هناك حدود ولا سدود تقف في وجهه ، وكان ينتقل بكل حرية من المشرق الى المغرب دون أن يعترض سبيله أحد ، كما أن الاعمـــال التجارية كانت تتم كما لو أنها تجري في ظل دولة واحدة .

والواقع أن **الوحدة الفكرية والنفسية كانت قائمة** تتجلى في اللغة الواحدة التي تتكلمها الأمة ، وفي التراث الحضاري والروحي والادبي الذي يعيش في ظله الشعب العربي ، ثم في وقوفه يداً واحدة ضد أي عدو خارجي يريد بالوطن شراً .

وبقيت للبلاد العربية وحدتها أثناء الحكم العثماني الطويل ؛ ولم يحدث الانقسام ، ولم تتبدد الوحدة ، الا عندما بدأ الاستعمار في غزو البلاد العربية واحداً بعد الآخر : بدأ ذلك الغزو في الجزائر ، وانتهى بعيد الحرب العالمية الاولى حين اقتسمت فرنسا وانكلترا بلاد المشرق العربي التي ظلت حتى ذلك الوقت تخضع للحكم العثماني . اقتسمتها وقسمتها الى اربعة اقطار هي سورية ولبنان وفلسطين والعراق ، واقامت بينها الحدود والسدود جاعلة منها دولا متباعدة دولياً .

وكان من الواضح أن غرض الدول المستعمرة من ذلك اضعاف الامة العربية بعد تشتيتها ، وإقامة تناقضات اقليمية بين اقطارها ، وإشاعة دعوات غير عربية فيهـــا كالفرعونية والفينيقية والسورية والآشورية . حتى اذا تم لها ذلك ، سهل عليها حكم تلك الاقطار واستثمار خيراتها وموقعها الجغرافي الهام .

— ٢ —

ولقد كانت الثورة العربية ضد الاتراك عام ١٩١٦ ، وحدوية الاتجاه على الرغم من اهتمامها باقطـــار المشرق العربي . تجلى ذلك في إصرارها على إقامة دولة عصرية عربية في الحجـــاز وسورية الطبيعية والعراق ، ولم توافق على ذلك دولتـــا الاستعمار ، **فقسمت البلاد على النحو المعروف** ، ووضع مخطط لتسليم فلسطين لليهود بعد فترة من الزمن .

وانطلق العرب بعد الحرب العالمية الاولى يناضلون في اقطارهم المستعمر ، وقامت الثورات

في كل بلد على أنها ثورات قطرية تقارع المستعمر وتقف في وجه سلاحه وتقدمه بالعزم والايمان . وعندها تجلت **وحدة المصير** ، وبدا للعرب أنهم امـــة واحدة حقاً : وحدة ضمير أتت من تاريخ يعتز به ، ووحدة فكر تذكيها لغة واحدة ، وآلام وآمال ترتبط بمصير واحد ، ثم مصالح متشابكة يكمل بعضها بعضا .

وهكذا اخذت القلوب التي حاول الاستعمار تفريقها تتقرب وتتعارف على الرغم من الدعوات الشعوبية ، والحدود والسدود التي اقيمت بين الاقطار العربية وجزأتها الى اكثر من عشرين دولة وإمارة . ان الصراع ضد الاجنبي لم يله العرب عن تطلعهم الى الوحدة ، ولاعن رغبتهم في اعادة الدولة العربية العتيدة ، بل ان الصراع ضـــد الاستعمار أوجد بينهم وحدة هدف . لذلك كانت الثورة في كل قطر سرعان ماتجد لها صدى في بقية الاقطار ، وكان التضامن على الرغم من ارادة المستعمر يبدو في أجلى مظاهره .

— ٣ —

والواقع أن مقومات **الامة** العربية التي تحدثنا عنها **كانت موجودة** في الأمة العربية بشكل تام الوضوح، لذلك اخذ المفكرون ومعهم الادباء يدعون اليها ولسان حالهم يقول : اذا كانت مقومات الوحدة موجودة فلماذا لاتقوم الدولة العربية الواحدة ؟ ولم يكن مستغرباً من (عبد الغني العريسي) أن يقف في مؤتمر باريس (١٩١٣) ليقول في خطبة طويلة :

« هل للعرب حق جماعة ؟ إن الجماعات في نظر علماء السياسة لاتستحق هذا الحق الا اذا جمعت على رأي علماء الالمان وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات ، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحـدة المطمح السياسي . فاذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه السياسية علمنا ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة عنصر ، ووحدة تاريـخ ، ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسي . فحق العرب ان يكون لهم على رأي علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة » .

وفي المهجر على الرغم من بعد الديار ، والدعوات الشعوبية والطائفية التي كان يغذيهـــا المستعمر ، انطلق الشعر المهجري يدعو للقومية العربية ولوحدة العرب ، مثبتـــا ان اصل العرب واحد ، ولغتهم واحدة ، وآمالهم متقاربة .

فايليا ابو ماضي يعتز بانتسابه الى (قحطان) المعظم ، في معرض رده على افتخـار الاتراك بانتسابهم الى (جنكيزخان) .

ومن كان قحطان اباه فانه «له الصدر دون العالمين او القبر»

وان بني قحطان اذ جد جدهم لأعظم من أن يستنيم بهم حر

ويشير ابو الفضل الوليد الى مابين عرب العراق والشام من قرابة الاصل والفكر :

الشام اخت للعراق وفيهـــا نور العروبة للضليل الناشد

أهلوها أبنـــاءُ عمٍ كلُهم عربٌ بآداب لهم وعوائدِ

ويضيف الشاعر نفسه اللغة الى رابطة النسب ليكونا الاخوة العربية التي تجمـــع العربي بأخيه العربي :

مابيننا نسب فيه لنا شرف وهذه اللغة الزهراء برهان

عيسى وأحمد في بلواهما اجتمعا والناطقون بحرف الضاد اخوان

وكان حبهم للغة العربية وافتخارهم بها يفوقان حد التصور . فهي في نظر الشاعر عظيمة وآية عظمتها أن الله قد اختارها للقرآن الكريم :

كفاها أنهـا الله اصطفاها لقرآن تبلّـج كالصباحِ

ويتألم الياس فرحات لأن أولاد المغتربين أصبحوا لايعرفون لغة آبائهم ، ولا يفهمونها مع انها سفينة النجاة للعرب الغرقى :

وصلتنا بذوينا لغــــة لم تصلنا ببنينـا الظرفاء

ان نقلْ قولاً صحيحاً بينهم رددوه بلسان الببغاء

خالطوا العُجْمَ فصاروا مثلهم دأبهم للعرب اضمار العداء

نحن غرقى في خضم انمـــا لغةُ الضاد سفين للنجـاء

ويبلغ حب اللغة من نفس الشاعر القروي ـ رشيد سليم الخوري ـ أنه يعفو عمن يسبه بلسان عربي ، اكراماً لهذه اللغة الشريفة :

أضحك مايضحكني مستعجمُ يسبني بلغـــةٍ يسبها

وحقها ان لم اكن أحبه ساعته لأنــي أحبهـا

ويعاتب الشاعر صيدح اخوانه المغتربين على اهمال لغتهم الفصحى وانصرافهم الى اللغـــة الاسبانية ، فخسارة اللغة لاتعوض عنها مكاسب الكون :

يقولون لي : ام اللغات تغربت ... وأضحت لفوط الضعف ام الغرائب
فقلت : احفظوا عرشاً لها في صدوركم ... تسدوا وتسودوا في عروش الأجانب
ألا تتقون الله في هجر حرة ... الى حرة هانت على كل خاطب
ومن خسر الفصحى لسانا ونسبة ... عفاء على ما ناله من مكاسب

وكم تغنى الشعراء بالماضي المشترك وبأمجاد الامة العربية . ان هذا الموضوع كثير في شعر المهجر نكتفي الآن منه بهذه الأبيات لأبي الفضل الوليد الذي يقدم لنا فيها حبه الكبير لأجداده العرب :

أنا فتى عربي بين أضلعه ... تاريخ قوم هو الأنوار والسحب
قد رنحته أحاديث الحمى طرباً ... كما تثنى لهبات الصبا القصب
نفسي تلظت بحب العرب فاشتعلت ... بها نفوس الى العلياء تصطحب

وبهذين البيتين لالياس قنصل الذي يربط فيهما الحاضر بالماضي :

أنرضى بالهوان ونحن قوم ... ملأنا صفحة التاريخ فخرا ؟
أيرهبنا الحديد وقد بنينا ... بحد السيف مجداً مشمخرا ؟

وكان شعراء المهجر يشعرون أن آلام العرب وآمالهم واحدة مشتركة . فالشاعر صيدح يحس أن قلبه العربي الذي لا يعترف بالحدود ، يعيش آلام أمته ، فالزفرة يصعدها في مكة تئن لها القلوب في بغداد :

واهاً له من مستهام رائح ... بين الجزيرة والكنانة غاد
ان صعد الزفرات في أم القرى ... سمع القلوب تئن في بغداد
كتب الجهاد عليه لم يهدأ له ... نفس ولم يخفق لغير جهاد

وفي قصيدة في رثاء (سعد زغلول) يشاطر الشاعر فرحات أهل الكنانة مرارة الالام وحلاوة الامل :

إن الكنانة أمٌّ كل مجاهد ... حر كريم ماجد مفضال
بتنا وما زلنا نشاطر أهلها ... مرّ الاسى وحلاوة الآمال

من هذا يتبين لنا ان شعر المهجر أكد على مقومات الامة ، وأثبت وجودها في الامة العربية المتطلعة نحو خيرها ووحدتها .

كان شعراء المهجر يدعون للوحدة في شعرهم وتصرفاتهم ولقد
ويقدمون الدليل تلو الدليل، على عميق ايمانهم بهذه القضية العظيمة.
فجورج صيدح يهدي ديوانه « الى كل عربي اللسان والوجدان » . وعندما يتم جلاء الاجنبي عن سورية يدعو الى الوحدة التي هي الخطوة الثانية بعد التحرر :

ياحداة" هودج النصر ضجوا	بدعاء للوحدة العربية
وحذاراً ياحامليه فأنتم	تحملون الكرامة القوميه

وعندما تقع القطيعة بين البلدين الشقيقين سوريا ولبنان ، يستنكر ذلك ويهزأ بهذه الحدود المصطنعة التي تقام :

رب سور على الحدود منيع	إن لمسناه بالشعور تهدمْ
مابناه علوج عهد انتداب	كيف تبنيه دولة الخال والعم

وعندما يختار الجنسية اللبنانية بدلا من السورية يعجب بعض الناس من هذه الحادثة لأنهم يعرفون حبه لدمشق مسقط رأسه ، فيجيب هؤلاء أن (عدنان) في صدره وان وطنه كبير كبير لايعرف الحدود :

عدنان في صدري يهش كخافق	ضمّ العروبة شاطئاً وصعيدا
وطني حدود الله تمسح أرضه	لا أيُّ مساح يخطُّ حدودا

وينظم جورج عساف على عهد السلطان عبد الحميد قصيدة يدعو فيها العرب الى ثورة عربية الهوى ، أبطالها من كل بلد عربي :

ومثقفين على الحروب صحبتهم	يتجاذبون معاطف المران
ذكروا القديم من الفخار فشاقهم	شوق" الى العلياء في الميدان
فيهم حجازي ونجديٌ كما	من كل مفتول الذراع يماني
عقدوا الخناصر كلهم عرب فما	علقت" حمائلُ بيضهم بجبان
وتعصبوا يتطلبون المجد لا	للدين بل للجنس والأوطان

وعندما تقوم الثورة العربية عام ١٩١٦ يتصورها ابو الفضل الوليد ثورة الوحدة التي تعيد أمجاد الدولة العربية العظيمة :

الله أكبر عادتْ دولة العربِ بشرى لهارون والمامونِ في التربِ
دمشقُ حنّت الى بغداد واضطربت مصرُ التي هيَ دارُ العلم والطربِ
على الثلاثة شاد العـــلم دولته ياحبذا دولة الأسياف والكتب

كذلك يرى القروي نصر مصر على العدوان الثـلاثي نصراً للعروبة وللوحدة التي انتظم جنودها حول علم واحد يسلمه بطل الى بطل :

أما ترون جنود الوحدة انتظموا في كل مضطرب ناءٍ ومقتتـلِ
يراقص النجم في أيمانهم علم للحق من بطل يزجى الى بطل

ويتصور الياس فنصل جيشاً عربياً يسير للجهاد ، يقوده الصيد الاباة ، ويرتفع فوقـه راية واحدة ، يتقدم ليدك حدوداً أوجدتها مطامع الاجنبي فيعود الى (صنين) ماض جلاله ، والى بغداد سناه سؤددها :

وأبصر تحت النقع جيشاً عرمرماً يسير بـآيات الجهـاد مزودا
على رأسه صيد تخر لبـأسهم جبابرة التاريخ في الغرب سجدا
تظللهم راي موحـدة على تلاوينهـا النصر المبين تعودا
ودكوا حدوداً أوجدتها مطامع فرنجية منهـا الرياء تولدا
ويبعث من (صنين) ماضي جلاله فيغـدو لآمي العبقرية مقتدى
ويسطع من بغـداد نور سناؤه يجوب الثرى من سؤدد العرب موقدا

وحتى بعد الموت كان يرفض بعضهم الحدود ، فلقد أوصى ابو الفضل الوليد أن يدفن في دمشق . يقول : « اني أموت كما عشت عربياً ، آملا مشوقا ، وأود ان تضم جثماني تربة دمشق الطيبة . هناك تهيم روحي في البادية ، وتنشق نفحاتها الطاهرة ، وتطرب لهدير الوادي تلك رقدة أشتهيها ، وأعلل نفسي بها ، وأراها خير مكافأة لي اذ كنت مستحقاً لها . »

كما اوصى امين الريحاني أن يدفن في بقعة على الحدود بين سورية ولبنان رمزاً لوحدة البلدين ، وتطلعاً الى يوم تزول فيه التخوم والسدود . والذي يؤسف له أن روحي الفقيدين لم تنعما بهذه الأمنية ، فقد دفن الأديبان العظيمان في قريتين لبنانيتين متجاورتين (قرية الحمراء والفريكه) . . رحمها الله وأجزل ثوابها .

ولقد حمل الشعر المهجوي على هذه الدول الكثيرة التي أقامها المستعمر . انها – كما يقول فرحات – دول هزيلة صنعوا من أجلها الوزراء والجند ، وهي دون ذلك بكثير :

كبرت فويستهم على أقدارهم فتقاسموها بينهم أشلاء
ماهذه الدول الهزيلة ماخطت الا وعانقت الحضيض عياء

ولم يكتف الاعداء بذلك بل اقاموا الدول على اساس من الدين . ففي فلسطين دولة يهودية ، وفي لبنان دولة يريدونها مسيحية .. وليست رغبتهم ارضاء المسيح أو موسى ،ولكن تقطيع اوصال البلاد العربية وردها عن البحر ، وأضعاف شأن هذه الامة العظيمة :

أقاموا جنوباً لابن عمران دولة وشادوا دولة لابن مريم
وما همهم هذا ولا ذا وانما جويحة محتال وحيلة مجوم
يريدون سد البحر في وجه أمة اذاغضبت أجرت بحور أمن الدم

ولن تعيش هاتان الدولتان الى الابد ، فسيأتي يوم تمحى فيه الحدود ويلتقي العرب تحت لواء واحد :

وماكان عمر الدولتين مخلدا ولكنه باق ليوم عرموم
ليوم به نمحي الحدود ونلتقي بني أمنا تحت اللواء المنجم

ولقد شن الشعراء المهجريون جميعاً حملة على هذه التقسيمات ، وعلى الحدود التي أقامها المستعمر بقسمة ظالمة لا يعترف بها المهاجرون لأنهم لم يكونوا شهودها كما يقول صيدح :

القسمة الضيزى التي رُسمت له ما كان فيها النازحون شهودا

ويلوذ الشاعر نفسه بصلة العواطف واللسان والدم عندما يبلغه نبأ القطيعة بين سوريا ولبنان ، ويقول : نحن خاسرون خاسرون مهما كان كسبنا مادياً عندما نضيع عاطفة الحب وصلة اللسان :

أيّ غُنم من القطيعة نجني ان خسرنا مؤونة القلب والفم

ولايعترف نسيب عريضة بهذه الحدود فبلاد العرب كلها بلاده :

لا حدعندي اذا جارت حدودُهمُ   الشامُ شامي ومصرأختُ لبناني

أما ابو ماضي فحملته على الذين أقاموا التخوم حول لبنان بزعم حمايته ؛ انهم بذلك قد ضيعوا الدنيا من حوله ، والله حاميه لا سيوف الفرنجة :

قل للأُلى رفعوا التخوم لأرضه   ضيقتم الدنيا عـــلى أهليـه
ولمن يقولون الفرنـــج حماته   الله قبـــل سيوفهم حاميـه

— ٦ —

وكان شعراء المهجر يتصورون الاقطار العربية وطناً واحداً يستمد كل قطر حمايته لامن الاجنبي – كما يقول العملاء – ولكن من اخوته في الاقطـــار العربية الاخرى . فلبنان ليس له ، وهـــو الشيخ ، حين تنزل به الثلوج إلا فراش العروبة الدافىء ، الذي يحيطه بالدفء والرعاية والحنان كما يقول فرحات :

لبنانُ ان تَرضَ العروبةَ كان لي   في القول فيك من النجوم قواف
ياشيخُ مالكَ والثلوجُ كثيفة   حرزٌ سوى هذا الفراش الدافي
والعربُ أهلُكَ لن يقابل معرضٌ   عن أهـــله الا بالاستخفـــاف
ماأنتَ الا هُمْ فهم لك معدنٌ   هـــذي الرياضُ أصولهن فياف

ويرى جورج عساف أن لبنان تعصمه ذراه وتحميه كتائب العروبة وتدافع عنه دمشق وبغداد ونجد .

تحمي الكتائب لا الحماية أرضه   من خائنيه ومن عيون الحُسَّدِ
لبنان تَعصِمُهُ ذُراهُ وجلقٌ   ترعاه ان يُنجدْ وان يتبغدد
امّا غـزا غازٍ حمـــاه صَدّهُ   عن حوضه بزمجـــر ومعربد.

ويتصور القروي جسمه موزعاً بين الاقطار العربية ، فاذا نزل شر بجزء منه تألم جسمه ألماً كبيراً : « اذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحي . واذا هددوا عربياً في لبنـــان أو تطوان فكأنما شربوا نغبة من دمي . وكأن كل بلد قوي من بلادي ساعدي مفتولا ، وكل شعب خامل فيها زندي مشلولا . بل ماأعد ذاتي الا خليـــة في جسد أمتي .

وللوطن العربي عند فرحات صورة طريفة، انه نسر عظيم جناحاه مصر والعراق وصدره الشام . اذا مس عدو طرفاً من ريشه انقلبت بقية ريشه سيوفاً بواتر تدافع عنه :

أرى موطناً كالنسر يبدو خياله على الارض ثبتاً وهو في الغيب طائرُ
جناحاه مصر والعراق وصـدره الشآم ومجمـوع الجزيرة سائر
اذا مست الاعداء أطراف ريشه غـدا ريشه وهو القنا والبواتر
وتلك الخـوافي اللينـات فانها على كل من يعدو عليـه خناجر
يـذود جناحاه عن الجسم كله وتفـدي جناحيه الضلوع الحرائر

وفي قصيدة اخرى يصبح وطنه الواحد بيتاً يقوم على أعمـدة هي الاقطار العربية المختلفة ، ان كل عمود لايستطيع لضعفه الوقوف لوحده ، ولكنه قوي في اساس البيت العظيم :

إنا ليجمعنا على رغم العدى وذيولهم وطن كريم ماجدُ
ماالشام مالبنان ماحوران ما عمان ماالقدس الشريف الخالد؟
هذي الدويلات المبعثرة القوى عمدٌ يقوم بهن بيت واحد

- ٧ -

وكان الشعراء يتعلقون بالوحدة تعلقاً كبيراً ويعتبرونها حلمهم الأكبر . لذلك يتمنى القروي عيداً يجمع العرب في دولة واحدة ، وسيروا من بعد بجثمانه على دين برهم ، وسلام على الكفر مع الوحدة :

هبوني عيداً يجمع العرب وحدة وسـيروا بجثماني على دين برهمِ
سلام على كفر يوحـد بيننا وأهـلاً وسهلاً بعـده بجهنم

أما الشاعر فرحات فالوحدة العظيمة عنده هي وحـدة الشعراء الذين يرفرف شعرهم فوق الوطن العربي متحدياً الحدود والسدود لأنه مودة وحب :

وترى بعين الحب وهي كريمة وطن العروبة في الجمال سواءَ
فجبال لبنان ككل جباله ان اختلفن مناظراً وهواء
والنيل كالعاصي ودجلة كالصفا للواردين عـذوبة وصفاء

ودع السياسيين يختلفون في ... هـذا وذاك واتبع الشعراء
فهم الذين يرفوفون بشعرهم ... فوق الحدود مـــودة واخاء
ويحلقون فـــلا يرون قطيعة ... ود التعصب لو تكون عداء

ومولد أبي الفضل الوليد في لبنان ولكنه عربي ، انه أشبه شيء بالسحب الـــتي لا تبالي بحدود البشر المصطنعة . قومه هم العرب الذين يعيش معهم بؤسهم ونعماهم :

نعم وطني لبنان لكن مولدي ... بـــه عربي كالولي من السحب
فـــلا قوم الا العرب لي وأنا لهم ... على البؤس والنعماء والسلم والحرب
فأعظم وأكرم باتحـــاد ونسبة ... الى دولة تمتد في الشرق والغرب.

—٨—

وكان شعراء المهجر يتصورون الوطن العربي وحدة قائمة عـــلى الرغم من تقسيمات الساسة وألاعيب المستعمرين . ان جورج عساف يتمنى شربة ماء من أي نهر عربي ، فحدود وطنه لغة الضاد مهما تباعدت ، وهو لا يرضاه الا موحداً :

خليلي إما عدتمـــا فتزودا ... حنين فتىً غير الجوى لم يزود
ولا تفرقا مابـــين نيل ودجلة ... فاني الى ينبوب أيها الصدي
لنـــا وطن للضاد مهما تباعدت ... نواحيه لا نرضاه غير موحـد

ووطن نسيب عريضة يمتـــد من المحيط الى الخليج ، من العراق الى المغرب وسحقاً للحدود الجائرة التي أقامها المستعمر :

لا حد عندي اذا جاءت حدودهم ... الشام شامي ومصر أخت لبناني
وفي فلسطين أقدامي ، وعاطفتي ... في نجد ، والقبلة السمحاء إيماني
لي العروبة أمشي في مخارفها (١) ... من العراق الى مابعد وهران
أزهو بثوب فخار من مناسجها ... حتى تقرب أيدي البين أكفاني

وفرحات في قصيدة له في رثاء سعـــد زغلول ، يهوى البلاد العربية كلها ، وان تكن شامية كلها :

---

(١) المخارف : ج مخرفة السكة بين النخيل .

إنا وإن تكن الشآم ديارنا　　فقلوبنا للعُرب بالاجمال
نهوى العراق وروافديه وما على　　أرض الجزيرة من حصى ورمال
واذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا　　نروى بسائغ نيلها السلسال

— ٩ —

هذه الصفحات تخلصنا الى صفات هذا الشعر الذي تغنى بالوحدة العربية ودعا اليها، لايعترف الا بوطن عربي واحد قسمه المستعمرون واقاموا فيه حدوداً وسدوداً ليضعفوه .

انه شعر كثير يمتاز بصفاء عجيب من الناحية القومية . لقد خلص من شوائب الطائفية والاقليمية والشعوبية ، وانطلق عربياً يضم في الوطن كل من تكلم بالضاد لغة الاجداد .

ان هذا الشعر تراث قيم من وجهة النظر القومية ، مثلما هو ثمين من الناحية الادبية . يزيد في قيمته أنه أنشد في المهجر ، بعيداً عن الوطن ، ومن قبل شعراء مسيحيين تعلم بعضهم في مدارس الارساليات الاجنبية التي كانت تشحنهم طائفية وحقداً وشعوبية ، وغادر بعضهم الآخر الوطن الرازح تحت أثقال الجهل والتخلف والتفرقة شبه أمي .

لكن البعد عن الوطن وسموم الاجنبي والجهل لم تترك في نفوس هؤلاء الرواد أثراً سيئاً ، بل على العكس من ذلك ، زادتهم صفاء وتعلقاً بوطنهم ، ونبهتهم الى أنهم عرب ، والى ان الوحدة العربية حلم عظيم سيحمل معه حين يتحقق الخير ، وينفي عن الوطن العربي شروراً كثيرة .

انها صفحة نيرة من تاريخ امتنا في العصر الحديث .

الكتاب والموضوعات

- طبيعة اليهود
تصورها مسرحية (اليودي المالطي)
نصر عبد الرحمن

- « اللامعقول !...
مذهب المرضى واليائسين »
مظهر شاغوري

الفنون

طبيعة اليهود

كما تصورها مسرحية «اليهودي المالطي»

بقلم نصر عبد الرحمن

لقد حرصت على نقل مسرحية (اليهودي المالطي) الى العربية وعلى تحليلها في هذه المقالة بعد الذي وجدته فيها من فهم كاتبها العميق للنفسية اليهودية اللئيمة ودوافعها الشريرة. والحقيقة أن كثيرين من كتاب الانكليز وشعرائهم وصفوا الفساد اليهودي في رواياتهم وقصائدهم ومنهم (شوسر) و (شكسبير) و (ديكنز) وكاتب مسرحية (اليهودي المـــالطي) ، (كرستوفر مارلو) .

ان هذه الترجمة عاجزة عن اعطاء مثل سطور مارلو العارمة بالقوة ومقاطعه الارجوانية ، ولكنني أقنع بأن أقدم صورة لرصانة تفكيره الفلسفي السياسي ، ولكمال حذقه المسرحي ، وعمق فهمه للروح اليهودية الفاسدة العريضة .

ان اهم مايلفت الاهتمام في مسرحية(اليهودي المالطي) (١) من وجهة نظر القارىء العربي ، التصاق موضوع المسرحية بتفكيرنا عن اليهود ، ومطابقته لما في عقولنا من احكام راسخة عليهم . ان الحرص على المال ، وشهوة تكثيره ، وحرمان الاخرين منه يدفعان اليهودي (براباس) الى القيام بأعمال جهنمية والى الانتقام من البشرية جمعاء ، فهو يمن في قتل الابرياء بالجملة والفرق ، ويتمادى في الفتك حتى يلاقي المصير الأسود الذي كان ينتظره حيث يموت سلقا في قدر اخفاه تحت سطح الارض .

ان الدروس التي نستخلصها من قصة المسرحية كثيرة ، اولها ان اليهود الغاصبين في بلادنا الحبيبة المحتلة سوف يتصرفون اذا طالت اقامتهم فيها لاسمح الله بما يتلاءم مع جبلتهم الخبيثة، وسوف يحيكون الدسائس والمكائد مثل الذي حاك (برباس) في المسرحية ، ولكن على مقياس ضخم ، وعلى نطاق دولي كبير ، وسوف ينثرون نفس الشرور التي نشرها (برباس) والتي تعتبر جزءاً مكملا لكيان اليهود النفسي وتفكيرهم شبه البشري .

والاستنتاج الثاني من دراسة المسرحية هو ان اليهود المعتدين يجب ان يلاقوا نفس المصير الاسود الذي لاقاه (برباس) مع اختلاف العامل المسبب في الحالتين ففي كل مسرحية تمثيلية من هذا النوع ، يأخذ القدر على عاتقه ايقاع القصاص المناسب بالوغد المذنب ، جزاء ما اقترفه من جرائم في غضون المسرحية ، وهذا مايسمى بالعدالة الشعرية . اما في عالمنا الواقعي فيجب الانتظر من القدر ان يقوم بهذه المهمة . فيجب ان يتم القصاص على ايدينا نحن العرب الذين كنا ضحية لعدوانهم على وطننا ، يجب ان نقذف بهم في مرجل الحرب الطاحنة ، ونذيقهم الموت الزؤام في هذا المرجل المتلىء بدم الضحايا والشهداء والذي تزفر من تحته نيران حقدنا عليهم ، وتعطشنا للثأر منهم .

والاستنتاج الثالث الذي يخرج به القارىء من المسرحية هو تناقض سياسة الدول الاستعمارية الغربية مع حقيقة تفكير الناس فيما عن اليهود ، فالغربيون خبروا الطبيعة اليهودية الخبيثة ، وخراطيمها الماصة لدماء الشعوب عبر قرون طويلة وما تأييد الساسة الغربيين للصهيونية ودعايتهم لها ، الا الاعيب سياسة صادرة عن شر القصد وعن الطمع في تبادل المعرفة من اجل اخضاع الشرق العربي كله للاستعمار الاقتصادي الغربي . وما من امة افسحت لليهود مجالا للعيش بين ابنائها وسمحت لهم بأن يندسوا في اسواقها وبين فروع كيانها الا خاطبها التاريخ فيما بعد قائلا : « ماذا دهاكم الم تكونوا تعلمون اي افعى قبلتم بأن تندس في سريركم ؟ واي قوم،

(١) صدرت عن وزارة الثقافة والارشاد القومي مترجمة بقلم كاتب المقال .

منكرين مستعدين للتآمر مع كل دولة لهـا مصلحة في اضعافـكم ، وكل فئة طامعة في خيرات بلادكم ؟ »

وكان الملك ادوارد الاول قد طرد اليهود من انكلترا تحت ضغط الشعب الانكليزي الذي عرفهم على حقيقتهم ، قطعا من الاسفنج تمتص اموال الشعب لتلقي ببعضها في ايدي الملوك ، وعلقاً يمتص الدم والحيوية من جسم الأمة الاقتصادي ، وظل اليهود مبعدين عن انكلترا حتى القرن السابع عشر حينما سمح لهم (كرمويل) بالعودة .

ان كل شاب عربي ، وكل طفل عربي يجب ان يفتح عينيه على خطر اليهود ويذكر دائما ان الصهيونية روح شريرة . فما من شعب يستطيع ان يقبل اليهود على ارضه من غير ان تقضم ارزاقه وخيرات بلاده فريسة لهم ، مهما كانت درجة ضعفهم وقلة شأنهم في بادىء الامر ، ذلك لأن اليهودي كما يصفـه (براباس) في هذه المسرحية يتقن فن التذلل كما تتقنه الـكلاب ، ويمارس طأطأة الرأس بمهانة ، أملا في استنزاف الاموال وافقار اهل البلاد الحقيقيين ، وعندما يتم له ذلك يتجبر ويطغى دون خوف ، لانه يصبح له التسلط على ارزاق الناس ولقمة عيشهم ، ويظهرعندئذ من لؤم طبيعته ، وتحجر قلبه ما يطيب له ان يظهر .

ان شهوة المال وجمعه بـكل وسيلة دنيئة هي حجر الرحى في الخلق اليهودي الذميم ولذلك ترى ان الرواية تبدأ بمنظر (ميكافيل) وهو يرفع الستار عن (براباس) الذي يجلس في دار امواله يعد ويحصي ، ويجد في المال وحده الغبطة والسعادة ، ويقيم اقل جواهره ثمناً بفدية ملك . وان الشيء الذي يسيل له لعابه هو امكان استخدامه المـال ـ كما يستخدمه الرأسماليون اليوم ـ في تخطيط الامبراطوريات ، وفي رفع الملوك الى العروش بالقروض والرشوات ، فالمال عنده وسيلة لقلب انظمة العالم القائمة ، واطالة امد الانظمة الفاسدة ، وقد وصف براباس ثروته بأنهـا « ثروة لاتحد تسعها غرفة صغيرة » وقدوصف بعض النقاد هذا السطر بأنه شعر الطمع في المال عن جدارة.

وبعد هذا يشق الثعلب اليهودي طريقه في عالم المال فيحيل مؤامرة ويتبعها على مستويات مختلفة اعلاها المستوى القومي والطائفي المتمثل في علاقة (برابس) الذي يمثـل اليهودية بالمسيحيين وبالاتراك . وقد هدف (كرستوفر مارلو) الى جعل (براباس) رمزاللیهودیةالعالمية ، وكان مرابوها حتى منذ القرن السادس عشر قد انشأوا اول بورصات في اوربا ، وبذلك اعطوا زخما للنظام الرأسمالي الذي طغى على كثير من المبادىء المسيحية ، واولها منع المراباة . وكانت قد نشأت اسطورة في اوروبا عن كبار الصهيونيين تصورهم جالسين في مخازن كنوزهم يديرون منهـا دفة اوربا بكاملها . ويتضح لنا تمثيل (براباس) لهذا النظام الرأسمالي الذي ساعد اليهود على نشره من قوله : « ومن الذي يكرم اليوم ان لم يكرم من اجل ثروته » منكرا بذلك وجود اى مقياس للتكريم سوى مقياس المال .

واليهودي لايضيره ولايصعب عليه ان يتخذ من عرضه أداة لاحكام حبك مؤامراته وللوصول الى اغراضه الدنيئة الهادفة الى الحاق العار والدمار بالبشرية .

(فبراباس) في رواية (مارلو) يدفع ابنته الى لعب شراك حب كاذب لكل من (لودوفيك) و (ماثياس) من أجل ان يقضي عليهما وينتقم من الحاكم ومن المسيحيين .

وقد كانت في وعي اوروبا في عهد (كرستوفر مارلو) ومن قبل ومن بعد ، صورة قوية التأثير ، صورة ابنة اليهودي التي يستخدمها ابوها أغوية يغري بها شابا مسيحيا بالدخول الى بيته ، حيث تفيض روحه مع فيضان دمه على سكين الاب اليهودي في البيت المعتم . وهذه الصورة عميقة الجذور في تاريخ اوروبا التي عانت من فتك اليهود اللؤماء بالاطفال والشباب بمثل هذه الطرق الشيطانية . والذي يقرأ القصيدة القصصية التي كتبها (شوسر) في اواخر القرن الرابع عشر (قصة رئيسة الدير) او الكتب التي كتبت عن مقتل (توماس بكيت) وغيره من القديسين على يد اليهود يقف على طرف من الشرور التي تحصدها البلاد التي يحل فيها اليهود . وكتب أخرى من هذا النوع مسرحية (تاجر البندقية) لـ (شكسبير) ورواية (أوليفر تويست) لـ (ديكنز) .

ان اليهود مدبرون بارعون للمؤامرات ، يحيكون المكائد بدقة لاتبارى ، فعدد الضحايا في رواية (اليهودي المالطي) كبير جدا ، ولكن الاهمية الكبرى تكمن في البراعة في تدبير الجرائم ، وفي الدهاء (المكيافيلي) في تنفيذها ، سواء ا كانت ضحية الجريمة اشخاصا قليلين ، كما هي الحال في قتل « ماثياس » و (لودفيك) وشنق الراهب (برناردين) او كانت جماعة كبيرة كما هي الحال في نسف الجيش التركي وفي دس السم للراهبات . ان تآمر (براباس) وكيده في هذه المسرحية مثال على التآمر اليهودي المعقد تعقيد نفسيتهم الملتوية المعوجة ، تلك النفسية التي تلتف دوافعها وتتعقد ، حتى لايظهر منها الا سطحها الذي يخفي تحته الشيء الكثير من اللؤم والحقد وان عقدتهم شبيهة بعقدة (جورديون) التي عجز الناس جميعاً عن فكها حتى جاء الاسكندر المكدوني وقطعها بضربة واحدة من سيفه . انهم يتآمرون ضد كل خير : فلقد تآمروا على انبياء الاديان السماوية : فاسم (براباس) في هذه الرواية لم يؤخذ مصادفة ، فقد اختاره (مارلو) لان له مدلولا تاريخيا ، فهو اسم قاطع الطريق الذي اخرجه الحاكم الروماني من السجن بدلا من المسيح عليه السلام ، وذلك بايعاز من اليهود الذين ارادوا ان يحولوا دون اخراج السيد المسيح عندما عرض (الحاكم) اخراج سجين واحد ، وفضلوا اخراج مجرم لكي يقضوا على دعوة منقذ الانسانية .

إن فئة اليهود مستعدة للتآمر مع كل الفئات ، ولكنها في واقع الحال تقوم بالتآمر على كل الفئات ، وماتقلب (براباس) اليهودي في هذه الرواية من المسيحيين الى الاتراك ثم من صف الاتراك الى المسيحيين الا شاهد على تقلب اليهود عامة و نكثهم بالعهود . وفي النهاية لابد لهم من

الانزلاق في مهاوي الفناء والذلة نتيجة هذا التآمر العريق العميق . وان تخيل امكانية اصلاح فسادهم او معايشتهم ضرب من الجنون فليس لداء تقوسهم المريضة دواء الادواء السيف البتار ، ولهذا نجد ان أكبر خطيئة ارتكبها (فرنيزي) في هذه المسرحية هي الابقاء على (برابا س)في مالطة بعد ان جازاه على اختلاساته بمصادرة امواله ، فهو في الابقاء عليه لم يقدر مافي النفس اليهودية من دوافع الانتقام والتخريب .

ان (برابا س) لايقف عند حد من حدود المكيدة والغدر ، وهو يعتقد ان الكيد للمسيحيين والغدر بهم حلال ، ويبرر ذلك بأنه لاينبغي حفظ العهد مع الكفار وان كل من لم يكن يهوديا فهو كافر : انه يتحالف مع الاتراك ضد فرسان مالطه المسيحيين ، ولكنه يغدر بحلفائه الجدد لارضاء حاكم مالطه وفرسانه،فيسقط نتيجة لهذه اللعبة المزدوجة ، انه يؤكـــد ان الرجل التعس هو وحده الذي يكون ذا ضمير ، فيبرهن بذلك ان اليهود ضد لكل اخلاص وعدو لكل خير أو وجدان .

انه يكذب ويتصنع ويقول : « يجب ان اتصنع » فهو منافق مرائي ، ولم يقتصـــر في تصنعه وكذبه على تخفيه في زي موسيقار فرنسي ، فهو دائما يكذب وينافق ويمثل ، فهو ينافق مثلا الراهبين باعلانه لهما استعداده للتحول الى المسيحية حتى يوقعهما في الفخ ، فهو يريد من هـذا ان يشغل نظاما دينيا ضد نظام آخر ، فيقتل راهبا ويعلق جريرته في عنق الراهب الآخر . ان هذا يثبت كيف انهم في كل فعالية من فعالياتهم قد تبدو للنظارة العابرة نظيفة انما يلعبون لعبة سداها ولحمتها الكذب والرياء .

ليس من الصعب على من يدقق في تاريخ الحركات الاجتماعية والبشرية ان يرى كيف أن اليهود يتزعمون الحركات الهدامة ويتلقفون كثيرا من الانقلابات الاجتماعية لكي يحيدوا بها عن طريقها السوي . انهم يعرفون بطبيعتهم ان الانقلابات الاجتماعية والسياسية فرصتهم للاصطياد في الماء العكر ، وللتلاعب في مقدرات الجماهير التي يكتب لها سوء طالعها ان تقع في براثن منظماتهم التي يديرونها من وراء الستار . ويبدو لنا هذا جليا من تشجيع اليهود للحركات الاستعمارية ثم للحركة الماركسية ، ومن تأييدهم للنظام الملكي في البلدان التي تئن من مصائب الحكم الملكي . وهم يحرصون في كل هذا على تقوية الظلم ، وعلى نفث السموم في جسم المنظمات الهادفة الى رفع شأن الانسان .

وان مالديهم من كذب ونفاق يسهل عليهم اللعب على الحبلين ، وسرعة التحول من فئة الى فئة اخرى تناوئها ، وتصدم القضاء على الفئتين حتى يخلو لهم الجو ، لأن هدفهم النهائي ابادة البشرية غير الصهيونية ، فيرتوي عطش مركب نقصهم عندما يتوهمون امكانية تحقيق صعودهم على تلة من جماجم البشرية ، وغاية اليهود من التقلب بين الخصمين اذكاء روح الخصام والحرب بينهما ،

لكي يستفيدوا هم من حربها . انهم يرسمون هذه السياسة الجهنمية التمزيقية لآماد بعيدة ولآماد قصيرة : فقبل نصف قرن كانوا دعاة للشيوعية الى ان قويت الحركة الشيوعية في العالم ، فرأيناهم في السنوات العشرين الاخيرة يتحولون الى ممالأة النظام الرأسمالي وتقويتــه ، وقصدهم زيادة مقــادير المواد المتفجرة في كل من البرميلين حتى يكون الانفجار يوم التصادم هائلا مدمراً للعالم كله . ومن ذلك مايدفعهم العالم به في كل زمان ومكان من تجسس دولي هــدام ، تقوم به منظماتهم الدينية والسياسية لحساب الدول الاخرى ، ومن اجل اضرام نار العــداء بين الامم والشعوب. ويعطينا (براباس) امثلة من التخريب والنقمة على الانسانية فيما يسر به لاثاموره عن طريقته في الحياة ؛ وكيف انه ابتدأ حياته طبيباً (ميكافيليا) في ايطاليا يضــع السم لمرضاه لأنهم من المسيحيين ؛ ثم كيف أنه اصبح مهندساً حربياً ونفذ ماأملاه عليه الواجب ، كما تصورته نفسه الخبيثة ، وذلك بأنه كان يدمر العدو والصديق في حرب الامبراطورية ، ثم كيف وصل الى قمة تاريخه المفترس بالاستغال مرابياً يقرض المــال بفائدة قدرها مائة في المئة . وقد اثبت صحة نظرة الكاتب المسرحي (مارلو) في اليهود حــدث اهتزت له انكلترا في السنة التي تلت موت (مارلو) ففي تلك السنة اكتشفت مؤامرة ضد حياة الملكة (اليصابات) وكان الطبيب اليهودي (لوبز) احدمدبريها ، فحكم عليه بالاعدام .

ومن قبيل ترويجهم لكل نظام فاسد مايقوله الضابط الموكل ببيع الرقيق في المسرحية ، مشيراً الى ان براباس كان يشتري العبيد بالمئات ، وهذا يبين كيف ان تجار اليهود اكبر عامل على ترويج تجارة الرقيق . وفي عصرنا الحاضر عندما وجدوا ان تجارة الرقيق قد فات زمنها عمدوا الى تجارة الرقيق الابيض ، ونشر الفحش والفجور في ارجاء المعمورة وترويج سوق الدعارة عن طريق هذه التجارة . وان معرفة (بيليا بورزا) و (بلاميرا) القوية (لبراباس) تشير الى انه من المحتمل انه هو الذي انشأهما في الوقت الذي سبق بدء حوادث المسرحية .

ان العلاقات الاجتماعية هي بالنسبة لهم عملية تجارية ، والمنفعة الخاصة هي الدافع الرئيسي لتصرفاتهم ، فعندما ينسف (براباس) جيشاً برمته في الدير ويتخذ من التدابير مايكفل لاسقاط القائد التركي وحاشيته في حفرة سحيقة فيها مرجل ماء غال ، يكون قد قبض ثمن ذلك العمل مبلغ مائة الف جنيه . وفي مقابل المال يتنازل عن وظيفة حاكم مالطه التي كافأه بها الاتراك على خيانته .

ان (براباس) مولع بمقارنة نفسه مع الحيوانات المفترسة والسامة على اختلاف اجناسها ، فهو يقول على انفراد في عبارة نموذجية (الآن سأثبت ان مافي طبيعتي من الأفعى اكثر بكثير مما في طبيعتي من الحمامة ، وأنني وغد اكثر مما انا عليه من النباء) .

ان اليهودي يتذلل كالكلاب ويحبو كالحشرات ، حينما لا تساعده ظروفه على التنمر وأما عندما يتحكم في خصمه أو يأنس في نفسه القوة والقدرة على الفتك به ، فانه يلؤم لؤماً لا يمكن ان يتصوره انسان ؛ وانشنق (براباس) الراهب (برناردين) على الصورة البشعة التي نراها في المسرحية لهو مثال صغير مما تجود به النفوس اليهودية على البشرية من حقـــد أسود . ان اليهودي في ظلمه وتجاوزه في الطغيان لا أخلاقي ، لا يعترف بالقيم الامن اجل قلبها ، أبي من أجـــل ان يقول (أيها الشر كن انت خيري) ؛ وهو أناني يعتبر انه من طينة أصفى من طينة الآخرين . ان (براباس) في الرواية تحت حماية (مكيافيل) الذي يأتي خصيصاً لكي يوصي النظارة (ببراباس) في المقدمة ، ولكي يعلن مسبقاً بعض أساليب (براباس) الخلقية الفاسدة : « ان الدين دمية للأولاد فقط ، واعتقد ان لا خطيئة سوى خطيئة الجهل » .

انهم لادين لهم ، وانما يتخذون الدين وسيلة لتمكين مؤامراتهم ، وستاراً لاخفـــاء دسائسهم ونواياهم الشريرة ، والحقيقة ان هذا التصنع لايقتصر على نشاطهم الديني وانما يشمل كل علاقاتهم الانسانية ، فكل ارتباطاتهم البشرية على يختفي تحته مما زعافاً ، وستار ظاهره الرحمة وباطنه النقمة والعذاب لن يأمن جانبهم ويتبين انهم منافقون مزورون لكل حركة وكل سكنة .

ان تفكيرهم معوج كنفوسهم ، ولذلك فان منطقهم ملتو ، ويتضح هـــذا من محادثة (براباس) للحاكم ورجاله ، فهو يتناسى جريمة التهرب من دفع الضرائب سنوات كثيرة ، واختلاس الاموال العامة ويعترض على مصادرة الحاكم لنصف ماله .

يصل (براباس) في انتقامه الى حد التطرف ، ويتجاوز كل حدود الحقد ويتمادى في غشه وغدره ، ولكن كل مؤامرة يدبرها يبقى فيها طرف سائب ، وكل جريمة يرتكبها تحتوي على نقمة قادمة ، وفي نهاية المطاف يصبح الغادر مغدوراً . اذ يغدر هو بنفسه . وتلاحقه العدالة بشكل مرجل ماء غال يسقط فيه هو بدلا من (كاليماث) ويعاني في القدر حرارة النار التي أضرمها وينسلق في عصارة خيانته وحقده . انه يعطي المثل الفاضح عـــلى الميكيافيلي الخطير واليهودي الحقير عندما يناجي نفسه قائلا عن المدنين والمسيحيين « وهكذا سأحيا معهما كليهما، بدون ان احب أياً منهما وسأجني الربح من تدبير المؤامرات » . انه يعبر بذلك عن كره اليهود الشديد للبشرية . وهو يمثل اليهود في ناحية اخرى من نواحي سلوكهم يمثلهم في انزوائهم وانعزاليتهم ، وكرههم للاندماج مع غيرهم ، انه اجنبي بين اهل مالطة ، وهو يكرههم كرهاً شديداً ، ولذلك فان أحداً لا يحبه . انه يقول « مادمت أنا اعيش ، فليهلك العالم كله » . انه

في المسرحية يتنحى عن اليهود الاخرين ، ويتخلى حتى عن ابنتـه . ولذلك فان شعار اليهود الابدي « لاثقة » فالمجتمع الذي يدنسه اليهود بوجودهم فيه ، مجتمع نفعي لاترابط فيه ، لأن اليهود يسلكون سلوك الذئاب مع بعضهم ومع غيرهم .

وهم يهتمون كثيراً بامتلاك قلوب الحكام ، أو بامتلاك اختامهم على الاقل ، لأن ذلك ضمان لنجاح عملية امتصاصهم لدماء الشعوب ، حيث يجدون في الحكام حامياً لهم من نقمة ضحايا جشعهم ، وقد كانت هذه حال المرابين اليهود مع غالبية ملوك اوروبا في القرون الوسطى وفيما بعد .



اللامعقول

مذهب المرضى واليائسين (١)

بقلم مظهر شاغوري

شاهدت على المسرح التجريبي الذي اقيم بالقاهرة باسم «مسرح الجيب» مسرحية «نهاية اللعبة» للكاتب الايرلندي صامويل بيكيت... كما شاهدت مسرحية «الكراسي» للكاتب الروماني «يوجين يونسكو» التي قدمت على مسرح الجمهورية في القاهرة بعد حادثة احتراق مسرح الجيب المذكور بما لايزيد عن شهر واحد...

وهاتان المسرحيتان تخضعان لمذهب معاصر في عالم المسرح والادب دعاه البعض باسم «اللامعقول» كما اطلق عليه آخرون اسم مسرح «العبث»...

(١) مصادر البحث سلسلة محاضرات القاها الدكتور محمد مندور في المعهد العالي للفنون المسرحية في القاهرة.

ومهما كان الأمر فان هـذا المذهب الذي تسرب بدوره الى بلدنا وتحدثت عنه صحفنا وشاهدنا بعضاً من مسرحياته على شاشات اجهزة التلفزيون في صالات بيوتنا ـ يعتبر بلاشك من احدث الثورات الادبية واشدها عنفاً وتمرداً على الحياة من ناحية وعلى الفن باعتباره وسيلة للتعبير عن هذه الحياة من ناحية اخرى .....

واحب قبل أن اتحدث عن هذا المذهب المعاصر أن استعرض بعض المذاهب الأخرى ، التي شهدها المسرح في العصر الحديث ... فقد مر المسرح الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر على وجه التحديد بثورات وانقلابات عديدة فظهرت الواقعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر تدعو الادباء والفنانين لدراسة الانسان في واقعه دراسة علمية متأثرة بروح العصر ومن ثم احترام هذا الواقع وعدم تزييفه والبعد عن التحليق في اجواء الخيالات التي كان يلتجيء اليها ادباء الرومانسيه . تلك الخيالات التي كانوا يجدون فيها خير عزاء ينسيهم واقعهم المر الذي خلفوه وراءهم هاربين !!.. وتركزت الواقعية في مسرحيات «هنريك ابسن» النرويجي «وهنري بيك» الفرنسي و«تشيكوف» الروسي الذي يعتبر خالق مدرسة لم يسبقه اليها أحد من قبل في تاريخ المسرح ...

وفي النصف الثـاني من القرن التاسع عشر ظهر المذهب الطبيعي الذي يمكننا اعتباره تطرفاً في الواقعية واستمراراً لهـــا وتركزت الطبيعية في قصص (اميل زولا) في فرنسا وفي مسرحيات (جوجول) في روسيا . وبهـذا كتب على الرومانسية الزوال والتراجع وأصبحت أحلاماً جميلة للاطفال ولم يعد لها مكان في عصر العلم والمخترعات.... وفي القرن العشرين ظهرت مذاهب جديدة مثل السريالية والوجودية . والمذهب السريالي او مذهب « مافوق الواقع » هو ذلك المذهب الذي ظهر فيما بين الحربين العالميتين وقد نادى السرياليون بافلاس العقل والمنطق الانسانيين

وقالوا ان عجز العقل الانساني عن الوصول الى حل لمنع الحرب العالمية الاولى التي جرت معها الويلات على بني البشر ـ هو الدليل على أن الأمر والنهي في الانسان انما يعود الى ذلك المجهود الغامض الذي نسميه باسم(العقل الباطني) أواللاوعي. وبرز من مؤلفي السريالية الكاتب الشهير « جان كوكتو » في فرانسة وهومؤلف مسرحية « عروسا برج إيفل » التي نهج فيهانهجاً سريالياً .

أما الوجودية فقد ارتفع صوتها في هذا القرن منادية بحرية الانسان لنفس السبب حيث انه لا القوانين الاجتماعية والاخلاقية ولا التقاليدوالاعراف الاجتماعية ولا الاديان السماوية استطاعت أن توقف تلك المجزرة التي افنت الملايين من بني البشر ... اذن ليكن الفرد الانساني هو قدر نفسه بعد هذا الافلاس العام الشامل ولتكن له حريته في اختيار مصيره وليكن هو وحده المسئول عن هذا المصير .. فالانسان هو الحرية كما يقول الوجوديون !...

تلك هي ابرز الثورات التي مر بها تاريخ الادب والادب المسرحي بصورة خاصة في العصر الحديث ... الثورات التي حدثت بسبب ظروف الحياة المتطورة التي مرت بها المجتمعات والشعوب الانسانية ... وبالتالي التغير الذي اصاب وظيفة الفن المسرحي باعتباره اكثر الفنون الاخرى اصالة وقربا للتعبير عن هذه الحياة واعادتها من جديد وتمثيلها في قالب فني على خشبة المسرح ... ونحن ليس مجالنا الخوض في التفاصيل عن المذاهب والثورات التي مر بها تاريخ الادب المسرحي وانما كل مايهمنا الوصول اليه من هذا الاستعراض السريع لتاريخ المسرح الحديث هو أن اكثر الثورات الادبية والفنية انما كانت تهدف الى الاصلاح والى تجديد بناء الحياة ... ونحن نجد ايضاً أن معظم المذاهب التي مررنا بها كانت تهدم لتبني ... فالواقعية مثلا قد دحرت الرومانسية التي كانت تضفي على الحياة ثوباً من

الزيف وذلك للقول بأن معدن حياتنا وجوهرها هــو واقعنا اليومي . وقال الواقعيون لنصور الانسان اذن كما هو في الحقيقة ... لنصوره في جوعه وحرمانه وكما هو عليه في بيئته وظروفه الاجتماعية ... ولنخلع على تلك الصورة ثوباً من الحقيقة والموضوعية . والى الوراء انت يااقاصيص الحب البراقة والتضحيات الكاذبة لأنك لست من حياتنا الحقيقة في شيء !.. وكذلك السرياليــة فقد قامت بعد الحرب العالمية الاولى ، تهدف الى انقاذ الانسانية من شرور الحرب وويلاتها على نحو ماجاء على لسان زعيمها اندريه بريتون يقول :

« قامت الحركة السريالية على فكرة تبغيض الحروب وتثبيط همم الرجال عن القيام بها ان هم دفع بهم المجتمع يوماً الى خوض غمارها من جديد »

وبالمثل نادى الوجوديون حين خرجوا بعد تجربة الحرب المدمرة يكفرون بالمجتمع وما فيه من مبادىء ومعايير اخلاقية . وبما يمج به من اديان سماوية ويعطون للفرد حريته ويطلقون له عنانه ليتولى امر نفسه بنفسه !.. قلنا ان اصحاب مثــل هذه الثورات التي مررنا بها قد حطموا ليبنوا . وسعوا لتغيير بعض القيم الزائفة في الحياة والمجتمع ليقيموا مكانها اسساً أخرى ، ومعايير جديدة ولكن ماذا فعــل اصحاب المذاهب المعاصرة .. أو بالأصح ماذا بنى اصحاب فلسفـة اللامعقول بعد أن هدموا كل مافي الحياة من انظمــة وقيم ؟... وماذا حققوا بعد أن تذمروا وتشاءموا ؟...

لاشك أن فلسفة اللامعقول التي راجت في ايامنا هـذه وانتشرت بفضل مسرحيات بيكيت ويونسكو وأداموف قد وجدت اساساً بنتيجة الظروف التي تعانيها الانسانية في عصرنا الحاضر .. عصر الذرة والصواريخ التي تقف مهددة بفناء البشرية بين لحظة واخرى ، حيث اصبح الانسان لايعرف طعم الاستقرار

بعد أن فشلت اعمال ومساعي مجالس الامن والسلام . وصارت الحياة كلها في اعتبار فلاسفة اللامعقول فوضى ، ولاتجري على أي نظام بل أصبح كل شيء فيها يسير باتجاه معاكس . حتى ان الانسان الذي من طبيعته حب الحياة صار يسير باتجاه الموت ويخترع أحدث الوسائل الجهنمية التي تسهل له القضاء على البشرية ودمار الكون ! . .

وبسبب هذه المآسي كلها أعلن فلاسفة اللامعقول حربهم على الحياة واظهروا تبرمهم عليها وقالوا : لنوجه حملتنا اذن نحو هذه الحياة السخيفة .. اللامعقولة ولنثر على مافيها من منطق .. ثورة قريبة الى حد ما بثورة اجدادنا السرياليين الذين تنكروا لهذا المنطق واحلوا الممكن محل المستحيل وعبروا في أدبهم تعبيراً آلياً وتلقائياً تاركين العنان لسلطان عقلهم الباطن ذلك الملاك الملهم الذي هو في رأيهم عين الحق والصواب ! . .

هكذا كان موقف اصحاب مذهب اللامعقول الذين ثاروا على الحياة واعتبروا ان كل مايربط الانسان فيها لاقيمة له .. وانها تجري على نظام كاذب فالحياة كما صورها الكاتب المسرحي الايرلندي صامويل بيكيت في مسرحيته « نهاية اللعبة » أشبه بلعبة تافهة غير مفهومه ولا معنى لها .. وأن الموت هو نهاية تلك اللعبة السخيفة .. فتباً لك ايتها الحياة المتعبة ومرحبا بك أيها الموت العزيز ففيك وحدك الراحة والاستقرار . .

هذه هي الفكرة التي خرجنا بها من مسرحية « نهاية اللعبة » التي طلع علينا بها بيكيت والتي ترجمها وأخرجها على مسرح الجيب في القاهرة الاستاذ « سعد أردش » وكان يجري الحوار فيها بلامنطق ولا نظام مثله في ذلك مثل الحياة نفسها فكانت هذه المسرحية بدورها ثورة على الاصول التقليدية التي عهدناها في بناء المسرحية عدا عن كونها ثورة على الحياة في مضمونها كما بينا سابقاً . .

فمنذ ان يرفع الستار عن هذه المسرحية الى أن يسدل عليها ونحن بـــين اربع شخصيات رمز بهم المؤلف للبشرية كافة وهم : « هام » وهو شخص ضرير وكسيح كتب عليه أن يبقى جالساً على كرسي يتحرك على عجلات خشبية - وكلوف تابعه الذي شاء له القدر أن يبقى واقفاً لايستطيع الجلوس مدى الحياة - وكأنه مصاب بتصلب في الساقين . . ونيل وناج وهما والدا هام وقد قطعت ساق كل منهما بنتيجة حادثة لا نعلمها ووضع كل منهما في صندوق للزبالة وكل مايحدث في المسرحية بعد ذلك هو اننا نرى الزوج والزوجة يطلان برأسيهما بين الحين والآخر ويتحدثان عن ايام سعادتهما الغـابرة التي ولت والتي لم يعرفا طعمهـــا في حياتهما الحاضرة حتى انهما يعجزان عن تقبيل احدهما الآخر وحتى ان ضحكاتهما صار لهـا صوت كالعويل والنكت التي كانت تضحكهما من قبل لم تعد تستطيع الآن تحريك شفاههما بابسط الابتسامات !..

ناج - هل احكي لك حكاية الترزي ؟

نيل - لا .. لماذا ؟..

ناج - لـكي اضحك !

نيل - ولكنها ليست مضحكة . . ! ! !

ناج - لقد كانت مضحكة ! . . .

وكذلك نجد التابع كلوف الذي يهدد هام بتركه بين الحين والاخر ونسمع جواب هام له بانه لن يستطيع ذلك وهذا شبيه الى حد كبير بارتباط الانسان بالحياة ، على الرغم مما فيها من بؤس وشقاء .

وتنتهي المسرحية بهام الذي يتناول ضمادة يضعها على عينيه مودعاً الحيـاة وهو يقول : « مادامت هذه طريقتنا باللعب فلنلعب بهذه الطريقة ... انت أيتهـا الضمادة القذرة لم يبق غيرك » !...

ونحن لا يخفى علينا ما في هذه النظرة التي ينظر بها فلاسفة اللامعقول الى الحياة من تشاؤم وكآبة . كذلك لا نعلم مثلا سبباً للبؤس الذي يستولي على شخصيات نهاية اللعبة وكل ما اراد الكاتب أن يقوله لنا هو أن الحياة لا معنى لها وليس لها طعم وانها غير معقولة وبهذا يمكننا ان نعتبر اصحاب مذهب اللامعقول متشائمين لانهم نظروا الى الحياة من الجانب الاسود وعرضوا علينا صورة مجردة وغير مقنعة ليرمزوا بها الى لامعقولية تلك الحياة والى تفاهتها كما يمكننا اعتبارهم يائسين لانهم قد عجزوا عن اكتشاف العلل والاسباب ومن ثم الحلول التي من شأنها أن تقضي على تلك السخافة التي ارادوا أن يخلعوها على الحياة فأدباء الواقعية المتشائمة كانوا ينظرون الى الحياة على أنها شريرة وكانوا يرون ان الانسان على اخيه الانسان ذئب ضار ولهذا كانوا متشائمين الا أن هذا التشاؤم لم يصل بهم الى درجة اليأس على نحو ما حدث لاصحاب فلسفة اللامعقول المريضة اليائسة وانما نرى انا لواقعيين قد سعوا جاهدين لاستنباط الاسباب والعلل التي كانت تجعل الحياة في نظرهم حقيرة وفاسدة فوجدوا الاسباب في المجتمع نفسه وارجعوا فساد الحيـــاة الى الاوضاع الاجتماعية السيئة وكذلك الامر بالنسبة للطبيعيين حيث ردوا فساد الحياة والمجتمع وما فيها من شرور وآثام الى الفرد الانساني نفسه والى غرائز الانانيـــة وحب السيطرة فيه والى تكويناته الفيزيولوجية والعضوية بالاضافة الى عوامل الوراثة عند هذا الفرد وبهذا نجد أن مذهبي الواقعية والطبيعية كانا مذهبي تشاؤم من الحياة والمجتمع ولكن اصحابها قد جاهدوا وشخصوا المرض ثم راحوا يسعون لعلاجه . فالواقعية قد رأت ان في اصلاح الاوضاع الاجتماعية الفاسدة بناء للحياة السليمة وبالمثل رأى الطبيعيون أن في ترويض الانسان وتهذيب طبائعه الشريرة وغرائزة المخربة قضاء على الشرور التي تسيطر على الحياة والمجتمع اللذين يعيش فيها . وبهذا لم يكن اصحاب هذين المذهبين يائسين أما اصحاب اللامعقول فقد اظهروا تمردهم على الحياة وتشاؤمهم منها دون ان يحاولوا تعليل الاسباب وانما وقفوا مكتوفي الايدي منادين بحقارة هذه الحياة ولامعقوليتها لذلك كانوا من المرضى الواهمين والعجز اليائسين.

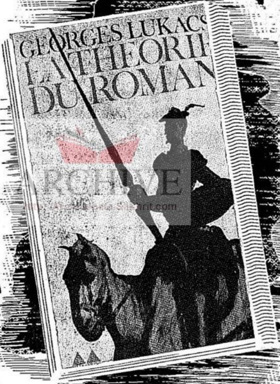
مع التيارات الفكرية

العربية والعالمية

مع التيارات الفكرية العربية والعالمية

كتاب الشهر

نظرية الرواية



عرض وتلخيص الدكتور فؤاد أيوب

يعتبر جورج لوكاس كبير الكتاب المجريين على الاطلاق ، ومن ابرز الوجوه في الحيـــاة الفكرية الاوروبية في النصف الأول من القرن العشرين .وقد ولد في مدينة بودابست في الثالث عشر من نيسان عام ١٨٨٥ ، ونال الدكتوراه في الفلسفة من جامعـــة بودابست عام ١٩٠٦ ،ثم انتقل الى برلين حيث واصل دراساته وأصدر كتابه الأول « النفس والأشكال » عام ١٩١١ .وقد كان لوكاس هيغليا بادىء الأمر ،ثم اصبح ماركسياً عاملا ، وشغل منصب وزير الثقافة في الحكومة المجرية الثورية عام ١٩١٩ ، واعتقل بعـــد هزيمة الثورة ، ثم اطلق سراحه وانتقل الى فيينا حيث شرع يصدر مجلة ثقافية سياسية ، وحيث نشر « نظرية الرواية »عام ١٩٢٠ ، وقد كان لكتابه هذا اثر بالغ في الحياة الفكرية للادباء الاوروبين ، كما انه يشكل أثراً اساسياً في تاريخ العلوم الانسانية. وكان توماس مان وماكس فيبر من كبار المعجبين به .ولقد اصدر عام ١٩٢٣ اهم كتبه «التاريخ والوجدان الطبقيان »، كما انه يعمل حالياً في اصدار بحث شامل عن «علم الجمال» . وهو عضو في اكاديمية العلوم المجريـــة ومراسل لاكاديمية العلوم في موسكو ، واستـاذ علم الجمال وفلسفة الثقافة في جامعة بودابست ، كما شغل منصب وزير الثقافة في حكومة ناجي ، وكان عضواً في البرلمان المجري . ولقد ترجم له كتاب واحد الى العربية : « الماركسية ام الوجودية » .

يقول نوفاليس : « تعني الفلسفة في صميمها الحنين ، تعني الطموح الى ان يكون المرء في كل مكان في بيته . » ولذا كانت الفلسفة دائماً ، بوصفها احد اشكال الحياة وبوصفها مقررة لشكل الابداع الفني ومضمونه ، عرضاً لفجوة بين الباطن والظاهر ، ودلالة على فارق اساسي بين العالم والأنا ، على تنافر بين النفس والفعل. وهذا هو السبب في افتقار الازمان السعيدة الى الفلسفة ، اذ تجهل النفس اذن ، حين تنطلق خلف المغامرات وتعيشها ، مافي المسعى من عذاب فعلي وما في الاكتشاف من خطر حقيقي. هي لاتطأ مزالق الخطر مطلقاً ، ولا تعرف بعد أنها قد تضل ، ولا تفكر ابدا في أن من واجبها البحث عن ذاتها .

وذلك هو عصر الملحمة . فليس انعدام الالم أو امان الوجود هما اللذان يضفيان على البشر والاحداث رداء البهجة والحزم - ان نصيب العبث والاسى في العالم لم يزده منذ أصول الازمان بل كل ماهنالك ان الاناشيد المعزية ترن بصورة أشد وضوحاً تارة واكثر كبتا تارة اخرى - بل بالحري هذه المطابقة التامة بين الافعال ومتطلبات النفس ، متطلبات العظمة وتحقيق الذات والكمال . ومادامت النفس لاتعرف في ذاتها أية هوة يمكن ان تجرها نحو السقوط أو تدفعها نحو القمم ، وما دامت الالوهية التي تسير العالم وتوزع هبات القدر المجهولة وغير العادلة تقف تلقاء الانسان عصية على فهمه لكنها معروفة وقريبة - مثل الأب تلقاء ولده الصغير - فان كل الافعال تشكل اذن رداء مناسبا للنفس .

عندئذ يصبح الوجود والقدر ، والمغامرة والانجاز ، والكينونة والجوهر ، مفاهيم متماثلة . ذلك ان السؤال الذي يؤدي الى ولادة الملحمة كجواب خلاق يطرح كما يلي : كيف يمكن أن تصير الحياة جوهرية ؟ واذا ظل هوميروس - الذي تشكل قصائده الملحمة الوحيدة بالمعنى الحقيقي للكلمة - نسيج وحده لايجارى ، فذلك لأنه وجد الجواب حتى قبل ان يمكن تطور الفكر التاريخي من صياغة السؤال .

هكذا يمكننا أن ندرك سر الهيلينية ، أن ندرك كما لها الذي يظل عصيا على تفكيرنا وبعدها الذي يجعل منها بالنسبة الينا واقعاً غريبا بصورة عضالة . ان الاغريقي لايعرف سوى الاجوبة من دون الاسئلة انه لايعرف سوى الحلول - الغامضة أحياناً - من دون الالغاز ، انه لايعرف سوى الاشكال ، من دون الفوضى ، انه يرسم الدائرة التامة للأشكال فيما وراء التناقض بحيث ان كل مالا يمكن أن يؤدي سوى الى الابتذال ، منذ ان اصبح التناقض امرا قائما ، يقوده هو الى الكمال .

فالملحمة تعبير عن المطابقة بين النفس والعالم ، بين الباطن والظاهر ، تعبير عن الكون حيث تتوفر الأجوبة حتى قبل صياغة الاسئلة ، حيث توجد مخاطر دون التهديد بالوقوع فيها ، حيث توجد ظلال لكن لتنعدم الدياجير ، حيث المغزى متضمن في كل مظهر من مظاهر الحياة ، وكل مايتطلبه الامر هو صياغته وليس اكتشافه . فالمعطى الحسي يشكل بالنسبة الى الشعر الملحمي المبدأ الاسمى ، بحيث لايمكن أن يكون هذا

الشعر الاتجريبياً ، مرتبطاً بالواقع بصورة وثيقة للغاية . وقد يكون في مقدوره في الاحايين أن يسرع نسق الحياة، ان يقود هذه الحقيقة الخفية ، او تلك الحقيقة التي تنفتح ، حتى هدف خيالي ثابت لها ، لكنه لن يتمكن قط — بفعل شكله— أن يتجاوز الحياة كما هي معطاة تاريخياً ، بكل عمقها واتساعها ، وبكل كمالها وتظاهرها الملموس ، وبكل ثرائها وترتيبها . ان كل محاولة ملحمية خيالية حقا وفعلا مقدرة للاخفـــاق ؛ اذ هي مضطرة اذن ، ذاتياً وموضوعياً ، للارتفاع فوق المحسوس والتسامي عليه ، يعني نحو ميدان الشعر الغنائي والمأساة ، الامر الذي لن يعود بأدنى نفع على الشعر الملحمي .

ولعله كان ثمة عصور — وبعض الاقاصيص تحتفظ بمقاطع عن تلك العوالم المتلاشية — حيث كانت الاشياء التي لا يمكن بلوغها اليوم الا بصورة خيالية حاضرة اذن بصورة مباشرة امام الرؤية، بحيث لم يضطر شعراء تلك العصور الى مغادرة مستوى الواقع المباشر كي يمثلوا الحقيقة المتسامية على اعتبارها الحقيقة الوحيدة القائمة . بل لعلهم لم يكونوا هم انفسهم أكــثر من مجرد رواة للأخبار . ومهما يكن من أمر ، فان المتسامي يمتزج بصورة وثيقة للغاية بالوجـود الارضي عند هوميروس ، وهو الشيء الذي يتفوق هــذا الشاعر فيه ويجعله نسيج وحده لا يجارى .

هذه الرابطة المتينة بالوجود التي تشكل الحد الحاسم بين الملحمة والمأساة تنجم بالضرورة عن كون الحياة وحدها غرض كل شعر ملحمي . ولما كانت عوالم الحياة تظل ثابتة في هذه الدنيا ، فان الاشكال التي تعــبر عنها لا يمكنها سوى تقبلها وتجسيدها وتأديتها ، بحيث يقتصر دورها على دور سقراط المولد للافكار . وان تستطيع هذه الاشكال قط ، بفعل أي سحر كان ، أن تدخل الى الحياة شيئاً هي مصدره ، شيئاً قد تفتقر هذه الحياة اليه .

أما المأساة فهي الشكل الادبي للجوهر الخالص ، الوحدة ولانكار كل حياة . انها ترد على السؤال التالي : كيف يمكن ان يصير الجوهر حياً ؟ حين يستيقظ الجوهر الخالص الى الحياة في القدر الذي يمنح الشكل وفي البطل الذي يجد ذاته اذ يخلق ذاته ، فان الحياة النقية البسيطة تتلاشى اذن أمام واقع الجوهر الذي يصبح الواقع الحقيقي الوحيد ، ويحتل البطل المأسوي مكان الانسان النابض بالحياة الذي غناه هوميروس .

فالمأساة تستهلك الحياة . صحيح انها تدفع أبطالها على خشبة المسرح فكأنهم بشر أحياء ، في ملء جمهور لا يمكن أن يكون هو الآخر الا حياً . لكن اولئك الابطال متباعدون ، متعادون بصورة مميتة ، لا تجمع بينهم اوامر القربى التي هي اوامر الحياة . ان ثمة ناراً تحرقهم ، ناراً تحيل رماداً كل ما هو انساني فيهم ، ترد الى العدم الحياة اللامجدية للانسان الذي هو انسان محض كي تجعله — في تلك البوتقــة اللاهبة التي هي مأساة النزاع التراتي بين الحيــاة والجوهر — لأيهما الاولية، للجوهر ام للحياة ؟ — بطلاً مجرداً عن كل شائبة . وهكذا تصبح حالة البطل جهــداً مستمراً يستهدف الارتفاع فوق ما هو انساني محض ، وهو الجهد الذي يشكل الشرط المسبق

لوجوده . لابد له أن ينبثق من الوحدة ، وأن يجتاز وحدة عضالة ، بين غيره من المتوحدين، نحو عزلته القصوى الفاجعة . وحين يكتشف البطل ذاته اخيراً ، ويروح يؤمن بنفسه ، فانه يجد نفسه وحيداً مع القدر ، بحيث يمتزج الاشراق الناجم عن اكتشافه لذاته بأسى الطريق التي اضطر لاجتيازها ، وخيبة أمله تلقاء هذه الحياة التي لاتمدل صورة مشوهة عما راوده الشعور به ووهبه القوة على التقدم من تلقاء نفسه في الدياجير. وهذا هو السبب في أن ابطال المأساة ينتهون الى الموت دائماً ، لأن وحدتهم ليست وحدة مأسوية فحسب، بل وحدة سيكولوجية ايضاً ، بوصفها التجربة التي عاشها الانسان الصائر بطلاً .

وباختصار ، فان المأساة تعبر عما يجب ان يكون ، لكن ما يجب ان يكون يقتل الحياة .

أما الرواية فهي الشكل الجدلي الملحمي ، شكل الوحدة في الجماعية ، شكل الرجاء الذي لامستقبل له ، شكل الوجود في الغياب . وان مايميزها هو عدم التطابق بين النفس والفعل ، والتضاد الجذري بين البطل والعالم ، بين العالم الباطن والمغامرة . وعبث كل جهد انساني .

ان مسرح الرواية هو الطبيعة الثانية ، طبيعة العلاقات الاجتماعية ، باعتبار ان الطبيعة المحيطة بنا هي الطبيعة الاولى . ولقد اصبحت تلك الطبيعة ، بأشكالها المتصلبة ومضمون قوانينها الجامدة ، مجموعة متحجرة من المعاني لم يعد في مكنتها بعد الان ايقاظ العالم الباطن الانسان الذي تعلمه تجربته ان العالم المحيطي الذي خلقه لنفسه ليس مأوى له ، بل سجنا بالاحرى .

ويولد بطل الرواية من هذا الانحراف في العالم الخارجي . ذلك ان البشر لايتمايزون نوعية مادام العالم متجانساً باطنياً . ولامراء ان هناك ابطالا وأوغادا ، ورجالا صالحين ورجالا مجرمين ، لكن اعظم الابطال لايتجاوز اشباهه العاديين بأكثر من قدر بسيط ، كما ان المجانين أنفسهم يصغون الى اقوال أحكم الحكماء . أما حين يصبح الفاصل بين البشر هوة لايمكن اجتيازها ، وحين تلوذ الآلهة بالصمت فلا يمكن للتضحية او الاشراق ان يحلا عقدة ألسنتها ، وحين ينفصل عالم الفعل عن البشر ويجعله استقلاله الذاتي أجوف فارغاً ، فان الانفصال المطلق بين العالم الباطن والمغامرة الخارجية يحدث اذن بصورة حاسمة ونهائية .

ولم يكن بطل الملحمة فرداً متميزاً قط ، اذ ليس غرض الملحمة المصير الشخصي لفرد من الناس ، بل مصير الجماعية برمتها . وهذا حق لأن نظام القيم المكتمل والمغلق الذي يحدد الكون الملحمي يخلق كلا عضوياً للغاية بحيث لايمكن لعنصر وحيد ان ينعزل فيه ويحتفظ بمنفواته في الوقت نفسه ، ثم يكتشف نفسه كعالم باطن مستقل وشخصية مستقلة . فالجماعية كل محسوس ، عضوي ، وهي بالتالي غنية بالمعاني بحد ذاتها . ولذا كانت كتلة المغامرات التي تشكل كل ملحمة متمفصلة دائماً ، لكنها ليست قط مغلقة بصرامة وهي لاتستقي أهميتها الا بالنسبة لسعادة أوشقاء مجموعة عضوية كبرى قد تكون شعباً بأسره وقد تكون سلالة تحكم ذلك الشعب .

والرواية ملحمة عالم خال من الآلهة ،

ومضمونها هو قصة تلك النفس التي تنطلق في العالم الخارجي المادي كي تتعلم كيف تعرف ذاتها ، باحثة عن المغامرات لتجعل منهـا محك اختبار لها . كانت الطمأنينة الباطنة للعالم الملحمي تستبعد كل مغامرة بالمعنى الصارم للكلمة . صحيح أن أبطال الملحمة يجتازون سلسلة مضطربة من المغامرات ، لكنه من المؤكد أنه مقدر لهم سلفاً التغلب عليها جيماً ، في اجسادهم وفي نفوسهم على السواء . فن الحال ألا تنتصر الآلهة التي تسود هذا العالم على الشياطين – هؤلاء الذين تسميهم الميثولوجيا الهندية « آلهة الاعتراض » أما بطل المأساة فيجهل المغامرة ، والحدث الذي كان يجب أن يصبح مغامرة بالنسبة اليه يتحول الى قدر حالما يحتك بالنفس التي وجدت ذاتها . فهذا البطل الذي وجد ذاته لا يعرف أي واقع غريب عنه ، بل كل ماهو خارجي يصبح بالنسبة اليه فرصة لمصير محدد سلفاً ومصنوع على مقياسه . انه لا يجتاز في سبيل اختبار ذاته الى اجتياز اية مغامرة ، بل هو بطل لأن طمأنينة العالم الباطن مؤمنـة له **بصورة قبلية** ، بصورة تسمو على كل اختبار .

ولما كانت الرواية ملحمة عالم خلا من الآلهة ، فان سيكولوجية بطلها هي حقل فعالية الشيطاني . ان الحياة البيولوجية والاجتماعية تميل بشدة الى الثبات ، والبشر يطمحون بكل بساطـة الى العيش ، والبنيات الاجتماعية الى البقاء سالمة ، ولا يفعل بعد الاله الفعال ، او غيابه ، سوى توطيد هذه العطالة الخاصة بحياة تكفي ذاتها بذاتها وتستسلم في سلام الى تاليتها الخاصة ، لولا ان البشر ينتفضون أحياناً ، وقد اجتاحتهم قوة الشيطان ، فيسمون فوق انفسهم ، ويعرضون عن الاسس البيولوجية والاجتماعية لوجودهم . عندئذ يتبين على حين غرة ان هذا العالم الذي هجره الله عروم من الجوهر ، فهو خليـط لا عقلاني كثيف وهش في وقت واحد ، وان ما كان يبدو صلباً يتكسر كالآجر تحت ضربات الفرد الذي مسه الشيطـان ، وان الشقوق الفارغ الذي كان يلوح بالاحلام يتحول بغتة الى جدار زجاجي يصطدم المرء به ، وهـو فريسة عذاب لا يجد وغير مفهوم ، مثلما تصطدم النحلة بالزجاج دون التوصل الى اختراقه ، بل دون الوصول الى الوعي بأنه ليس من سبيل هنا للخروج والافلات .

وان الزمن ، او جريانه بوصفه ديمومة ، ليشكل أهم مظاهر التنافر بين الفكرة والواقع . ان العجز الاشد عمقاً واذلالاً للذات لا يتظاهر في الصراع العقيم الذي تخوضه ضـد البنيات الاجتماعية المجردة عن الأفكار وضد البشر الذين يمثلونها بقدر ما يتظاهر في افتقارهـا الى القوة تلقاء مجرى الديمومـة العاطل والمتصل . ان تلك الذات ترتد على أعقابها أبداً من القمم التي ارتقت اليها بكل صعوبة ، كما ان تلك الحقيقة المستغلقة ذات الحركة غير المرئية تجردها بصورة تدريجية من كل ما كان في حوزتها وتفرض عليها مضامين غريبة دون علم منهـا . ولذا كانت الرواية ، وهي الشكل الوحيد الموافق لضلال الفكرة المتسامي ، الشكل الوحيد أيضاً الذي يفسح مكاناً بين مبادئه المركبة ، للزمن الفعلي ، أو **للديومـة** البرغونية .

ان المأساة تجهل مفهوم الزمن . صحيح ان كل مأساة تخضع لقاعدة الوحـــدات الثلاث ، لكن وحدة الزمن لا تعني سوى الانتزاع من السيلان الزمني . ومما لا ريب فيه ان الملحمة تعرف الديمومة حسب ماتشير الظواهر ، فحوادث **الاليـاذة** تجري خلال عشر سنوات ، ومثلها **الأوذيسة** ، لكن هذا الزمن لا يملك ، كما هو الامر في المأساة ، اي واقع حقيقي ، اية ديمومة فعلية . انه لا يؤثر في البشر او في المصائر ، كما انه لا يملك اية حركية خاصة به ، بل كل وظيفته هو التعبير بصورة بارزة عن عظمة عمل ما او توتر ما . فكيما يعرف المستمع بنفسه ، بفعل التجربة المعاشة ، ماتعنيه حرب طروادة ، او رحـــلات اوليس البحرية ، تشكل السنوات ضرورة ملحة ، مثلها مثل الأعداد الكبيرة من المحاربين او سطح البسيطة التي لابد من اجتيازها . بيد ان الابطال لا يحيون الزمن مطلقاً في داخل القصيدة ، وليس للزمن اي سلطان على تحولاتهم أو ثوابتهم الباطنة : لقد حصلوا على سنهم مع خلقهم ، بحيث ان «نستور» عجوز مثلما «هيلين» جميلة و«اغاممنون» قوي . ومما لاريب فيه ان شخصيات الملحمة يملكون تلك المعرفة الأليمة المفروضة على كل حياة ، أعني الشيخوخة والموت ، لكنهم يملكونها لمجرد الاطلاع ، اما تجربتهم المعاشة واسلوب هذه التجربة فيمثلان ذلك الانعدام السعيد للديمومة الذي يميز عالم الآلهة .

وفي رأي غوته وشيلر ان ترتيب الملحمة يوجهها نحو واقع مضى وانقضى كلياً ، بحيث ان الزمن المعطى فيها يظل جامداً ، ويمكن لنظرة وحيدة ان تلم به . ان للشاعر والشخصية ، في هـــذا الزمن ، ملء الحرية في التحرك في اي منحى دونما تعيين ؛ فهذا الزمن يملك ابعاداً ، لكنه لا يملك اي اتجاه . كذلك يحول ترتيب المأساة الزمان الى مكان . وان الضياع التام الذي وقع الادب الحديث فيه هو الذي سيحدد للمأساة هذه المهمة المستحيلة التي هي تمثيل الجريانات التدريجية للديمومة .

وهكذا لا يصبح الزمن عنصراً مركباً الا حين ينفصم كل رباط مع الوطن المتسامي . وكما ان اشراق المتصوف يعلو به حتى منطقة تنقطع فيها كل ديمومـــة ، كل جريان الزمان ، حيث تجبره نهائيته بوصفه مخلوقاً عضوياً على السقوط من جديد الى العالم الزمني ، كذلك تخلق كل رابطة ضيقة ومرئيـــة بالجوهر كوناً يفلت بصورة قبليـــة من تلك الضرورة . ولا يرتبط الزمن بالشكل الا في الرواية التي ينحصر كل مضمونهـــا في السعي الضروري وراء الجوهر والعجز عن العثور عليه ، لان الزمن هـــو الواسطة التي تثبت بها الحياة العضوية الخالصة وجودها وارادتها في البقاء بامكانياتها وحدها : ان كل فعل الرواية ، في صميمه ، هو صراع ضد قوى الزمان .

ان الزمان هو كمال الحياة حتى اذا كان كمال الزمان يعني القضاء على كل حياة ، ومع الحياة على الزمان نفسه . وان الواقع الايجابي الذي يؤكده شكل الرواية هو بالضبط هذا الكمال للحياة الذي ينكشف عبر سائر الاشكال المتنوعة

والذي يتخـذه عبث النمي والصراع . ولذا كان الزمن يملك في الرواية وجوداً لا يرحم ، فلا يستطيع انسان أن يتجه بصورة مضادة لاتجاهه الوحيد . ان مجراه العاتي والمتواصل هو المبدأ الموحـد للتجانس الذي يصقل سائر الاجزاء المتنافرة ويربطها ، وذلك بعلاقة لا ريب أنها لا عقلانية وممتنعة على التعبير ، وهو الذي يدخل النظام الى فوضى الشخصيات ويسبغ عليهم مظهر واقع عضوي يتطور بقوامه الخاصة دونما مغزى مرئي ، هؤلاء الشخصيات الذين يظهرون ويختفون من جديـد ، ويرتبطون مع بعضهم بعضاً ، ويفصمون الروابط التى اقاموها لتوهم . بيد أن هؤلاء الشخصيات لم يحشروا حشراً فحسب في هذه الصيرورة وهذا الطارح في الماضي اللذين كانا قبل البشر وسوف يبقيان بعدهم ، بل ان هـذه السيالة الزمنية ، من وراء الأحداث والبسيكولوجية ، تسبغ على وجودهم كليتها الخاصة وتصير شيئاً ديناميكياً وحياً .

. . .

قلنا ان الرواية هي ملحمة عالم هجره الله ، الامر الذي يتضح في ذلك التنافر بين النفس والفعل ، بين العالم الباطني والمغامرة . لكن لهذا التنافر على العموم نمطين ، اذ تضيق النفس او تتسع حسبما تكون اضيق او اوسع من العالم الخارجي الذي هو مسرح لها ودعامة لأفعـالها .

وتتضح لنا في الحالة الاولى ، بصورة افضل من الحالة الثانية ، الصفة الشيطانية للفرد الملتبس الذي ينطلق خلف المغامرات ، وان ظل التباسه الباطن اقل وضوحاً ؛ ان اخفاقه امام الواقع يظل اخفـاقاً خارجياً محضاً للوهلة الاولى . فالاستعداد الباطن هو الذى يمنع بالضرورة أية امكانية ثورية ومباشرة على تحقيق المثل الاعلى . هذا الاستعداد الباطن هو الذي ينسى ، في عماه الشيطاني ، كل بعد بين المثل الاعلى والفكرة ، بين الروح العمومية والنفس الفردية ، ويخلص بايمان حقيقي لا يتزعزع من ضـرورة وجود الفكرة الى وجودها الضروري ، ويعتقد بأنه اذا لم يكن الواقع متفقاً مع هذا الايمان **القبلي** ، فذلك دلالة على وقوعه اسيرا لسحر ارواح شريرة ، بحيث لابد من الصراع العنيف ضـد القوى الشريرة من اجل تخليصه وتحريره . لقد كانت الآلهة رفاق طريق بالنسبة الى ابطال الملحمة ، بالنسبة الى آخيل واوليس ، او دانتي وارجونا . وسواء اصادف هؤلاء الابطال في ختام رحلتهم برق الكارثة او بريق الظفر ، او كليهما معاً ، فانهم لا يذهبون لوحدهم قط ، بل هنالك دائما من يرشد خطاهم . ومن هنا كانت تلك الثقة العميقة التي تغمر قلوبهم أثناء سيرهم . وقد يذرفون دموع اليأس ، وهم ضالون في جزر مهجورة ، وقد يتعثرون حتى أبواب الجحيم ، ضائعين في الظلمة المرهقة ، لكنهم يظلون مغمورين بجو من الاطمئنان مع ذلك ، وتلك هي طمأنينة الاله الذي يرسم بصورة مسبقة الدروب التي سيسلكها البطل في مسيرته . واذا ما كانت الآلهة معرضة عن ارشادهم في الاحايين ، فانهم يعرفون ان هذا العضد سيعوزهم ، وبالتالي فانهم سيظلون دون سند حيال اعـداء أقوياء ، بحيث يظل هناك

توازن مناسب بين العالم الموضوعي والعالم الذاتي ، اذ يحس البطل تفوق العالم الخارجي ، لكنه سيتمكن من الظفر في النهاية ، لأنه يملك هو الآخر قوة تقوده الى النصر .

لكنه حالما يتلاشى هذا الشعور الغريزي بالبعد ، فان الرابطة بين العالمين الذاتي والموضوعي تصبح متناقضة ، وضيق النفس الفاعلة يصير العالم ايضاً ، بالنسبة اليها ، اضيق مما هو في الحقيقة . ومن هنا ذلك التناقض الفظ بين الواقع كما يتخيله البطل وبين الواقع كما هو في الحقيقة ، وهو التناقض الذي يشكل عقدة الرواية : لم يعد بعد الآن أي شيء مشترك بين ميدان النفس وميدان الفعل ، بين السيكولوجية والسلوك . وهكذا لايمكن لحياة الرجل الذي يخضع لمثل تلك الثنائية أن تكون سوى سلسلة من المغامرات التي ينتقيها هو نفسه ويندفع في خضمها ، اذ هو لايهتم بالحياة بقدر مايهتم بمواجهة المغامرة . انه يعتقد أن عالمه الباطن هو الجوهر العادي واليومي للعالم ، فهو يحاول ان يحول هذا العالم الباطن الى افعال ، بحيث لايستطيع أن يكون سوى بطل مغامر . ان الواقع الخارجي يتراءى له كتلة عاطلة ، عديمة الشكل ، عديمة المغزى ، مجردة عن كل قدرة على القيام بدور الشريك حيال البطل ، الشريك الذي يتصرف وفقاً لخطة معينة وضمن منظور يستهدف الوحدة ، بحيث أن التعطش الى المغامرات الذي يفيض في البطل يدفعه بصورة اعتباطية الى ان ينتقي خبط عشواء ، في ملء تلك الكتلة ، العناصر التي سيجابهها . لكن هذه السيكولوجية الصارمة وهذا السلوك الذي يتبعثر في مغامرات منعزلة يشترطان بعضها بعضا ويبينان على افضل صورة الخطر الخاص بهذا النمط في الرواية .

واذا كان سرفانتس تغلب على هذا الخطر حين وصف في نفس دون كيشوت ، على اروع صورة ، تصالباً عميقاً ومتشابكاً بين السمو والجنون ، فليس السبب الوحيد لهذا النجاح فطنة الكاتب ، بل البرهة التاريخية التي كتب فيها كتابه . فليس من قبيل الصدفة التاريخية ان يكتب **دون كيشوت** للسخرية من روايات الفروسية . كانت الرواية الفروسية قد سقطت صريعة المصير الذي ينتظر كل ملحمة تسعى الى الابقاء على حياة شكل قضت الجدلية التاريخية الفلسفية على شروط وجوده . كانت هذه الاشكال تذبل بالضرورة ، وتصبح أكثر تجريداً باستمرار ، مادامت القوة التي استدعتها من قبل الى الوجود قد تلاشت . وهكذا لم يعد في الامكان الحصول سوى على ادب للتسلية في مكان الآثار الملحمية الكبرى .

ان الملحمة الفروسية للعصر الوسيط تشكل مثلا مرموقاً على الشكل الذي أمكن للرواية أن تتخذه في زمن كانت الثقة بالله فيه تجعل قيام الملحمة أمراً ممكناً وضرورياً . ان التناقض الاكبر للكون المسيحي يقوم في انه ينصب ، حيال هذا العالم الادنى المكرس للتمزق والنقص والضلالة والخطيئة ، عالماً أعلى هو خلاص ابدي وملكوت الهي حاضر أبداً . ولقد استطاع دانتي أن يسيطر على هذا الكل ، المصنوع من عالمين ، في الشكل الملحمي **للملهاة الالهية** . لكن

الشعراء الملحميين الآخرين فشلوا في ذلك ، ولم ينتجوا سوى روايات بدلا من الملاحم ، بل ان هذه الروايات لاتعدو كونها أقاصيص كبيرة عن الجنيات ، إذ ان المبدأ الالهي الكلي القـــدرة يسود فيها حياة البشر ، ويحرمهم من كل تنوء خاص بهم ، بل يجعلهم سطحاً مجرداً ، في حين كانت القوة الكلية للحياة ، الحياة بوصفها مقولة بشرية فحسب ، تشمل في القصائد الهوميرية البشر والآلهة على حد سواء ، وتجعل من هؤلاء الآلهة كائنات انسانية محضة .

لكن الاله المسيحي شرع ، على عتبة العصر البورجوازي ، يغادر العالم ، واصبح الانسان وحيداً ولم يعد يجد المنى والجوهر الا في نفسه التي لم يعد لها موطن في أي مكان ، كما أن العالم فقد كل ارتباط له بالعالم الاعلى ، واصبح مستقلا بذاته ، منطوياً على لامعنـــاه . وان الرواية الكبرى الاولى في الادب العمومي تقف على عتبة هذه المرحلة حيث راحت قـــوة الاشياء المتخلفة ، وقد انضمت اليها بعض العناصر الوهمية ، تنمو حتى درجة لامثيل لها وتخوض غمار قتال رهيب ، لانهاية له فيما يبدو ، ضد القوى الصاعدة الغامضة بعد ، العاجزة عن كشف ذاتها واختراق العالم من طرفه الواحد حتى طرفه الآخر .

ان الزمن الذي عاش سرفانتس فيه هو الزمن الذي شاهد الازدهار الاخير لتصوف عظيم يائس ، شاهد الجهد المهووس لديانة في طريق التدهور كي تتجدد بقواها الخاصة ، شاهد معرفة جديدة عن العالم لتتطور في اشكال صوفية . انه زمن الشيطانية المطلقة العنان ، زمن الاضطراب العظيم للقيم ضمن نظام في طريق الزوال ، ولقد استطاع سرفانتس ، بوصفه مسيحياً مؤمنـــاً ومواطنا مخلصاً ، ان يصل الى الجوهر الاعمق لهذا الالتباس الشيطاني في أثره الادبي ، الا وهي الضرورة التي تجد البطولة الانقى نفسها مضطرة فيها ان تتحول الى الفظاظة ، والايمان الاثبت ان يتحول الى الجنـــون . وتلك هي الكآبة العميقة لنفس مجرى التاريخ ، لهروب الزمان الذي يبين هكذا ان بعض المضامين الابدية والمواقف الأبدية تفقد مغزاها حالما ينقضي وقتها – او قل ان الزمان يستطيع ان يتجاوز الابدي . تلك هي المعركة الكبرى الاولى للعالم الباطن ضد دناءة العالم الخارجي ، والمعركة الوحيدة التي نجح هذا العالم فيها بأن يغادر ميدان القتال دون شائبة ، بل بأن يضيء خصمـــه المنتصر ببريق شاعريته الخاصة الظافرة ، وان تكن ساخرة تلقاء ذاتها .

هكذا بقيت **دون كيشوت** ، مثلهـــا مثل سائر الروايات الكبرى تقريبا ، التجسيد الهام الوحيد لنمطها ، الذي هو نمط المثاليـــة المجردة . لقد كان هذا التداخل للشعر والسخر ، والسمو والفظاظة ، والالوهية والجنون ، مرتبطاً بصورة وثيقة بحالة الفكر في زمانه ، بحيث ان نفس النمط من البنية الذهنية لن يتظـــاهر في ازمان اخرى الا في اساليب مختلفة ، دون ان يعثر قط على نفس المنزى الملحمي . ان روايات المغامرة التي اقتصرت على اتخاذ شكل تلك الرواية قد ظلت خاوية من الافكار ، مثـــل روايات الفروسية الســابقة لها ، ولم تتمكن من الخلاص – رغماً

عن الموهبة الكبرى لبعض مؤلفيها ، من الخلاص من الابتذال الحاسم الذي جعلها اقرب ما تكون الى روايات التسلية ، فهي اما أن تتجرد عن كل علاقة حميمة بالحياة ، كما هي حال الادب الأسوي في ألمانيا في زمان المثالية ، واما ان تتجرد عن كل تجذر مباشر في عالم الافكار الحقيقي . كما هي حال روايات ديكنز او بلزاك .

فاذا كانت روايات ديكنز ، الماجة بالشخصيات الهازلة ، تظهر آخر الامر تافهة وبورجوازية صغيرة حتى درجة بعيدة ، فان السبب الفني لذلك هو اضطرار الكاتب الى تصوير أبطاله كنماذج مثالية لانسانية قادرة على التكيف ، دون نزاع باطن ، مع المجتمع البورجوازي الراهن ، والى إلباس الصفات التي يتطلبها مثل ذلك التكيف ـ كي يؤمن القوة الشاعرية لأولئك الابطال ـ بريقاً هو بحد ذاته مشكوك فيه ، وغير مناسب لهم البتة . ولعل هذا هو السبب الذي حمل غوغول على عدم اتمام **النفوس الميتة** ، اذ كان من المحال عليه ، منذ البدء ، أن يجد نداً « ايجابياً » لشخصية مثل تشيتشيكوف ، الناجحة والخصبة جدا على مستوى الفن ، لكن السالبة . ولقد كان مثل هذا الثقل المعدل ضروريا للغاية من اجل مقاصد الكاتب الملحمية ، ولا يمكن للرواية بدونه ان تبلغ الى اية موضوعية من المرتبة الملحمية ، الى اي واقع ملحمي ، بل كانت ستبقى مجرد قصيدة هجائية او كراسة نقدية .

أما بلزاك فقد سلك سبيلاً آخر من اجل بلوغ الواقع الملحمي . ان النزعة الشيطانية الذاتية والبسيكولوجية التي تميز آثاره تشكل بالنسبة اليه واقعا اخيرا ، او مبدأ كل سلوك انساني جوهري مجسد في ايماءات ملحمية ؟ إن عدم المطابقة مع العالم الخارجي تبلغ أوج شدتها ، لكن هذا العالم الخارجي يظل انسانيا محضاً ، تسكنه شخصيات تتحلى جوهريا بنفس البنية الذهنية رغم تنوع اتجاهاتها ومضامينها . وإن هذه المجموعة من السلوكات حيث تمر تلك النفوس متجاورة دون ان تتلاقى قط ، متقلا مصيرها هكذا حتى درجة الارهاق ، لتصبح هي نفسها جوهر الواقع ، الامر الذي يجعل من هذه الروايات شيئاً فريدا في نوعه . لكن هذا النصر الذي يحققه الشكل لا ينطبق الا على كل رواية على حدة ، من دون مجموع **الملهاة الانسانية** ، ان التفاصيل وحدها تتمتع بالبنية الملحمية ، اما المجموع فيظل مجرد تراكب ليس غير ، رغماً عن ان مضمونه هو مضمون الملحمة الكبيرة ، اي كلية العالم . ذلك ان الكلية ترتكز ههنا على مبادىء تتسامى على الشكل الملحمي ، ترتكز على جو وعلى معرفة وليس على الفعل وعلى الابطال ، بحيث لا يمكنها ان تجد من تلقاء ذاتها كمالها وشمولها .

لكن النمط الاخر من العلاقة ، غير المتوافقة بالضرورة ، بين النفس والواقع ، وهو عدم التوافق الناجم عن كون النفس أعرض واوسع من سائر المصائر التي تعرضها الحياة عليها ، هو الذي تغلب في آداب القرن التاسع عشر . ان الواقع الباطني المحض ، الاكثر او الاقل كمالاً وغنى بالمضامين ، هو الذي يتبارى ههنا مع الواقع الخارجي ، ويملك حياته الخاصة الغنية والمتعددة

الوجوه ، ويعتبر نفسه الواقع الحقيقي الوحيد ، وفشله في محاولة تحقيق المطابقة هو الذي يؤلف موضوع الرواية . ههنا يستطيع العالم الباطن ان يكتفي بنفسه ، بينما كان شرط وجوده ، بالنسبة الى المثالية المجردة ، ان يتحول بادىء الامر الى سلوك ويدخل في نزاع مع العالم الخارجي. ثم ان امكانية تجنب هذا النزاع ليست مستبعدة ههنا بصورة مسبقة ، اذ ان حياة قينة باخراج سائر المضامين من اعماقها يمكن ان تكون مليئة ومكتملة حتى اذا لم تحتك مطلقاً بالعالم الخارجي الغريب. وهكذا بينما كانت البنية النفسانية للمثالية المجردة تتميز بفرط في النشاط المتوجه نحو الخارج دون ان يستطيع شيء اعتراض سبيله ، نجد هنا بالاحرى ميلاً نحو الانفعالية، نحو تفادي النزاعات والصراعات الخارجية بالاحرى من خوض غمارها . ان النفس تسعى كي تنهي في اعماقها ، وبقواها الخاصة، كل ما يمكن ان يكون له مساس بها .

لم يكن في الامكان تصور دون كيشوت دون انتسابه الى طبقة الفروسية ، كما أن حبه ما كان يتحقق لولا عشق الفرسان التقليدي في ذلك الحين . كذلك يتركز التملك الشيطاني لسائر البشر ويتجسد ،في **الملهاة الانسانية** ، في تراكيب الحياة الاجتماعية ، بحيث ان الصراع المتعلق بها يشكل عملية الحياة التي تعطي المضمون لعقدة الرواية . لكن سائر العلاقات قد الغيت سلفا هنا ــ في رومانطيكية الخيبة ــ لان تحويل العالم الباطن الى كون مستقل كل الاستقلال ليس مجرد حدث نفساني بسيط ، بل هو حكم قيمة حاسم مطلق على الواقع . وان هذا الاكتفاء الذاتي للذاتية يشكل اكثر دفاعاتها يأساً ، لانه الاعراض عن الصراع من اجل تحقيق الذات خارجاً عنه ، اذ يعتبر الصراع ههنا ، بصورة مسبقة ، مذلا وعديم الجدوى .

ويصبح الفرد هنا هو كل شيء ، في ذاته ومن اجل ذاته، وان يكن الثمن المدفوع تلقاء ذلك هو استغناؤه عن القيام بأي دور في بنية العالم الخارجي . فليست رومانطيكية الخيبة مجرد خليقة تاريخية للمثالية المجردة ، بل هي وريثتها المنطقية في منظور فلسفة التاريخ وخطوة جديدة في مجال الطوباوية القبلية . لقد كان الفرد ، في المثالية المجردة ، يسقط فريسة القوة القاسية للواقع ، اما في رومانطيكية الخيبة فان هزيمته هي بالضبط شرط ذاتيته .

اما النتائج الفنية لمثل هذا الموقف ، كما تتبين لنا على أفضل وجه في **التربية العاطفية** لفلوبير ، فهي الانكار المطلق ، وتدمير كل قيمة انسانية حقيقية وغير مشروطة ، والشكوى العاجزة امام عالم هو عديم الجوهر في حد ذاته ، والاغراق في التشاؤم الذي تعوض عنه شاعرية غنائية تحاول عبثاً أن تصقل الحياة الانسانية .

وتقوم محاولة غوته ، **ولهلم مايستر** ، بين هذين النمطين من وجهة النظر الفنية وعلى مستوى فلسفة التاريخ على حد سواء. ان فحواها هو مصالحة الانسان الملتبس ــ المتوجه بمثل أعلى هو بالنسبة اليه التجربة المعاشة ــ مع الواقع الحسي والاجتماعي . ولا يمكن ان تكون هذه

المصالحة ، كما يجب الا تكون ، مجرد تكيف ليس غير ، لكنها لايمكن ان تكون كذلك تناسقاً مسبقاً سوف يؤدي من دون ريب الى ذلك النمط من الرواية الساخرة الحديثة ، مع فارق وحيد هو ان الشر الذي كان هنا امراً ضروريا لامفر منه يصبح هناك صاحب الدور الرئيسي.

وينجم عن هذه الامكانية المعطاة للبطل كي يمارس بعض التأثير الفعال في الواقع الاجتماعي ان تفصل العالم الخارجي ـ الحرفة والدولة والطبقة الخ ـ يحوز بالنسبة الى هذا البطل اهمية رئيسية بوصفه سندا للفعالية الاجتماعية . ان المثل الاعلى الذي يعيش في قلبه ويقرر أفعاله يستهدف اذن اكتشاف الروابط والكفاءات في البنيات الاجتماعية من أجل ذاته الصميمية ، بحيث تتغلب النفس على وحدتها ، ولو بصورة جزئية. ويفترض هذا الفعل جماعية بشرية صميمية وامكانية التفاهم بين البشر والتعاون في الشؤون الاساسية، الامر الذي يعني بلوغ مثل أعلى للانسانية الحرة التي تفهم وتقبل سائر البنيات الاجتماعية بوصفها اشكالا ضرورية للجماعية البشرية، بحيث يتحقق التوازن بين الفعل والتأمل ، بين ارادة التدخل بصورة فعالة في العالم وموقف التقبل تلقاءه . وهذا مانسميه **رواية التربية .**

ومهما يكن من امر ، فليس العالم هو الذي يوفر هذا الجو من الاطمئنان ، بل الارادة الانسانية الواعية لهدفها والمتأكدة من بلوغه . ان هذا العالم لايخلو بحد ذاته من الاخطار . يجب أن نرى الى ذلك العدد الكبير من الناس ، العاجزين عن التكيف ، يسرعون الى خرابهم ، بينما آخرون من الذين استسلموا مبكراً ودون شروط امام الواقع يظلون في حالة محزنة من الفقر والجفاف ، كي تقيس الخطر الذي يهدد كل فرد من الناس ، وهو خطر يتوفر لكل واحد ، من دون ريب ، طريقه الفردية من اجل الخلاص منه ، لكن ليس خلاصا مضمونا **بصورة قبلية** وان مايستطيع الكثيرون تحقيقه لصير مقدر للجميع ، بصورة نظرية على الاقل ، أن يتوصلوا اليه ، بحيث أن شعور القوة الذي يصدر عن هذا النوع من الرواية ينبع من نسبية الشخصية المركزية ، وهي نسبية تنجم عن ايمان هذه الشخصية بامكانية المصائر الجماعية وفرض البنيات الجماعية على الحياة . وهكذا فان العنصر التثقيفي ، أو التربوي ، في هذه الرواية يقوم في التكيف مع المجتمع بالاستسلام لاشكاله الحياتية من جهة ، والانطواء على الذات من جهة اخرى ، مع الحفاظ في الذات على عالم باطن لايمكن أن يتحقق الا في النفس وحدها .

وان الادب الروسي في القرن التاسع عشر ، وبالخاصة تولستوي ، هو الذي يقوم بالمحاولة الكبرى من اجل تجاوز الاشكال السابقة جميعا في اتجاه الملحمة الحقيقية . ان فن تولستوي العظيم ، الملحمي حقا ، البعيد جدا ، عن النوع الروائي ، يتجه نحو تصوير حياة قائمة على جماعية المشاعر بين البشر البسطاء والمرتبطين بصورة وثيقة بالطبيعة ، وهي جماعية تتكيف مع نسق الطبيعة العظيم ، وتتحرك على ايقاعها منذ الولادة حتى الموت ، وتستبعد كل صغار ، وانفصال ، وتنازع ، وتحجر . « ان الموجيك يموت بسكون ، وديانته

هي الطبيعة التي عايشها . لقد اقتطع اشجاراً ، وزرع الشوفان ، وحصده ، وذبح خرافا ، وولدت خرفان عنده ، ورزق اطفالا ، وهناك شيوخ ماتوا ، وهو يعرف بكل دقة هذا القانون الذي لم يتحول عنه قط ، بل اخذه على الدوام في عين الاعتبار بطريقة مباشرة وبسيطة ... ان الشجرة تموت في سلام ، بكل بساطة ، وبجمال . أما الجمال فلأنها لاتخدع ولا تكشر ، ولا تخاف ولا تندم على شيء مطلقا . »

ان تناقض الوضع التاريخي للرواية ـ هذا التناقض الذي يبين على افضل صورة كيف انها تشكل بالضرورة الشكل الملحمي لعصرنا ـ يتضح في الحقيقة التالية ، ألا وهي أن العالم يمتنع عن الصيرورة حركة وفعلا ، ويبقى مجرد عنصر في البناء الملحمي وليس الواقع الملحمي نفسه ، وذلك حتى عند كاتب لم تتجه حساسيته نحو العالم بكل قواها فحسب ، بل لقد نظر اليه ومنحه شكلا حسياء نيرا وغنيا . ذلك أن العالم العضوي الطبيعي الخاص بالملحمة القديمة كان في الوقت نفسه ثقافة يشكل تعضيها صفتها المخصوصة ، في حين أن الطبيعة ، مثلما يطرحها تولستوي بوصفها مثلا أعلى ويعيشها بوصفها وجوداً ، لايدركها في جوهرها الا بوصفها طبيعة ، وعلى هذا الاساس يمارس الثقافة بها .

إن كلية من البشر والاحداث تظل مستحيلة الا على تربة الثقافة ، كائناً ما كان موقفنا حيال هذه الثقافة ، ولذا كان العنصر الحاسم في روايات ولستوي ، سواء فيما يتعلق بهيئتها أم بمضامينها الحية ، ينتسب بالضبط الى عالم هذه الثقافة التي يرفضها الكاتب الكبير بوصفها ملتبسة . وان عدم الرضى الذي يساور الاناس الجوهريين تلقاء كل مايمكن ان يوفره عالم الثقافة لهم ، ورفض هذا العالم بنتيجة ذلك ، والبحث عن عالم آخر واكتشافه ، اعني الواقع الأكثر جوهرية الذي هو الطبيعة ، تشكل تجربة معاشة ، رومانطيكية وعاطفية ، تجربة تصير مركزاً للرواية بأسرها . لكن هذا العالم الخاص بالطبيعة الجوهرية يظل مجرد شعور وتجربة معاشة ، فهو ذاتي بالتالي ، ومن وجهة النظر الفنية المحضة مماثل لكل حنين الى واقع اكثر تلاؤماً .

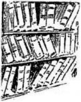
ان التطور لم يتجاوز نمط رواية الخيبة ، كما ان الآداب الأحدث لاتكشف عن أية امكانية خلاقة جوهريا ، قمينة بان تعطي مولداً لأنماط جديدة . انها مجرد انتقاء لأنماط سابقة ، تجتر تراكيب قديمة ولا يبدو انها تملك قوى منتجة الا في الميادين المدعة الجوهرية صوريا : الغنائية والبسيكولوجية .

ومن المؤكد أن تولستوي نفسه يحتل مركزاً مزدوجاً ، فلا بد ان نعتبره ، من وجهة النظر الصورية المحضة ، الوريث الاخير لرومانطيكية الاوروبية ، لكنه في اللحظات العظيمة النادرة من أثاره يكشف لنا عن عالم حسي وموجود ، متمايز بشكل وضوح ، عالم لابد أن يفلت تماما ، فيما لو امكن توسيعه حتى ابعاد كلية كاملة ، من مقولات الرواية بحيث يتطلب شكلا تركيبياً جديداً هو الشكل المستجد الملحمة .

ولسوف تكون تلك دائرة واقع من المرتبة

النفسانية المحضة يتراءى الانسان فيها بوصفه انسانا وليس بوصفه كائناً اجتماعياً ، اوعالماً باطنـاً ، متجرداً ومنعزلاً . بيد ان الفن لن يتمكن قط من تحقيق مثل هذا التحول ، ان الادب الملحمي الكبيرلون مرتبط بالوضع الحسي للبرهة التاريخية ؛ وكل محاولة من اجل تصوير العالم الوهمي وكأنه موجود بالفعل لن تؤدي سوى الى تدمير الشكل وليس الى خلق الواقع . ان الرواية هي الشـكل الموافق للعصر الذي يسميه « فخته » عصر الاثم التام ، ولسوف يظل هذا الشـكل سائداً ماخضع العالم لتلك الكوكبة . ولقد امكننا ان نشاهد عند تولستوي بوادر انطلاقـة نحو عصر جديد من التاريخ العالمي ، لكن على المستوى البسيط من المعارضة ، والحنين ، والتجريد .

ومع آثار دوستويفسكي ، يتحدد هذا العالم الجديد للمرة الاولى بعيداً عن كل تضاد مع ماهو موجود ، بوصفه رؤيا بسيطة وخالصة عن الواقع . لكن دوستويفسكي والشكل الذي يتخذه فنـه لايدخلان في اطار هذه الدراسة . والحقيقة ان دوستويفسكي لم يكتب روايات ، وتركيبه الروائي بعيد كل البعد عن الرومانطيكية الاوروبية للقرن التاسع عشر وعن مختلف ردود فعل الرومانطيكية جميعاً ، التي قامت ضدها . انه ينتسب الى العـالم الجديد ، ولا بد من تحليل صوري لآثاره كي يبين لنا ما اذا كان يلعب دور هوميروس او دانتي بالنسبة الى هذا العالم اوما اذا كان لايعطينا سوى الاناشيد التي سينسجها الكتاب الآتون بعده في وحدة كبرى ، بعد جمعها الى أناشيد السابقين الآخرين . ان ذلك التحليل سيبين لنا ماإذا كان دوستويفسكي يشـكل بداية أم تحقيقاً ، وعندئذ سيكون من شأن التفسير التـاريخي الفلسفي ان يقول لنـــا ما اذا كنا حقاً وفعلاً على وشك هجران حالة الاثم التام أم ما اذا كانت الآمال المجردة تبشر فقط بمطلع عصر جديد ، وما هي سوى دلائل مستقبل لا يبرح على درجة بالغة من الضعف بحيث ان القوة المجدبة لـا يقتصر على الوجود يمكن ان تسحقه دائماً في اثناء لهوهـا وعبثهـا .



المستشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك يدلي بحديث خاص بالمعرفة :

— ان تصادم حضارة الشرق مع الغرب كان سبباً في فقدان شخصيتها ونشوء الشخصية العالمية .

— لا تحيا اللغة من الالفاظ فحسب بل من التفاعل بين الوقائع والالفاظ .

— نجيب محفوظ يدل دلالة عميقة ونفسية على وقائع اجتماعية ، ووعي تاريخي نفسي متفتح متطور .

باريس

من الدكتور سلمان قطاية

يعد الاستاذ جاك بيرك من كبار المستشرقين الاوروبيين الذين اختصوا بقضايا الامة العربية من الناحية الاجتماعية . وهو اليوم استاذ في « كوليج دو فرانس » ومدير لمدرسة الدراسات العليا . وشهرته في المغرب العربي واسعة لما قدمه من دراسات عميقة للاحوال الاجتماعية فيها !وقد نشر مؤلفات كثيرة من اهمها : « البنية الاجتماعية في جبال الاطلس » و « لمحه تاريخية عن مدرسة فاس » و « اليوسي ، مشكلة الثقافة المغربية في القرن السابع عشر » و « التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية في القرن العشرين » ... الخ .. وكتابه « العرب في الأمس والغد » دراسة شمولية كلية لمعظم المشكلات العربية صدر عام ١٩٦٠ وهو الان في طور الترجمة الى اللغة العربية في بيروت بقلم الدكتور محمد علي سعد بعد ان ترجم الى لغات عديدة . وقد صدر له منذ

بضعة اشهر كتاب بعنوان « انتزاع ملكية العالم » وهو دراسة رائعة لمشكلات الاستعمار ومخلفاته الاجتماعية وردود الفعــل في كل من البلاد المستعمِرة والمستعمَرة .

قصدته في مكتبه في « كوليج دو فرانس » ومكتبه هذا يعد محجاً لمعظم المثقفين العرب وقلما يخلو من واحد منهم يغتنم فرصة مروره بباريس، ليذهب يناقشه في المشكلات العربية على مختلف مستوياتها . والمكتب بسيط متواضع كالاستاذ نفسه ، غارق في الكتب العربية والاجنبية التي تعالج قضايا العرب .

استقبلني بلطف وترحاب وبدأ بشكر ادارة مجلة المعرفة التي تفضلت فأهدته مجموعتها الكاملة التي ستكون بالنسبة له ولتلاميذه مرجعاً في دراساتهم العلمية . واخبرني انه قرأ بعض قصص رئيس تحريرها الاستاذ فؤاد الشايب ويذكر منها قصة تروي ردود فعل الشعب في الريف السوري ازاء (الاوتوموبيل) .

وبعد ان استقر بنا المقام طرحت عليه اسئلة عديدة فكان يجيبني بلغة عربية فصيحة متينة وعلى الجواب ويناقشني في ترجمات بعض الاصطلاحات .

● لاحظت اثناء قراءتي لبعض مقالاتكم في الصحف الادبية تكرار كلمة فقدان الشخصية العربية فماذا تعنون بها ؟

ـ انها فكرة تضم معلومات عديدة بدت واضحة منذ بضعة سنوات بسبب تقدم التحليل الذي برهن ان فكرة الالتزام الاقتصادي غير كافيــة لعرض الظاهرات الاستعمارية . ان مجموعة هذه الظواهر مجملة في كلمة فقدان الشخصية Dépersonalisation وهي تبدو واضحة للعيان في المجال الفكري بشكل خاص .

الا أن هذا يدفعنا الى مجال البحث في مشكلات خطيرة جداً . ونستطيع القول اذا بالغنا في مفهوم فقدان الشخصية حتى حــده الاقصى ، بأن كل تصادم بين الحضارات يؤدي حتما الى فقدان الشخصية لدى المستعمر والمستعمر معاً ، وفي آن واحد . وظهور الشخصية العالمية Internationalisme وهذه هي ، في رأيي ، مشكلة العالم الجديد .

● ماهي العالمية بالنسبة لكم ؟

ـ ليست العالمية ازالة الشخصيات القوميــة المختلفة ، أو الثقافية او الاجتماعية .. الخ .. بل هي نوع من التوازن بين العالمية والفكرة القومية وموقفي الشخصي هو العالمية . وهنا احب ان الفت الانظار الى ان العالمية لاتعني مطلقا الفكرة الاممية Cosmopolitin فالاختلاف بينهما شاســع واسع . الأممية هي محو الشخصية القومية في أشياء عامة تافهة . اما العالمية فهي التوازن بين شخصيتين مختلفتين ، بين حضارتين مختلفتين ، وهي ما نريده اليوم في عالمنا الحاضر .

● وكيف تطرح هــذه المشكلة في البلاد العربية ؟

ـ لقد حدث في البلاد العربيــة هجوم من قبل الحضارة الصناعية الاوروبية . ونتج عن ذلك وقائع فرضت نفسها على تلك البلاد . وهي حضارة جاءت من الخارج ، ولم تنتج عن الداخــل كما

حدث في البلاد الاوروبية . فداء البلاد العربية صدر عن غيرها ، اما داؤنا نحن الاوربيين فقد صدر عنا . وهذا فرق كبير . واعتقد ان هذا التصادم هو الذي ادى في الشرق الى اثارة موجة عارمة من العواطف لتوازن هجوم المدنية الصناعية وهو مايدعى اليوم بالقومية العربية . وواضح انها دفاع عن الذات العربية . وللدفاع هـــذا صورتان : الاولى اكتساب الوسائل المـادية ، والثانية التوازن العاطفي لذلك الهجوم . وقـد عكست اللغة العربية هذه المشكلة ، فلقد اسس في البلاد العربية منذ اكثر من ثلاثين عاماً مجامع لغوية علمية ، شكلت لابتكار كلمات تعبر عن التجديد الوارد من الخارج . اعتبر شخصياً هذا الحل نوعاً من الضياع لأن اللغة ، اية لغة كانت ، لاتحيا من الالفاظ فحسب بل من التفـاعل بين الوقائع والالفاظ . وربما نسيت المجامع اللغوية العربية هذا الواجب . وبالطبع فلا يخفى على احد مافي هذا السعي من الاجتهاد السليم والعمل الواقعي التاريخي . والنتيجة التي نأمل كلنا ان نصل اليها : هي ان يتجدد الشرق العربي تجددا ماديا وروحياً معا . وعندما سيصل الى هذا التجديد فسوف يسترد شخصيته من جديد ، ولا شك عندي في ذلك .

● **وما هي الطريق الى هذا التجديد في رأيكم ؟**

ـ انه التفاعل بين الاوضاع والرموز ، وما اللغة في حد ذاتها سوى تفاعل بين هذين العاملين. فالكتاب والادباء والشعراء ، مثلا ، هم من مبدعي الرموز ، ولهـم دور كبير في تجديد المجتمع ، كذلك هو حال المفكرين. ولقد اصبح لدي شعار اردده كل يوم في دروسي : فأقول : ليس ثمة من بلدان متخلفة ، بل ثمة بلاد لاتحليل لها بمعنى انها تفتقد الى التحليل .

● **ماقولكم ، في هذا الصدد ، بدور الشعراء الحديثين العرب ؟**

ـ أقول فيهم ماقاله فيكتور هوجو عن بودلير: لقد خلقوا رعشة جديدة .

● **في كتابكم الاخير خصصتم فصلاً كاملاً عن مشكلة « الضيـــاع » لدى المفكرين العرب فكيف ترون المشكلة ؟**

ـ لقد عرف العرب منذ زمن بعيـد ، وبسبب حساسيتهم المرهفة ، معنى الضياع في كل معانيه وحتى في معناه المـادي . لقد حضرت ايضاً منذ فترة في الجامعة الامريكية في بيروت مؤتمراً حول مشكلة الضياع في المجتمعات العربية. واعتقد انه ظاهرة اجتماعية تدل دلالة واضحة على التطور . وكل تطور تاريخي لايخلو مـن الضياع في كل مظهر من مظاهره ، فالضياع على مستوى المفكر أو الاديب يبدو وكأن الانسان ذو مدى أطول وأوسع من مشاريعه التي يحققها ويفي بوعدها ، مهما كان هذا المشروع ومن هنا سميت المستوى الانساني : المستوى الأوسع : فكل تعبير اجتماعي ، تاريخي ، أو ثقافي أو عاطفي او جنسي ، ليس الاجزاء منه ولا يخلو من ضياع . ولذلك تراني متشائماً متفائلا

معا . متشائم لأنني اعتقد ان كل عمل انساني لا يخلو من الضياع . ومتفائل لأن هناك نتيجة ايجابية من وراء هذا السعي . وهذا ما سميته بالمأساة المتفائلة Tragédie Optimiste للانسان . فزوال الاستعمار فصل من فصولها ، والتكوين التاريخي هو فصل آخر منها .

والذي اوصلني الى هذا المفهوم هو ما شاهدته من وقائع في العالم العربي هذا العالم المتألم الكلاسيكي الحافل بالمعاني العالمية الواسعة . ولقد لاحظ البعض ان المرء لا يستطيع ان يعبر عنها كما تعبر عنها اللغة العربية .

● وهل تجدون ان الأدب العربي قد عبر عنها ؟

– لابد لنا ان نميز بين مستويات مختلفة . ففي رسالة ثقافية ما أميز ما بين مستوى التعبير ومستوى الدلالة ، وفي كتب الجاحظ نجد التمييز نفسه . ولا أجد في الادب العربي المعاصر مستوى تعبيرياً ناضجاً نضوجاً كاملا ، وهو ان كان يعاني بعض النقص في مستوى التعبير لكنه غني جداً في مستوى الدلالة . فدلالته اغنى من تعبيره . وبالاستطاعة ان نستنتج منه اشياء اكثر مما يعبر عنها بنفسه .

● هل لكم ان تضربوا لنا مثلا عملياً عن هذه الفكرة ؟

– خذ مثلا القصة الطويلة الاولى من نوعها في الادب العربي : ثلاثية نجيب محفوظ . لاشك في أن مستواها الفني يقل عن مستوى تولستوي او دستويفسكي مثلا . انما يدل دلالة عميقة نفيسة عن وقائع اجتماعية ووعي تاريخي نفسي متفتح ومتطور . اقول : ان دلالة نجيب محفوظ انفس من تعبيره .

● ألا تعتقدون أن نظرتكم هذه لأعمال نجيب محفوظ عائدة الى اهتمامكم بها من الناحية الاجتماعية أكثر من اهتمامكم بالناحية الفنية التقنية ؟

– ربما . والحقيقة أنني لست بفنان . الا أن هذا التمييز يصح ايضاً عن بلزاك فقد كان انجلز يقول عنه : لقد كان رجعياً في كتاباته ولكنه كان يقدم تحليلا لزمنه أكثر تقدمية من كل من عاصره .

● كيف يبدو لكم الضياع في الاعمال الادبية العربية المعاصرة التي كثر فيها الكلام عن الضياع والقلق ؟

– كل تعبير أدبي هو ضياع بالنسبة للحقيقة التي يريد الفنان الوصول اليها . وعنه ينتج ألم وحزن الأديب والفنان . لأن كل فنان يشعر في قرارة نفسه أنه مرتبط ببعض الشيء كي يصل الى ما يريده . وبصورة عامة نعود الى فكرة هيجل : ان كل موضوعية ملزمة في آن واحد .

والتفسير الاجتماعي موجـود في الواقع الاجتماعي ذاته . لقد ادى التطور التاريخي عند العرب ثمن الضياع والقلق مثلما حدث لشعوب اخرى من قبلهم ومن بعدهم . واذا كنا اليوم نجد تجاوباً بين جان بول سارتر والبيركامو وغيرهم من الوجوديين ، رغم ان الضياع عند

هؤلاء مقتصر على حادثه سطحية ، وبين الكتاب العرب فذلك راجع الى التجاوب الطبيعي العاطفي لما يعانيه ادباؤنا من قلق .

والشيء الذي اريد ان أؤكد عليه هو انني لا استنتج من فكرة القلق والضياع مايستنتجه المتشائمون من عبث المشروع الانساني مثلا . كلا ، انني أؤمن بالمشروع الانساني ولو كان لابد من دفع ثمن نجاحه قلقاً وضياعاً ، اذ لابد من هذا الثمن للوصول الى مراحل أعلى من الضياع والقلق .

● وما رأيكم في الوجودية اذن ؟

– انهـــا ظاهرة زمنية عابرة ، لن يلبث الانسان ان يتخطاها . وهي ليست روحـــاً Essence وأنا لا أستنتج منها نتيجة متشائمة بل واقعاً يجب ان نعترف به وانه طريق نحو ماهو أعلى واسمى وارفع ، ومن هذه الناحية فانا اتفق مع التفاؤلية الماركسية .

● هل يمكن لكم ، من الناحيـــة الاجتماعيـة ، تفسير الجنس تفسيراً صناعياً ؟

– طبعاً ، فالموضوعية الجنسية تجر ضياعاً ، فكلـــما اغتنت ونجحت ازداد الضياع . من المؤكد مثلا ، ان العلاقات الجنسية بالنسبة للمرأة المتطورة ، هي ذات مشكلات عميقة اغنى بكثير من العلاقات الجنسية التقليدية أو البورجوازية . الا ان هذا الغنى لا يحـــدث الا ويجر وراءه ضياعاً صعباً قاسياً ، وهذا هو سر الشعر الروماني عامة . وهكذا وكما ترى فانا اجمع الظواهر والاطوار والانواع للســلوك الانساني في جملة واحدة . وليس الاسلوب الاجتماعي في تحليل الانسان سوى هذا الجهود في الاجمال او بتعبير آخر ؛ الرجوع الى شمولية الانسان ذاته .

● هل لكم أن تخبرونا عن مصـــير ظاهرة الضياع الانسانية هذه ؟

– هناك جهود يائسة ، وقلق يصعد ويتمادى ، واعتقد ان هذا القلق وهـــذا اليأس ، وهما مؤقتان ، سيكونان فخراً للعرب في صيرورة العالم ، لانهما ناتجان عن جمعهم للكلاسيكيـــة والتاريخية معاً . مثلنا نحن الفرنسيين ، فمشكلتنا مشكلتكم انما تطرح على صعيد آخر ، فقـــد شاء الحظ أن نكون متقدمين عليكم في الاشتراك الفعلي بالحضارة الصناعية ، وانتم متأخرون عنا في هذا المضمار ولـكنكم سائرون في تدارك هذا التأخر واستعاضته .

● الديكم ماتريدون قوله لقرائنا ؟

– انه لسرور لي ان اتكلم مـــع المثقفين السوريين عبر (المعرفة) ، وربما كانت سورية مع الجزائر ، البلدين الوحيدين بين الدول العربية التي ينطبق عليها التحليل الذي ذكرته . ولي رجاء : لقد وضعت في كتابي الاخير «انتزاع ملكية العالم » الشيء الكثير من نفسي ، وحبذا لو ناقشه مفكروكم ومثقفوكم ، وأكون جد سعيد باستلام نقد او تحليل لأفكاره .

●

١ ـــ تفسيرات للتاريخ

٢ ـــ اساطير التكوين في الشرق الادنى

تفسيرات التاريخ

تأليف : البان وايد غراي

A. W. GREY

يتساءل المؤلف في هذا الكتاب عن التاريخ الانساني : ماهي طبيعته ؟ وما هو معناه ـــ إن كان له معنى ؟ ثم يستعرض الاجابات المتعددة لهذا السؤال الشامل .

ان الاوروبي المتدين يجيبك اليوم على مثل هذا السؤال بأن فقدان المقاييس الاخلاقية أمر يدعو الى اليـــأس . ومع ذلك فان الاخلاق والديانات عند الشعوب الاخرى تقف تجاه مظاهر التاريخ مواقف اكثر تعقلا وتوافقاً مع التاريخ، فما يثير دهشتنا أن نجد الصينيين واليونان القدماء يقفون موقفنا الحديث من حيث التقبل والرضوخ لحدود العقل ، ولامكانيات العقل المحدودة .

من هذا السرد البسيط نجد أن قيمة الكتاب تأتي من اتساع نظرته لقضايا العالم وتفسيراته لها ، كما أن حسن تصميمه يجعله مقدمة ممتازة لأفكار عظيمة عن الانسان والكون .

ان المؤرخين الصينيين القدماء أبدوا القليل من الاهتمام بالتأمل الكوني: فهؤلاء الناس العمليون دونوا يوميـــات ومذكرات عن الصراع بين السلالات الملكية ، دون أي استثناء اخلاقي لقضية من القضايا الانسانية المتشابكة ، لأنهم يؤمنون بأن الانسان جزء من (الطاو) أي من الطريقة التي تتقدم بها الطبيعة وتزدهر ؛ وبذلك لايستطيع الانسان أن يكسب شيئاً من الصراع ضد الطبيعة. وهم لايواجهون النكبات بأية تعلات تعوض عن الشقاء الانساني لا في هذا العالم ولا في العـــالم الآخر ، وانما يتخذون منه موقف الهدوء السلبي في العقل والجسد . ان لاوتسي يشابه الابيقوريين

من حيث أنه لايتوقع الا القليل من خيرات العالم، ولذلك ينصح بالابتعاد عن الأذى بواسطة السلبية والهدوء والرقة . ويرى الفيلسوف شوانغ تسي أن الحياة بعد كل ذلك ربما كانت حلماً يعتبره الحمقى يقظة : « لذلك دع الاشياء تغير نفسها بنفسها . » أما كونفوشيوس فبالرغم من أن تعاليمه ذات صبغة ايجابية من حيث الاخلاق الاجتماعية ، فانه قد اسسها على السلام الداخلي بحيث اصبح نموذج الانسان المثالي بالنسبة اليه هو الشخص المهذب الهادىء الذي لايثور بسرعة .

انمعنى التاريخ بالنسبة لهذه الفلسفة «موجودة في الحوادث كما تجري» والناس ينالون مايستحقون. والغضب والحسد هما الجحيم الذي يحرق الناس انفسهم فيه . أما الشخص الطيب فهو الذي يسلط نور العقل على رغباته ويستمتع بذلك حتى إنه ليتبنى جوعه ومشاعره . والحكيم الذي يؤدي واجبه مهما كان وضعه انما يشارك في الانسجام الاخلاقي بين القوة والعالم . أما بشأن التاريخ ، فان (الزمن يترك آثاره لنتخذها عظة لنا) ومع ذلك فيجب أن نتقبل الامر الواقع ، بأن التاريخ هو كل مانملك والحياة هي الحياة في هذا العالم فقط . ولم يتكلم الفلاسفة التقليديون في الصين الا عما يعرفونه ، خوفاً من أن يتخدعوا عن العالم الآخر شيئا وراء معرفتهم .

وعلى العكس منهم كان الفلاسفة الهنود : فقد قطعوا صلتهم بكل ماهو وقتي وفوري ، وقدموا تعاليم انهزامية وانعزاليــة . غير أن فكرة التقابل بين كارما وموكشا تنطوي على مغزى عميق من الواجب الاجتماعي ، فهم يرون أن تقدم الروح الفردية (الكارما) ينتهي بها الى اقتداء البشر (موكشا) وبذلك تتشابه الفلسفتان الهندية والصينية في أنهما كلتيهما تعتمدان على الاخلاق الفردية . أما التاريخ فليس فيه الا القليل ليتعلمه الانسان . وتقوم تعاليم بوذا على احتقار الطبع الانساني المتقلب ، ومع أن الرجل العادي يجب ان يشترك في احداث العالم « بمنتهى الهدوء ويوجه تأثيره نحو الخير في كل نواحي الحياة » فان التاريخ بالنسبة للبوذية والهندوليس الا وهماً ، فاذا آمن الانسان بذلك استطاع ان يبلغ السعادة ويعيش في هدوء .

أما وجهة نظر المسلمين للتاريخ فانها نظرة بناءة أكثر مما سبقها ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتنقت تعاليم الوحي القرآني فان ارادتها حينذاك تتطابق وارادة الله ولا يعود يوجد من يعصى اوامره ويعم الاخاء بين البشر . ومن صفات المؤمن انه صابر ويعلم ان لامرد لارادة الله .

ويختلف المسلمون عن الصينيين والهنود في أنهم يأملون بالحياة الآخرة . وقد قدموا افضل فيلسوف للتاريخ في القرون الوسطى ممثلا بالفيلسوف ابن خلدون . وكان اول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التي تعمل عملها في الحياة الانسانية وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها . ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على افكار فلاسفة التاريخ المسلمين: المفهوم الحركي والمفهوم القدري، وكلاهما يظهر بوضوح في تفسير تقلبات القوى الاجتماعية.

←

أساطير التكوين في الشرق الادنى

تأليف : ج . ف . براندون

G. F. BRANDON

ان مشكلة بدء الخليقة ملازمة دائماً لحياة الانسان ، واذا كان تقدم الأفكار العلمية والمعرفة الانسانية في هذه الايام قد غير من نظرتنا الى العالم وبدل بشكل مادي مفهوم التطور الخالق فان مفهوم الخلق والاعتقاد الشائع بأن للعالم بداية قد فقد شيئاً من قدرته على اثارة الخيال لدى عامة الناس . أما الانسان البدائي فيبدو انه كان يهتم بمعرفة الأصول بقدر ماتؤثر هذه المعرفة على حاجاته الدائمة وقلقه وملاحظاته .

من هنا كان من الممكن أن نقبل نظرة المؤلف التي أوردها في الفصل الاول من هذا الكتاب القيم ، والتي يقول فيها إنه قبل أن تظهر الأساطير في الشرق الادنى بصورتها النهائية « لعبت ظاهرة الولادة دوراً رئيسياً في امداد العقل الانساني بالمفهومات الاولى عن البداية » . ولو فحصنا وثائق العصر الحجري المتوسط لوجدنا أن تماثيل فينوس (المرتبطة بفكرة الخصب) ترتبط ارتباطاً وثيقاً برسوم الكهوف من حيث انهما تثيران

→

هذه باختصار ، أهم ملامح علم تدوين التاريخ وتفسيره عند الامم غير الاوروبية ، اما اوروبا باتجاهها العقلاني والمسيحي ، والغرب بوجه عام، فانها تميل الى البحث والى ايجاد تطابق تام بين أحداث الماضي ، ونجد اليوم ان الماركسية التي تدعي انها قادرة على شرح التقدم بأجمعه ، بل وعلى التنبؤ للمستقبل ، قد تأثرت بالنزعة الشكية الوافدة الى الشرق من الغرب . ونجد أن ازدياد المعرفة الصرف والخبرة الآلية قد اديا الى ازدياد النزعة الشكية بين المؤرخين الغربيين التقليديين . فنحن على الاقل نلاحظ أن سيطرة الانسان على محيطه في تزايد وان دائرة عقله تتسع ومع ذلك

فان الايمان بالتقدم قد تعرض مؤخراً لنقد شديد بعد ان ظهر في القرن الثامن عشر على يد العقلانيين عند نهضة العلوم ، ومع ان اوروبا قد نبذته فان هذا الايمان مايزال يسود الولايات المتحدة وروسيا وكل البلاد الواقعة على حوض الاتلانتيك .

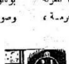
اما في هذه الايام فعلينا أن نتذكر قول الفيلسوف الصيني في القرن الثالث فهو قد لاحظ إن (الناس حين يتكاثر لديهم السلاح فان الظلام والشر يعمان على الاسرة والدولة ، وكلما ازدادت المهارة لدى الناس ، اصبحت اختراعاتهم أشد هولا . » وعلى كل فقد تأخرنا كثيرا حتى بات من المتعذر علينا أن (نترك الذهب في الجبال واللآلىء في البحار . »

الى (فكرة المبدع تبعاً الى فعل الابداع الشخصي) على أن من الواجب أن نتذكر أن لرسوم الكهوف أصولا في السحر الديني الذي يمارسه البدائيون عند الطراد . ومهما يكن من شأن بزوغ هذا الفن فان التأملات الكونية لم تظهر قبل الالف الثالث قبل الميلاد في النصوص الهيروغليفية في مصر ، حيث تربط هذه النصوص بين فيضان النيل وفوضى الكون ، وكذلك الشأن في الحضارة السومرية بالنسبة لفيضان الفرات ، ان النصوص السومرية التي تبحث في الخليقة تبين اهتمام السومريين بالاصول ، غير أنهم عبروا عن افكارهم بانشاء أدبي يهتم بتعليل الظواهر ، في حين أن قدماء المصريين قدموا أفكارهم بنظريات دينية . وقد تطورت أساليب التعبير عند السومريين حتى اصبحت تشمل المصائر النهائية للانسان والكون . ويطبع التشاؤم نظرتهم بطابع أدبي مميز .

ولو دققنا في نظرية الساميين لتعليل خلق الكون لوجدنا أن غياب الصراع بين الخير والشر قاد الى ابداع الكون والانسان . وهذا ظاهر في سفر التكوين . وقد اكتسب الانسان المعرفة بعد أن أقدم على الاكل من الشجرة المحرمة ، ويفسر هذا الرمز على أنه الشعور بالجنس ، اما انحلال الموت الذي يلي الحياة فهو نتيجة القدرة على استمرار الخليقة . وبما أن شجرة المعرفة تجاور شجرة الحياة فيبدو أنهما تتصلان بالموت بطريقة أو أخرى . ويفسر المؤلف كون آدم مخلوقاً من التراب بأن هذه النظرة مستعارة من البابليين الذين يعتقدون بوجود (أرض لاعودة منها) .

ولو وضعنا هذه الاساطير الى جانب أساطير اليونان لوجدنا أن اساطير الشرق الاوسط قد انتقلت الى الاغريق في العصر البرونزي . ويلاحظ المؤلف أن هومر وهسيود لم يعنيا بأصل العالم أو الانسانية ، وهما يعودان بالامور الى (عصر الآلهة) والمعتقدات الشعبية المحلية . أما في ايران فثمة عناية شديدة في مشكلة أصل الشر ، فهم يفترضون أن لأهورامزدا روحين إحداهما خيرة والاخرى شريرة .

ان هذا الكتاب أطرف دراسة عن فلسفة الكون عند الشعوب ، وقد دعمه مؤلفه بوثائق وترجمات مفيدة ، مع رسوم توضيحية وصور تاريخية .



عودة توفيق يوسف عواد ....

في السائح والترجمان

بقلم وليد مدفعي

« وكان يأخذ بخناقي بحضرة الملوك ، ويقولون لي : أنحن ! فيصيح في عيني ، لغيرها ما انحنيت ولن افعل . »

هذه الكلمات عبارة المؤلف ، اوردها في الاهداء مع غزل رقيق . الغزل والعبارة والاهداء للموهبة .. موهبة المؤلف نفسه ! الموهبة التي عادت اليه ، فعاود الاستاذ توفيق يوسف عواد سيرته الادبية ، وكان قد انقطع عن التأليف مايقرب من عشرين عاما ، وانجز اليوم كتابه السائح والترجمان ، ودخل به الى السوق الادبية ترافقه ضجة صنوج الصحافة اللبنانية ، وما اخطر المنزلق عند تقويم كتاب صاحبته الفرق الموسيقية اللبنانية .

لون الكتاب الأدبي ..

أمسرحية هي???

« اذن تمنيت لها ممثلين على مستوى الالهة في الانسان ، وهم على كل حال ، اعظم من آلهة بعلبك »

هذا هو تساؤل المؤلف في مطلع كتابه ، وهو تساؤل شك لاتساؤل يقين لان ايمان المؤلف بقدرة الانسان لاحد له .

وجواب النقد بأن السائح والترجمان مؤلف استخدم الحوار اسلوباً يعري به الالفاظ بدلا من رصفها مكدسة في خطوط ، مقيدة بخيط السرد . فالحوار الموجود في الكتاب ليس حوارا مقتناً ليحدد معالم شخصية انسانية ، بل هو لون

من التشدق بالقيان تلوكه أفواه خمسة . انه حوار فني فلسفي ، غير مقيد بالوحدة التمثيلية ، ولكنه مقيد بالوحدة الفكرية الفلسفية ، ومقيد بارادة الشاعر بأن يقيم عملا خلاقا مبدعاً ، ومقيد بالرؤيا التي الحت في نفسه وكانت الهاماً وقوة باعثة .

بملء الفم اقول عن توفيق يوسف عواد في السائح والترجمان « شاعر » . جذبته التجربة الشعرية حتى سدرة المنتهى فهو يروم بلوغ المطلق فلم يعد من ضرورة للبحث في الكتـــاب عن التحديدات الكلاسيكية . ولم يعد في الوقت ذاته من مبرر لوجود اية حواجز مسرحية او اية أصباغ .. وماوضعه المؤلف من اشـــارات هي من خصائص المسرحية اعتقد جازما بأنه اضافها بعد انتهاء التجربة الشعرية ، في نشاز في اكثر من موضع .

ان كتاب السائح والترجمان كتاب حواري فلسفي مجنح بشاعرية نقية . ومن هذه الزاوية فليتصد النقد لسابرة الكتاب .

التجوبة الشعرية ...

المطلق يفسر نفسه ، ولا يحتاج لما هو ادنى من المطلق ان يكون موضحاً له ومـــبرراً . فاعطاء السائح للترجمان مادة بيضاء ، ينتشقها فيتم بها تبرير الرؤيا ... قد اضعفت من انطلاقـــة الشعر في الجزء الاول بدلا من ان تزيده رحابة . لان الوحي في تلك الصور الشعرية هو الاداة الحقيقية للرؤيا .

ان الشعر الصافي يرتبط بالضـــرورة بنبع الكلمة ، والكلمة بالنغم الشعري ، وهما يحملان دائمـــاً الرمز والسيالة النفسية . وعندما تصل القصيدة الى الذروة تقرر بشكل حاسم مصير المواطف الانسانيـــة والظروف التي خلقت من أجلها هذه المواطف . وهي تقف آنئذ بين حدين : حد المطلق الذي انبثقت عنه وحـد النسبي الذي وصلت اليه .

تحمل الصور الشعرية في السائح والترجمان ، اطيافاً من الذات الانسانية ، وهي ذات أسئلة حائرة لا يموت السؤال فوق شفتيها المعذبتين . ويظل هذا السؤال الحائر المرتعش يدفع الشاعر الى التمرد ، فهو متمرد على الزمان على لسان الترجمان والنحات ، ومتمرد حتى عـــلى الخلق الشعري نفسه ...

القصـة . . .

القصة بسيطة جداً ، زيارة سائح لآثار بعلبك بصحبة ترجمان ، السائح هو البحث والتوق الى المعرفة ، بينما يمثل الترجمان السجل للحوادث ، وهو مفتاح التاريخ .

خلال الزيارة يلتقي السائح بالنحات ، والنحات تعبير عن الانسان عبر الاجيال المتمادية في القدم . فالنحات قادر على صنع آلهة بعلبك ، وهو قادر على صنع الآلة وقادر على ان يجسد حضارات متعددة . انه رمز للانسان في طموحه وآلامه وآماله . لكن واحدة من اعماله لم تسكت التساؤلات في اعماقه ولم تملأ الفراغ في مأساة وجوده لذا فهو مايزال قلقاً على مصيره بـــين دوامة الماضي والحاضر والمستقبل .

وفي نهاية القصة يجتمع السائح مـــع رجل المريخ وهو تعبير اورمز لانسان المستقبل الاكثر ادراكا والاكثر وعياً ، وعلى لسانه

تطرح الحلول لمشاكل الانسانية ، وهي حلول نظرية يطرحها المؤلف على بساط البحث.

يرافق القصة صوت الزمان ، وهو صوت المؤلف أو وحي الشاعر الذي ملأ الفراغات في القصة ليحقق الوحدة الفكرية في الموضوع ويلفها بغلالة براقة من الوان قوس قزح.

يختفي العالم المسحور أو الجو السحري ، الذي خلقه الكاتب من الوهم بمساعدة مادة بيضاء هي الهيروئين ، ويلتقي السائح مع الترجمان بين اناشيد جوقات متعددة تذكرنا بجوقات فاوست في حفلة الابالسة .

الافكار ...

الكتاب مليء بالرمز ، والرمز غير مقتصر على الشخصيات ، وغير مقصور على المشاهد والاحداث بل الكلمات نفسها ، تنفلت هاربة من معانيها القديمة لتستعير رافع جديدة ، تتحدى فهمنا أو تضيع في سديمية فيي جيوب فارغة لم تتشكل بعد.

الراقصة في ابتداء المشاهد رمز الحياة المتفجرة باللذة والرغائب العميقة . والاسد هو القوة البلهاء والعامود المائل هو مصير الانسان المجهول ، والاقامة في ظله تعبير عن القدرية .

ويتحدث المؤلف من خلال هذه الرموز ، فيقول بأن بذرة الخلود موجودة وهي في دوران واستحالات لاتنتهي ، ضمن دائرة تحوي في مركزها الخير وتحوي في الاتجاه النابذ الشر ، فالخير والشر اخوان سياميان متلازمان ، ولكنهما يتحققان في اتجاهين متنافرين .

والوجود ازلي لاغاية له سوى الوجود ، والمادة في صيرورة ، ولا انعدامية ، والموت والولادة وسيلتا المادة في اعادة تشكلها .

ويتحدث المؤلف ايضا عن الحروب والتطاحن البشري ، بفلسفات بعيدة عن العمق ويتساءل عن الرأي العام ، ولكنه يبتعد عن تعريفه والخوض فيه ، ويبتعد عن اعطاء اي رأي جازم في هذا المجال . ثم يداعب شخصيات سياسية واجتماعية فيصفها ساخرا منها ، في حوار مشابه لسخرية برنارد شو من هذه الشخصيات . ولا ينسى أن يجد الشعر كقيمة انسانية رائعة .

القصائد في الكتاب ، تصف القديم والحاضر والمستقبل ، وتحوي صورا قرآنية ، وتعبر عن الحنين والغربة ، والامل والشروق ، وكل ذلك بالفاظ صافية منتقاة ، وبصور حركية عنيفة.

نماذج من الكتاب

والشمس والقمر يدوران
في الفلك
مايفتآن
يضحكان
ويسكبان
الحلك !
والليل والنهار
يطويان
على الاوار
الاعمار !
والاقدار

خرس لاتجيب
بغير الصواعق في الحوار
العجيب .

* * *

شاهدة انت ايتها السماء
طال ما اشتاقت الاودية الى لقاء الجبال
فلترتمِ الجبال في احضانها !
وطال ماتحرقت القفار
عطش الازل
فلتزحف اليها البحار
تنبت ازهاراً ليس لها اسم
وثماراً طعمها العدم
ولتصفع اللعنة وجه الصباح ! . .
نادي ابهادي الموزعة في كل افق
لي موعد لقاء
على عريك .
اضجعي تتكسر كبرياء الشمس عليك
تنسكب لانهاية السماء في عينيك
تستو هيبة الليل في نوديك
ينعقد الهلال بين راسك واخمصيك !
او انهدي تنسحق روعة الذرى على نهديك !
او موجي يتدفق البحر في عطفيك !
و ارقصي ترقص العطور
وتطلع الزهور
تحت قدميك !
« وأحب » قولي يفرد العصفور
على شفتيك

* * *

النحات _

ايعجبك هذا ايتها السماء ؟
ويكلفني ماذا ؟ ان أمد يدي .
ولكنك تعلمين انها ليست يدي — هذه —
ولا أنا احسها مني . وشاهـــدة انت انني
باليد الأخرى أداعب طفلا يناغيني
وأغني له اغنية حلوة . . .
بريء أنا أيتها السماء ! لاتتهمي !
الخطيئة ليست خطيئتي ! ليست خطيئتي !
ماذا ؟ اتضحكين ايضاً ؟ !
اثقالك على رأسي وتضحكين .
ارفعي اثقالك عني
ارفعيها !
او اطبقي بها علي ، ما أبالي !
ليس الشيء ان أكون او لا أكون .
الشيء _ ذلك الشيء — ان اخرج مـــن
حدود نفسي !
ايها الاله المارد ، اين أنت ؟ !

صيف أفريقي

للكاتب الجزائري محمد ديب

مجموعة صور من نضال الشعب الجزائري

عرض وتحليل عبد الوهاب السمان

لا أريد ان اغمط الكاتب الجزائري حقه في كتابه « صيف افريقي » الذي اخرجته مديرية التأليف والترجمة في وزارة الثقافة والارشاد القومي ، وقام بترجمته الاخوة اجورج سالم وعبد المسيح برنار ، وراجعه بدر الدين قاسم . لأنني اذا فعلت اكون قد اجترأت على عمل فني له اطواله وابعاده في التقييم والاصالة .

ولكن لابد من تقليب صفحات الكتاب ، ابتداء من الغلاف حتى نهاية المطاف ، مروراً بالقصة من مبتداها الى منتهاها ، بحثا عن المشاركة الوجدانية والقومية التي تحلى بها هذا المؤلف ، ومن ثم لنضع بعض المقاييس الفنية للقيم التي شملها أو أغفلها كاتبنا الجزائري محمد ديب ..

فالثورة الجزائرية التي ضربت اروع الامثلة في عالم الثورات ، كانت في مستعر اوارها ، أي ان المعارك وان كانت لم تدخل بعد في دور التنظيم الشعبي والنضالي على مستوى القضية الجزائرية ككل ، الا انها كانت قد بلغت ذروة التأجج القومي . وثمة حلقات كان الواجب العفوي لطبيعة النضال ، والشعور بالكرامة الانسانية والعزة الوطنية ، يشدها بعضها الى بعض ، لتكون النواة الاساسية لنضال دام سبع سنوات ، وتكلل بالنصر والنجاح .

ومن هنا فقد انطلقت اولى بواكير هذا المؤلف من هذا الجو المشحون بالالم والثأر والتيقظ .. وكان المستعمرون الفرنسيون قد احسوا بلسع السياط النضالية ، وتنبهوا للشعور القومي المتأجج في صدور الجزائريين ، فثارت

لابحر في بيروت

مجموعة قصصية لغادة السمان

نقد : وداد سكاكيني

لما ظهرت المجموعة القصصية الاولى لغادة السمان رافقتها ضجة في الصحافة ترامى الي صداها وانا بعيدة عن دمشق ، فتساءلت بيني وبين نفسي هل تكون غادة الجامعية الموهوبة راضية عن هذا الضجيج حول قصصها ، وقد تعودنا ان نرى الزفات والدعايات قائمة من أجل أي كتاب يراد تجسيمه او اعطاؤه قيمة معينة ؟ ، على ان غادة التي حملت القلم بعد ان تزودت بثقافة فكرية واصالة في الادب، لاترضى حقيقتها بالمجاملة الصاخبة التي ترددت لدى ظهور المجموعة الثانية التي سمتها « لابحر في بيروت » ، وماكان اجدر الاقلام التي جاملتها بأن تتناولها بالدراسة المتأنية والنقد الموضوعي .

أما العنوان فأول مايثير التساؤل، وهل كانت بيروت الا بحرها الزاخر وهي تغسل اقدامها اللبنانية على شطوط الحوض المتوسط بدلال وكبرياء ؟

وكيف أصدق أن بيروت من غير بحر ،وقد فتحت عيني ودرجت على شط هذا البحر ورمله، لكن القصصية الجديدة أحبت الجدة والغرابة في التسمية والرمز في شيء من التورية والوهم ، مسايرة للشوق الحديث في عناوين الكتب وماتثير من اغراء وتخيلات ،ولعلها تأثرت بالموجة الحائرة التي اقتحمت أدبنا الحديث من بحر « اللامعقول» الذي طلع به الاديب المترف الاستاذ توفيق الحكيم في مسرحية « ياطالع الشجرة » كدأبه من حين الى حين في جذب الانظار والافكار الى آثاره الفنية المتنوعة .

والكلام على هذه الموجة لامحل له في موضوعي هذا لولا اني وجدت الادبية القصصية « غادة السمان » في مجموعتها الثانية أكثر رمزية وعناية بتسخير الالفاظ الشعرية الملونة لتصوير لوح بعد لوح ، في كل قصة ضمتها مجموعتها، وكنت أحسب أن غادة في أسلوبها الخاص بها ستترفق باختزال الكلام وحصر الجمل في التعبير المندفع لكني وجدتها تضيق بالاختصار ، فان خصب الموهبة لديها، وزحمة الصور يغمر اداءها ، فجاءت قصصها محتشدة في ظلال متعاقبة وألوان صارخة متشابهة ، على اني لاأتجنى على الاساليب ، لانها ملك اصحابها وهي مرايا صادقة لهم ، غير ان عبقرية اللغة العربية وميراثها الفني في الشعر والنثر أمر ليس ملك الكاتب او الشاعر او الناقد وحده وانما هو ملك الامة في سلسلة تاريخها وترادف اجيالها وعصورها ، فالجملة العربية التي كتبها ابن المقفع والجاحظ والعقاد والشهابي وجبري والفاخوري رصد على حياة اللغة وآثارها ، وهذه ظاهرة جديدة ألفت اليها نظر النقاد في الاساليب المستحدثة التي يريد ذووها ان يجددوا فيها .

اما محتويات القصص التي عبرت عنها غادة في مجموعتها : « لابحر في بيروت » فنضوحة من روحها الشفافة وموهبتها السخية وخيالها الخصب الذي جمح بقلمها في كثير من صورها وابعاد حوادثها وشخوصها ، وكنت أوثر لقصصها التجاوب مع الواقع الاجتماعي الملموس الذي اخرجه فنها عن أصله ، إذ يرى فيه كل قارىء عربي على اختلاف الوعي والآفاق مايشاهده في الحياة الراهنة لامايراه في الاوهام والاحلام ، وربما يجده في بيئة محددة لافي الوجود الذي يعيش فيه الجمهور .

واذا تحيرت من هذه المجموعة فمن ماتتناوله مياسم النقد ، وأنا أعلم أن غادة الناقدة تقدر أثر النقد ، ولاتستفظع رسالته التي أصيبت في بلادنا بأزمة اخلاقية حتى رأينا كل ذي موضوع او كتاب منقود عدواً للناقد .

وغادة الحسناء تعرف ملامح الجمال والابداع في الانوثة روحا وشكلا ، وماأحسبها اذا رأت خصلة من الشعر نابية في تسريحة فاتنة الا نبا عنها نظرها وأدركت نقص الجمال فيها ، فارتاحت للدلالة ووجدت وظيفة المشط والمرآة أساسية في التجميل .

وكذلك شأني في نقدي لصور وانطباعات في قصصها كنت احب أن تكون اقرب للحقيقة في البشاعة والفتون على السواء ، فقصة « نداء السفينة » تأبت أكثر سطورها على الفواصل ، واذا التمست لغادة المثقفة المجددة عذرا في اندفاع كلماتها المفعمة بالمعاني والخواطر، عاد بي هذا العذر الى الكتب الصفر في تراث التأليف العربي ، اذ كانت تخلو من اية فاصلة حتى يركب الكلام بعضه بعضا ، فهل تذكر غادة في هذه الطريقة قول ابن المقفع حين سألوه : ما البلاغة في النثر ؟ فقال : معرفة الفصل والوصل .

ان غلبة الازياء الوافدة هي التي تسربت الى الاقلام الجديدة فأخذت بها واتبعتها ، وموضوع « نداء السفينة » كأكثر قصص المجموعة ليست بذات موضوع محتوم ، لان غادة التي تسعى الى الابداع والتجديد تأبت على الطريقة التقليدية في

بناء القصة ، فليست لديها حادثة محددة ولا بداية ترمي الى النهاية بل تجد في قصصها صوراً متلاحقة وافكاراً متشابكة المرمى تعبر عن الحيرة والاضطراب في تطور الفتاة الحديثة التي تريد لتنطلق فتعترضها الحدودوالقيود ، وينطلق التعبير الفني لغادة في تصور هذا التوثب والتحدي بما تجد من موضوعات تلائم حريتها الفكرية ، وقد لا تلائم البناء القصصي المعهود .

واذا تتبعنا خط السير لدى الموهوبين من الادباء والأديبات فيا يتجاوب مع تجاريبهم وخواطرهم ، فاننا نجد الفكرة الرمزية لا ترضي ادب الشباب ولا تنفعه ولم تكن أشعار بودلير وفيرلين ثم فاليري رمزية في اول عهدهم بالكتابة والظهور ، لكنهم اخذوا بها حين تعمقوا الحياة والاشياء ، ومضوا في أعمالهم الفنية والادبية حتى ظهرت بعدهم اساليب مستحدثة فيها غموض وثورية وقلق والتباس ، ثم برز «اللامعقول» في ادبنا الحديث واخذت طريقته وحكايته الى محيي التجديد ، فهل يكون تفتح الزهر في مطل الربيع مقبولا اذا ألقينا عليه غشاوة كالزجاج تحول بيننا وبينه ، فلا نستطيع ان نتنسم الشميم بعطره ونفحاته ، ولا نستجليه أنظارنا كما نشاء .

إننا نريد من ادب الشباب الذي تمثل اصالته ونضرته وعمقه غادة السمان ان يبدو لنا على سجيته مقبلا علينا بمباهجه او متاعبه الصادقة لا أن نسعى وراءه لنتبين حقيقته ونزيح عنه حجب الفن والجمال . ولكي يكون للاديبة المرموقة غادة رسالة في فنها ووجهتها ينبغي أن تكون مسؤولة عنها ، ومن أولى من غادة بالتزامها وهي التي برزت من بين الاديبات في سورية بثقافتها ووعيها المتحفز وقدرتها على التعبير الادبي بلغتها التي احبتها واجادتها .

وأي اديب او اديبة لم يتمكن من العربية في الدراسة والاداء عاش متهافت البناء مهما تكن استعارته لأقنعة الجندي المجهول ، وما أهون هذه الاستعارة التي شاعت لدى الزيوف .

ولا أعجب لتجارب غادة السمان في مرح تفكيرها وانطلاق خيالها في تعبيرها وتأملاتها ، حين زعمت في مجموعتها الثانية ان «لا بحر في بيروت» وما كانت بيروت التي يرف عليها نسيم الالهام الا منطلقاً لمواهب الفن والادب ، ومجموعة غادة في قصصها الاخيرة ، ألوان وظلال تموج فيها نسمات ندايا من أدبها الملهم ، وفنها الظمآن الى التجديد .

« أعيـاد »

مجموعة قصص عراقية

للأديب عبد الله نيـازي
منشورات (دار الآداب)

عرض وتحليل خليل هنداوي

ان في هذه المجموعة احدى عشر قصة ، ولها مقدمة بقلم الكاتب نفسه ، تحلل الكثير من مذهبه في كتابة القصة ، ولماذا اختار هذا اللون من القصص الذي اتبعه ؟

في هذه المقدمة أشياء ذاتية تتعلق بالكاتب نفسه ، وأشياء موضوعية تتناول جوهر القصة، ومعنى الفن ...

ولا بد لنا أن نخوض مع الكاتب في هذه المقدمة ،لأنها تيسر لنا الطريق الى دراسة قصصه، فالكاتب يشعر بانه مخلوق لهذا اللون من الادب، بالرغم من بعض العوائق التي كانت تحول أحيانا بينه وبين متابعة الكتابة . واهم هـذه العوائق مايشعر بها كل اديب عربي في هذا البلد ، حين يجد نفسه موزعة بين الادب الذي يناديها ، وبين المادة — مادة الحياة — التي تردها الى واقع النضال من اجل كسب لقمة العيش ... ولا شك أن هذه المادة — عدو الفن — قد خنقت ولا تزال تخنق اصوات الحق وتمحو اطياف الجمال ، لأن الروح لاتحيا بدون مادة ، والمادة لاتنهض بدون لقمة الخبز ...

ولذلك بات الفن — عنده — وليد جهد وعرق وتمزق يستنزف دم صاحبه قطرة قطرة ، دون أن يبلغ الارتواء . وهو لاينمو الا بدم الفنان ، وأعصابه ، وقلقه الذي لاينتهي . والفنان نفسه لايخرج عن كونه انسانا يشبه الجميع ،دون أن يشبهه احد .. أفيا للفنان الذي لايقلقه الا مصير الانسان !

ولكن ، الى أين المصير ؟ وما هي النهاية ؟

وما هي هذه الحيـاة التي تتقاذفها الاعاصير بدون غاية ؟

انها ضجيج حياة مغلولة بألف قيد وقيد ...
انها صراع دام على رقعة ارض تتسع لمئات المقابر ،

بل هي — عندي — مقبرة واحدة تضم القصور قبل القبور !

انها وجود مرعب لانعرف عنه شيئا ! حيث « تنتصب العبثية امامي بأقسى صورها ! فراغ !

لاشيء ! كأس هنا ، وثرثرة هناك ...

ياترى ،هل نحن ننطلق من العبث، الى العبث؟»

هذا هو وجه الحياة ـ عند الـكاتب ـ كما تمثله في مقدمته ، وهو وجه قاتم ، يدعو الى الاشفاق على هذا الانسان ، وعلى كل انسان... وقد يكون بعض هذا القلق نابعا من ذاته ،وجو حياته ، ولكن اكثر هذا القلق عندي انما ينبع من ذاتنا الضائعة ، القلقة على مصير محتوم ! فذات الفرد هي الشعب ، وذات الشعب هي الفرد .

وينتقل الـكاتب ـ بعد ذلك ـ الى تحديد منزلة القصة في الادب العربي ، فيجدها غريبة ، ليس لها في الماضي جذور ثابتة ، وهو — في تقريره — هذا لايريد أن يسيء الى الادب العربي الذي لايملك القصة ، شأنه في ذلك شأن كل ادب ...

والفن — عنده — ممارسة ، والممارسة تأتي مع الموهبة ، والفن لايجب أن ينتظر الوحي، بل يواصل استدعاءه دائمـا . ولا بد للوحي أن يستجيب ...

ونحن لانختلف مع الـكاتب حين يجعل الممارسة شرطا من شروط احياء الموهبة ... ولكن الوحي اذا صح استدعاؤه — في القصة — باعتبار أن القصة تستمد عناصر وجودها من الحياة والاحياء، فهل يبقى الوحي خاضعاً دائما للاستجابة في غير القصة؟

اني أشك في ذلك ، ولا سيا عندما يكون الفن ذاتيا ، متصلا بعالم النفس !

من هذا المنطلق الذي أراد الـكاتب أن يهديه لأقاصيصه ننتقـل الى هذه المجموعـة القصصية :

القصة الاولى : ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٦

انها قصة ملتزمة تصدر أيام العدوان ، وهو يهديها الى الخميرة الحية لثورة الشعب الجبارة .

الى الفداء العربي الكبير ..

الى بناة الغد المشرق .. ثوار أمتنا المجيدة .

والقصـة أدنى ماتكون الى ألواح تصور أشخاصاً مختلفين تصويراً عاما ، في خطوط معينة، وظروف موقتة ، يهيمن عليهم شعور الكاتب ، وتتصرف فيهم نزعاته الذاتية ... واذا أتيح للكاتب أن يسمو بمغزى قصته فان الالتزام الذي غلب عليه جرد القصة من « فنيتها » الـتي تجعلها ألصق بالواقـع ، وقد قرأت القصة مرة ومرتين ، ولا ادري لماذا لم اهتز لهـا ؟ أيعود ذلك الى ان جوها جو كبير ، والقصة القصيرة تأبى ذلك ؟ ويعود ذلك الى تعدد الاشخاص ، وعدم التركيز على بعضهم تركيزاً تلتزمه القصـة القصيرة ؟ أو لأن الكاتب كشف عن نفسه حين قال بلسان أحد ابطاله :

ـ انني في صميم الالتزام !

ان الكثير من كتاب الغرب التزموا ،وآثروا لأنفسهم طريق الالتزام ، لكنهم فعلوا ذلك دون أن يشعروا قارئهم بالالتزام .!

وأما القصة الثانية « درهم » فلا أدري لماذا

أحببتها ، قد يكون ذلك لبساطتها ، وجمال نهايتها .

انها قصة الصغير « شوقي » الذي أقبل العيد وهو لايملك مايعطيه حظه من « المراجيح » و « دواليب الهواء » و « العربات » التي يجد فيها أمثاله الصغار لذتهم وفرحهم . وما زال بأمه حتى حملها على اعطائه « الدرهم الوحيد » فطار فرحاً ، وراح ينهب الارض ، يريد المكان الذي يظهر فيه العيد ... ولكنه ، وهو الصغير عاوده الخوف من أن يسلبه الدرهم أحد . فراح ينطلق هاربا من كل عابر ، وقبضة مشدودة على الدرهم ...

ـ انه ـ الآن ـ أحرص على الدرهم من أمه :

عاد الى البيت ومد يده الضاغطة على الدرهم وقال لأمه :

ـ خذيه ! لاأريده ! الدرهم ... انهم أرادوا أن يسرقوه مني .

ولكن ، حين فتح قبضته لم يكن الدرهم موجوداً فيها .

لقد ضاع منه في الزحام دون أن يشعر ..!»

انها لقصة بسيطة ، ولكن فيها اكثر من معنى ... ولذلك لاأدري لماذا أحببتها ؟ ألأنها صورت في عالم الطفولة ، هذا العالم الذي يمتزج فيه الفرح بالخوف ، والالحاح مع الحرص ؟ قد يكون ذلك ! وقد يكون وراء ذلك معنى أكبر ... حين نرى عالمنا نفسه ينطبق على عالم الطفولة نفسه ... اننا نريد ، ونركض ، ويستهوينا السراب وراء السراب ، خلف شيء نجعله غايتنا ... ومرمى طموحنا .. حتى اذا ادركناه ونحن نلهث شددنا الايدي عليه حتى لايفلت .. ولكن .. في منتهى المطاف نفتح أعيننا وأيدينا على لاشيء .!

هنا يتبدى معنى « العبثية » التي أشار اليها الكاتب في مقدمته .!

وتلي هذه القصة قصة « أعياد » التي سميت المجموعة باسمها ، والجو فيها لايخرج عن جو العيد ، وربما كانت هذه القصة تعكس كل مايتأجج في نفس الكاتب من قلق ، وتخبط ، وثورة.

ـ انه العيد ، مرة ثانية ، الزوجة تتهيأ لتلبس ملابس العيد ، وتقوم مع زوجها بالزيارات والتهنئات المألوفة .. لكن الزوج لايستجيب الى ذلك ، ولاتحركه من العيد أية بهجة .

ـ « انه الآن شخص يحس ان كل شيء يدعوه الى ذاته ، والبرهنة على انه كائن حي ، يفكر ويتألم ويتحمل مسئولية كبرى تحتمها عليه الحياة بكل مافيها من خصب وقوة لامجرد آلة صدئة تدور اذا اريد لها ان تدور . .

وحقاً ، متى خرجت النفس عن ذاتها ، وتبلورت في ذوات غيرها أحست بالالم والشقاء ، وفداحة المسئولية .

ولماذا لايتألم ، ولماذا لايثور على وجوده ؟ « وهو يشعر انه مازال في مكانه كأي حذاء قديم لم يجهد في ان يضع كل هذا التمزق والتمرد موضع التنفيذ »

اذا ، ان مرد هذا التمزق لايعود الى انه لم يكن ؛ وانما يعود الى ان البطل يريد ان يحقق

معنى تمرده . وماهمنى التمرد بدون تحقيق ؟ولذلك لم يعد يرى في هذه الزغاريد المنطلقة من حناجر الصبية هنا وهناك غير اناشيد يلحنون بها صوتهم، بينما كان كل شيء فيه يرفض ان يتقبل اسطورة الفرح الكاذب ، تطلقها نفوس قلقة ، محطمة تخفي وراءها زئير الثورة ، وبرك الدماء . مثلهافي ذلك مثل طيور الاوز ، حين تحس بدنو الموت منها تأخذ الغناء ، لانها ترثي نفسها قبل ان تموت بلحن كئيب ، ولكنه فخم !

وتقف الزوجة من هذا الوجه المتغير موقف المشدوه ، لاتدري كيف تعلل ماانتاب زوجها من تغير ..وخشيت ان يكون قد حدث له شيء..

ـ انه كان يحدثها بين الحين والآخر عن الحياة الزائفة التي يحياها ، وعن المعركة الرهيبة التي تخوضها امته في صراعها الدامي ، وعن الدور الضخم الذي يحته الواجب المقدس ، وتفرضه الحياة نفسها على كل فرد يشعر بالكرامة والشرف في بث الروح النقية لشعب عظيم ظلت الاحداث المتعاقبة تمزقه ، وتفتت كيانه ، وتلوث شخصيته ولكنها لم تكن تعي بشكل صحيح حقيقة مايريده منها . .

وعند ذلك تراجعت الزوجة الى الوراء ، وتمتمت بحزن :

ـ اذا كنت غير مستعد لاستقبال أحد ، ومشاركة الناس افراحهم ، فلا داعي لكل هذا الانفعال !

ولكنه تذكر وعده لها بالامس : وهو لايريد أن ينكث ماوعدها به :

ـ اذهبي الآن ، وانحشري في ثوبك الجديد، ورشيه بالعطور ! وارتدي قناعك الخارجي واحجبي خلفه الوجه الحقيقي للانسان الحي !

ولكن ... ولكن

ـ هل تعتقدين أنه يحق لنا ان نتفحص وجوه القردة ، ونرقص عند اول قرع ؟ ... أي شيء نحن ؟ ألسنا شعباً واحداً يشدنا مصير واحد ، وحياة واحدة ؟ ان عيدنا الحقيقي : عيدنا الاكبر هو يوم ننتزع أراضينا ، ونقيم كيانا يحيا فيه بشر خلقوا لكي يعيشوا بكرامة ! اما هذه الطفلة التي ولدت في عصر التمرد فستكون الوجه المشرق للغد الدامي ،سأعلمها ـ أنا الأب ـ حقيقة وجودها، دورها في تحمل المسئولية ، سأعلمها كيف تبني كيانها الخاص بها،وكيان البلد الذي تعيش فيه... انها غرسي ، وانا لا اغرس للعدم ، انما للثورة ، أما أنت فلست سوى الوجه الكالح لماض يجب ان يهدم !

وتذهب الزوجة وهي لاتدري ان كانت تحس بصدى لوشوشات الامس ، ام انها قد استحالت الى مرتبة تنمي حياتها... ولكن لواحظها كانت تغرق في دمع خصيب . »

انها لقصة ملتزمة ايضا : لكن الالتزام جاء هذه المرة بصورة حية ، رائعة ، لأنه ينبع من صميم الحياة التي نريد ان نحس بأنها الحياة . . . وماهي الحياة اذا لم تحقق معناها بالثورة ؟ ان الثورة حياة،والاستسلام الى العدمية هو الموت... ومن اليقين ان التمزق هنا لا يعني استسلام البطل: وانما يعني الاهتداء الى اول الطريق !

وهنالك قصص مختلفة يدور اكثرها حول

←

الظمأ والينبوع

رواية من تأليف فاضل السباعي

عرض وتحليل عدنان بن ذريل

تنوعت مواقف الروائيين ، والقصاصين السوريين من مشكلة الجنس ، وأدبه ؛ ومعالجتهما في اطار علمي ، او فني ، او ادبي .. الا ان ظاهرة ادب جنسي ، تنويري ، وراق ، تحوي على قيم ، وتحليلات ، مفيدة ، وشيقة ، ظاهرة موجودة في ادبنا السوري الحديث ، وهي اذا كانت منتثرة بين تضاعيف الاتجاهات الادبية ؛ الروائية ، والقصصية ، وأساليبها المختلفة ؛ الا انها على وضح نهار جديد ، ترفدها النظريات ، والتحليلات برفد دائم من علم ، وفن ..

ان ادباءنا الروائيين، والقصاصين ، في معظمهم اليوم ، يتورعون في موضوعات الجنس ، عن الاثارة لمجرد الاثارة ، وبالتالي الاثارة من اجل الربح المادي ؛ وذلك من اجل ان يعرضوا مشكلة ، او يحللوا موقفا ، او يشخصوا داء ، او يقدموا عزاء .. ولذلك تجد الجنس في ادبهم

هذا القلق النفسي ، يعتمد فيه الكاتب على بناء مفارقات بسيطة المظهر ، بعيدة المغزى ...

من ذلك قصة « قلق » التي تشبه قصة « الدرهم » لكن الضائع ـ هذه المرة ـ هو الزوج الذي طال غيابه عن البيت ، بينما زوجته تبحث عنه خارج البيت ، وقد طال عناؤها في البحث ...

ـ واخيراً جاءتها امها تهنئها بعودة زوجها مبكراً اليوم !

وفي قصة « حسن افندي » دعابة رمزية ، لرجل وقور المظهر ، ركب الاوتوبيس وتغفل الجابي عن دفع ثمن التذكرة ... ولكنه ؛ وهو يخفي نفسه تجاوز المحطة التي يريدها : فنزل ويده قابضة على ثمن التذكرة ، ليعود باوتوبيس آخر ، ويدفع ... وهكذا خسر المال ، وخسر الوقت ، وضحك على نفسه ...

والبطل في هذه القصة بطل عادي : لكنه يمثل الابطال الذين يركضون ، ويضيعون ، ويغبون !

وفي قصة « الدليل » رمز رائع للتفاؤل ، والثقة بالحياة ، وهي القصة الوحيدة التي استطاع الكاتب فيها ان ينجو من كابوس القلق والتمزق...

أما الاسلوب فرصين متين ، يعنى صاحبه بالالفاظ المعبرة ، والتراكيب المنسجمة مع الحالات النفسية والعصبية ، وان كنت آخذ عليه أحيانا الرتابة ، والمشاكلة ، وذلك مرده الى الاسلوب الواحد الذي اتبعه في كل أقاصيصه ، وهو اسلوب السرد ؛ مع أنه كان بأمكانه ان ينوع ، ولايمشي على وتيرة واحدة .

ان في هذه المجموعة مايدل على موهبة صاحبها ، وشعوره بمسئولية الكلمة وشرف الأدب ...

وليس لنا الا ان نستزيده بالرغم من العوائق ، ليكون له شأنه في عالم القصة .

يحمل طابع اتجاهاتهم المختلفةبين واقعية ،وذهنية، وسردية ، وتحليل مواقفي ، او شعري ؟ الا انه معقل ، ومفيد ، فيه قبسات من علم ، ولوامع من فن ..

و — الظمأ والينبوع — رواية جديدة للاستاذ فاضل السباعي ، آثر لها موضوعا جنسيا صريحا ؟ هو الصمود للاغراء ، او السقوط ، والتعفف عن خيانة صديق في زوجه .. وجعله من اول لقاء بين البطل ، وهو طالب شرقي يدرس الهندسة في المانيا ، والبطلة ، وهي زوجة رحالة، فنان ،ومغامر، تعمل سكرتيرة عند احد المحامين..

وكان الطالب قد تعرف على صديقه المغامر ، الرحالة ، في حلب، فاستضافه في بيته ،واكرمه، واستفسر منه عن الدراسة في المانيا ؟ فحسن الصديق له امرها ، وانه يمكن الجمع بين العمل ، وتحصيل العلم هناك ، اذا لزم ؟ فينتسب الطالب الى كلية الهندسة هناك ؟ كما يلتحق بعمل يعمل فيه .. ويكون أن يزور صديقه في بيتـــه ؟ فتستقبله زوجة الصديق ، بمفردها ، والتي تعرفه بالأحاديث ، والاوصاف التي كان يراسلها زوجها فيها عنه ، وعن غيره ..

ويكون الصديق وقتها في المكتبة منهمكا في انجاز تأليفه الجديد وجمع مواده ، التي تدورحول رحلته الاخيرة .. فتجد الزوجة الفرصة سانحة لها لاغرائه ، واغوائه ، فتتبسط في الحديث معه، وتغازله ، وتتعرى له ، وتشكو له حرمانهـــا ، وعذابها مع زوجها المغامر ، الذي يتركها من اجل رحلاته ، والذي سيتركها قريبا من اجل رحلة جديدة الى اميركا ؟ الا أن الصديق الضيف يؤثر العفة ، والترفع عن ان يخدش كرامةصديقه بأي أذى ..

لاشك ان الموضوع طريف، فيهمتسع الرصد، والتحليل ،ويسمح بتسقط المواقف ،والتفنيدات؟ انه من الواقع ، الذي نقله المؤلف ،دونافتعال، او تحوير ؟ حتى ان معطياته في شكلها النهائي ، لم تزد على لمسات الواقع نفسها .. صداقة ، لقاء على انفراد مع الزوجة، محاولة اغراء منها،مع شكوى الزمان ، والحرمان ، ترفع ، صون للكرامة .. وغير ذلك مما لايخرج عن الواقع الحياتي نفسه ..

وقد دعم المؤلف السباعي ، موضوعه البسيط والطريف ، والشيق ، بقيم أسلوبية ، واقعية ، في السرد ، والوصف ، والتحليل على السواء أو التحليل عنده تحليـل الشخصيات ، وليس التحليل الفرويدي ، أي هو تحليـل مواقفي ، وصفي للخلق عامة ، وللحركات النفسية ، في بواعثها ، وتسلسلهـا .. وقد وفر بذلك كله أجواء مقنعة ، ومفيدة عن الاحداث،اوتطورها عند البطل ، أوصديقه ، وايضاً ، والى حد ما عند البطلة ..

واذا كان توفق في تقصي احوال البطل ، ومواقفه ، وظروفه العائلية ، والاجتماعيـــة ، والنفسية ، تظـل تحليلاته ، وأوصافه للبطلة ، وأحوالها ، ومواقفها،وظروفهاناقصة..لقد سلط الاضواء على بطله ، وجعله في مكان الصدارة في روايته ، وأهمل البطلة ، حتى أنه لم يحدثنا عن اهلها ، اوعملها ، او ماضيها ، اومخاوفهـا الراهنة ، او مستقبلهـا ، وغير ذلك ، وكان

باستطاعته التوسع في ذلك كله ، مع الاستفادة منه في تحليله ، أو وصفه ، أوسرده .

واذا ذكرنا ان الرواية نفسها في وضعها الحالي ، توسيع لثقة مطولة سابقة للمؤلف ، رأينا كيف لايغتفر التركيز ، والاختصار في اوصاف البطلة ، ومواقفها ، لابد من توضيحها التوضيح المفيد .. لتوسيع شيق ، وواقعي ، ولاغضاضة عليه ، من حيث ان الموضوع يستوعبه ، ويسمح به .. الا أن المنحى النفسي ، الذي تقوم عليه الرواية ، وهو المنحى الوصفي الواقعي يمكن ان يدعم بتحليلات اخرى ، من تقوس ، او تعال ، او انطواء ، او انبساط ، او أسى ، او يأس ، حتى الاندلاع ، أو أيضا توقع السقوط من جديد ، او الاوبة الى عون المجتمع ، والاهل والقيم ..

* * *

صدر حديثاً

من الشعر اليوناني الحديث

ترجمة

الياس معوض

نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي

الفنان غياث الاخرس

ولد الفنان غياث الاخرس في حمص ، ومنذ عام ١٩٥٥ ابتدأ بدراسة الرسم في القاهرة ثم انتقل الى مدريد ثم الى روما واخيرا درس الحفر في اكاديمية الفنون الجميلة في باريس وقد عاد منذ بداية عام ١٩٦٤ ويعمل حالياً موظفاً فنياً في مديرية التلفزيون ، وقد اقيم له مؤخرا ، معرض فني ضم اعمال الحفر التي انجزها في الغرب.

اللوحة

هذه اللوحة هي من اللوحات التي عرضت في معرضه الاخير وتبلغ مساحتها ١٢×٣٥ سم ولقد طبع منها عشر نسخ وهي محفورة على الخشب الطولاني (اربعة روامم) وملونه بتسعة ألوان.

فن الحفر

وفن الحفر Gravure يقوم على رسم موضوع ما وحفره بمنقاش معين على ألواح من الخشب او المعدن او اللينوليوم فيصبح هذا اللوح اشبه الروسم (كليشه) يطبع الفنان عنه بضع طبعات ثم يتلف الروسم .



مجلة المعرفة   قروية   غ.أوس

كتب جديدة

حتى تحارب اسرائيل؟ — هيثم الكيلاني

دراسة سياسية عسكرية عميقة وشاملة قدمها الاستاذ هيثم الكيلاني واهداها الى الجيش العربي الموحد، وقد شملت الدراسة نواحي القضية الفلسطينية فبدأها بفلسطين المحتلة : المرحلة الثانية من ايجاد الذات _ الستراتيجية الاسرائيلية الدفاع عن اسرائيل — المذهب العسكري الاسرائيلي — الجبهات العربية الاسرائيلية — القوات الاسرائيلية — التسليح — نزعة الحرب ومنافذها — الموقف العربي — موقع الوطن العربي — القوات العربية — الدبلوماسية العربية — الكيان الفلسطيني — قضية مصير الوطن العربي _ وبعد إن عالج الاستاذ كيلاني جميع هذه المواضيع معالجة دقيقة تحدث في الفصل الاخير من الدراسة تحت عنوان « حتمية الحرب » فقال : ونحن اذ نواجه اسرائيل ، فاننا لانواجه عدواً يبغي العيش بسلام وانما لابد له من العدوان علينا . لأن وجوده قام على هذا الاساس ولن تحيد اسرائيل عن ايمانها بحتمية الحرب ، وذلك لأن التخطيط الصهيوني العالمي يهدف الى وضع اسرائيل في وقت من الاوقات في موقف لابد لها فيه من ان تبدأ الحرب . اذ أن الخطط الصهيونية بتوسيع الطاقة البشرية في اسرائيل ، وانماء الطاقات الاقتصادية ستجعل تلك البقعة المحتلة من فلسطين لاتكفي لتلك الموجة الزاخرة بهذه الطاقات ، فيغدو العيش عسيراً أو مستحيلا اذا لم تدفع اسرائيل حدودها الى الامام ، وتضم اليها اراضي وامكانات جديدة ، واننا لنرى ذلك واضحا في الخطط التي تطبقها حكومات اسرائيل منذ انشائها حتى اليوم . وما مشروع تحويل مياه نهر الاردن الى النقب لاسكانه وتعميره إلا مثالا على هذه

الخطط ومرحلة توصل العدو الى تحقيق نواياه العدوانية التوسعية. ان سرقة مياه نهر الاردن واستثمار صحراء النقب، واجتلاب عدد ضخم من المهاجرين الجدد تشكل اخطاراً جسيمة. ولكن الخطر الاعظم والاوهى من ذلك كله هو تعميق وجود اسرائيل في ارض فلسطين السليبة.

ويقول المؤلف: وامام هذا الخطر الساحق لا تنفع الحماسة المراهقة ولا الدهـاء المناور ولا محاولات الكسب والتهدئة ان ذلك كله هو الذي اجتلب لنا النكبة اول مرة. وهو كفيل ان يجلب لنا نكبات اشد وادهى، وان ما يجدي هو العمل العلمي الموضوعي الذي يواجه المشكلة بكل حدودها وابعادها.

ان اسرائيل ليست سوى طليعة لقوى الشر والعدوان على الامة العربية فمن ورائها الصهيونية بكل ثقلها الاقتصادي والمالي والدعائي والاستعمار بكل دوله ومصالحه وقواه السياسية والاقتصادية والعسكرية وبكل قواعده الثابتة والمتحركة والمتسربة وراء الخطوط والجبهات.

ويختم الاستاذ كيلاني دراسته قائلا: لقد وضعت اسرائيل في خططها عدة حلول لبلوغ اغراضها اولها الحرب وآخرها الحرب وبينها دعـوة السلام في احضان الاستعمار والصهيونية. لقد اصبحنا دون ان نأثم جيل النكبة وعلينا ان نجعل من ابنائنا جيل النصر والفخار.

مسرح عربي قديم « كراكوز » — تأليف عـادل أبو شنب

صدر هذا الكتاب حديثاً عن وزارة الثقافة والارشـاد القومي والتزمت نشره صالة الفن الحديث العالمي.

وقد قـدم فيه الاستاذ ابو شنب قصة فن شعبي أصيل، شبه مجهول. عند جمهرة المثقفين، عرف عهداً طويلاً من الرواج والازدهار الى ان عدت عليـه عوادي الزمن الممثلة بتطور الحضارة والعقليات والاذواق. فأخذ في التخلف ثم الانقراض تاركا تراثاً ثميناً يعتبر حلقة اتصال بين ظواهر التمثيل الكامنة في نفوس العرب والحياة المسرحية في مفهومها العلمي الحديث.

وهذا الفن هو « مسرح كراكوز » وقد ربط المؤلف بينه وبين مخلفات العرب القدامى في فنونهم المختلفة الاخرى واعتبره اقرب اشكال التعبير الى المسرح الحالي فيقول: ان هذا الفن المسرحي هو انضج الظواهر المسرحية واكملها واقربها للمسرح بشكله الحالي.

وبعد، ان الجهد القيم الذي بذله الاستاذ عادل ابو شنب وتأطر ضمن هذا الكتاب ليدل دلالة واضحة على ان عندنا من لهم القدرة على الدراسة والتقصي ليخرجوا منها ويؤكدوا اصالة امتنا في جميع الفنون.

والكتاب يقع في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط ويباع بليرتين سوريتين.

أغنيات للصمت ـ للشاعر عبدالرحيم عمر

صدر هذا الديوان عن دار الكاتب العربي في بيروت وهو للشاعر الاردني الاستاذ عبـد الرحيم عمر.

وفي قصائد الديوان تلتقي مدرستان من مدارس الشعر الحديثة : المدرسة الرومانسية والمدرسة الواقعية الجديدة ، تلتقيان منفصلتين بحيث تقتسمان كل مجموعة من هذه القصائد كما في « بنيلوب ، سندباد ، انتظار ، رسالة الى صديقة مجهولة ، عائدون ياتشرين ، أغنيات للصمت ، الى مسافرة ، على سفينة نوح ، ضائع على الدرب ، هارب من حلمه . كلمة الى عمان وشيئان . هذه اثنتا عشرة قصيدة من المدرسة الواقعية الجديدة ، في حين نرى الرومانسية تنتظم قصائد« زائرة في العيد ، رحلة الصيف ، خسارة ، في الليل ، بعد اعوام ، الشاعر » كما نرى هاتين المدرستين تقتربان آنا بحيث تمتزجان في اللقاء ، امتزاجاً يكاد يكون متكافئاً ، ولكنه متسق على أي حال في بعض هذه القصائد كما في « الرحيل ، لمن تدق الاجراس ، فرار ، لن يجيء » ففيها تمتزج الرومانسية بالواقعية الجديدة وهما تبيحان لنفسيهما بأن تتأثر احداهما ببعض مقطوعات هذه المجموعة ، لكن في استعانة بقليل من رذاذ تستمطره من الاخرى كما في « رؤيا ، ودون جدوى » فيها من الواقعية الجديدة مع رذاذ من رومانسية .

ومن هنا كان مولد هذه المجموعة طريفاً ، طريفاً بهذا اللقاء بألوانه الثلاثة المشار اليها قبل قليل ، وطريفاً باستكمال المدرسة الواقعية الجديدة . فيها الكثير من خصائص العافية والحياة السليمة .

وقد قدم الديوان الدكتور هاشم ياغي أستاذ الادب العربي في جامعة عمان وعرف بالشاعر زميله خليل الخوري .

الأحلام – تاليف على الشرقي

ان الاحلام تطلق على رؤى النائم وعلى رؤى اليقظان ، وما هي الا ساعة يسمو بها الخيال على الحقيقة ، فما من انسان الا ويستنيم الى احلامه بعض الوقت .. نحن ملتذون الى دنيا اليقظة هي التي تتحدث بها نفوس المصلحين وعقول الفلاسفة وافكار الادباء ، وما كان العامل الاول لهذه الحضارة الجبارة الا خيال من اخيلة المفكرين ، اولئك الذين يفكرون فيحلمون واعينهم مفتوحة .

لقد كان الخيال ومايزال مفتاح مستقبل افضل وان الحلم عنصر الخيال ليس الماضي هو الحلم بل المستقبل ، واما الحاضر فهو الواقع ، سلسلة مثلثة لكل حلقة اثرها . فلا يحملنا نقصان الحاضر على الاعتقاد بكمال الماضي ولا كمال الحاضر على الاعتقاد بنقصان الماضي ، ولا يجمل بنا ان نتقاعس زهدا ورهبنة فنزرع احلامنا ورودا على شاطىء المستقبل قائلين ان الحاضر ممر لا مقر . الماضي نواة الحاضر والحاضر بذرة المستقبل والعالم دائما في طريق الكمال ونحن نحلم فنعمل فنتم ...

كذلك كان كتاب « الاحلام » انه انتقال الى كومة احلام فيها الاناث والرنات والهمسات والصرخات ، احلام قد تكون غير مترابطة وقد تكون غير متقاربة الا انها قصة حياة ، لا حياة الكاتب فحسب ، بل حياة عديد من الناس اجمع

الناس الذين يحلمون . حلم الشيوخ في الماضي وحلم الشباب في المستقبل .

تماثيل للقتل – رواية تأليف ريمون عقل

سبق ان صدر للاستاذ ريمون عقل مجموعة قصص بعنوان « عودي الى الوحل » و « تماثيل للقتل » تجربته الجديدة في عالم الرواية وتدور حوادث الرواية في منطلقها من قرية « عين مارا » في لبنان .

و « عين مارا » هذه ابتأست وجاعت بالمجاعات فدفنت شبابها في الدروب . وانقلبت في فترة من الزمن الى جثة من الارض ليس في موتها عمل كالبطولة مثلا او عاطفة .. عاطفة استقلال فقد كانت تفلحها أمدسة جيش اجنبي . وابناؤها . شعبها الملهوف كحجارة الطريق ! هكذا ماتت « عين مارا » مرات .

ثم اعتقت قمرا واعتقت فلاحيها . وصنعت تقاليدها كما يحلو لطبقة الاغنياء ، وعاشت من جديد على ذلك المرتفع تحرس سهلها .

وهنا يجول ريمون عقل في قلب هذه القرية ليروي لنا مأساة بل عدة مآس في اطار من الوعي الكامل في رسم الشخصيات وتلوينها بلونها الواقعي الآخاذ . ان ريمون يفتح لنفسه آفاقاً جديدة في « تماثيل للقتل » ويمنح الادب في لبنان دفقة جديدة .

وقد طبعت الرواية المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت ورسم لوحاتها الفنان « سكل Sakl » .

سلاسل الماضي – رواية تأليف نزار مؤيد العظم

ان رواية « سلاسل الماضي » هي سرد تسوده البساطة لاحداث حدثت حقا ، وبساطة السرد واضحة لكل قارىء أما القول بصدق الوقائع فانه قد يحتاج الى دليل .. لكن القارىء لايملك غير أن يتلمس الصدق في رواية الاحداث من عفوية السرد ومن مماثلة البيئة والظروف الموصوفة للبيئة والظروف التي عرفها الناس ، واولئك الذين هم في سن مقاربة لسن ابطال الرواية . وفي الحقبة الزمنية التي تدور فيها احداثها في بلادنا . وكثير من القراء سيرون انفسهم او اصدقاءهم أو معارف لهم في صورة « نبيل » وكثير من القارئات سيرين انفسهن أو صديقاتهن او معارف لهن في صورة « مادلين » أما وقائع القصة فهي حكايات قد مر مثلها او يقاربها زيادة أو نقصاً بكثير من القراء والقارئات ، او اصدقائهم وصديقاتهم ومعارفهم ومعارفهن . حتى اؤلئك الذين بعدت بهم سنهم وظروفهم الاجتماعية والماشية عن سن ابطال الرواية وظروفهم سيجدون من طريقة السرد وتسلل الاحداث ، ان ماجرى لهؤلاء الابطال شيء محتمل ومتوقع ثم محتم. واذا ظلت اقلية من القراء لاتؤمن بامكانية صدق احداث « سلاسل الماضي » لأن ذلك الصدق يهولها ويصدمها بوجود ماتستنكر وجوده .

وبعد ، على قلة مايصدر عندنا من روايات

تجعلنا رواية « سلاسل الماضي » امام حدث فكري يجب ان نوليه كل اهتمامنا .

وقد كتب مقدمة الرواية الدكتور عبد السلام العجيلي وتقع في ٣٣٠ صفحة من القطع الكبير.

سياج الرجل - تأليف محمود عبد القادر ابراهيم

« سياج الرجل » مجموعة قصص تمثيلية تضم ثلاث مسرحيات كل منها في ثلاثة او اربعة فصول الاولى « سياج الرجل » والثانية « سأذهب الى بيت لحم » والثالثة « قصة قرية » وقد عالج الكاتب في هذه المسرحيات حياة الناس البسطاء العاديين .. ان صورة الحصير الذي تآكلت اطرافه والفراش المتوسد الارض والمصباح الزيتي المعلق في مسمار على الحائط هي مواد الكاتب في رسم ديكور هذه المسرحيات ، وهذا يعني انه اتخذ من الطبقة الفقيرة موضعاً للحوار والفكرة والاسلوب ...

على ان ملاحظة عابرة لابد منها ، ان الفن المسرحي يفلت من يد الكاتب في كثير من الاحيان .. وان الزمن يبدو مشوشاً لايرتكز على قاعدة .. وهذا يعطينا مثلا على ان الكاتب المسرحي يجب ان يلم ولو بشكل بسيط بالاخراج ورسم الزمان والمكان .

على كل حال ، فتجربة السيد عبد القادر ابراهيم اصبحت بين أيدي القراء وهي عرضة للنقاش والمجادلة .

والكتاب من الحجم المتوسط ، ويقع في ٢٤٠ صفحة .

كلمتين زغار — زجل لجورج عشي

هي محاولة ثانية في ميدان « الزجل » عندنا . محاولة جريئة اخرى بعد محاولة عمر حلبي عام ١٩٥٨ عندما اصدر اول ديوان للزجل السوري بعنوان « طل القمر » وحين يقدم الآن جورج عشي على خطوة اخرى من هذا النوع فيجب ان ننظر اليها بعين التقدير .

قال محمد الماغوط في مقدمة الديوان :

انها قصائد بسيطة لاحد لنموها ، كأشجار صفراء بين الصخور ، بقليل من العناية واهتزاز النسغ ، قد تصبح خضراء وتعطي من البراعم والنتوءات اللؤلؤية ما يجعلها دما حقيقياً لجثة الزجل في بلادنا .

مايقتل الشعر ويلوي عنقه حتى الارض هو جره من اذنيه الى ميادين لا تتفق وغاية الشعر. وقد رأينا دواوين كثيرة مجندلة في مثل هذه الحلبات . وهذه المجموعة البسيطة من الشعر ترفع رأسها بكبرياء وترفض ببراءة ان تدخل مثل هذه الميادين ، وان كانت في كثير من الاحيان ترفرف حول جدرانها . كما يرفرف الطائر الأعمى حول غابة تأكلها النيران لتطير مجدداً في السماء الزرقاء.

حول صلح الحديبية

لرشاد علي اديب

قرأت في العدد السادس والعشرين من المعرفة الغراء رد السيد محمد خير الدالاتي على مانشرته في العدد الرابع والعشرين عن سورة الممتحنة وصلح الحديبية وقد عــد" الاخطاء الطبعية من أخطائي فأحصى سقوط كلمة: مؤمنات : من الآية الكريمة خطأ مني وأحصى سقوط كلمة: عُقْبة: خطأ مني ونسي أن يحصي علي الخطأ المطبعي الوارد في الآيــة الكريمة وهو (فامتحوتهن) والصواب: فامتحنوهن: وكذلك كلمــة (الفيرزوبادي) والصواب : الفيروزابادي : وكنت كتبت الى رئاسة التحرير على أثر نشر مقالتي ما ينبغي تصحيحه ولكنها لم تر لزوما لنشره اعتماداً على نباهة القارىء وثقافته مع العلم ان رد الناقد لم يسلم من سقوط كلمات او تحوير في النصوص التي اوردها وسأذكر هنــا ما أشرت اليه ليعلم ان مثل هذا لا يعد خطأ .

أولاً ــ لقد ذكر الكاتب من نص الشيخ محمد الخضري في كتابه محاضرات تاريخ الامم الاسلامية العبارة الآتية (ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم **يرد** عليه) والنص المذكور بالضبط هو : ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم **يردوه** عليه: ــ أنظر الجزء الاول ص ١٨٠ من الطبعة الثانيــة سنة ١٣٤٤ هـ .

ثانيا ــ لقد ذكر الكاتب نقلا عن الطبقات الكبرى لابن سعد النص الآتي (**ومن** أتى قريشا من أصحاب محمــد لم يردوه) والنص المذكور بالضبط : **وأنه** من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه : وقد سقطت كلمة : وأنه :ــ انظر المجلد الثاني ص ٩٧ من الطبقات الكبرى دار صادر دار بيروت ــ

ثالثاً ــ لقد ذكر الكاتب نقــلا عن تفسير

الآلوسي النص الآتي (ان من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليه) والنص المذكور بالضبط : على أن من أتى محمداً من قريش : الخ فسقطت كلمة : على : من اول العبارة ــ انظر الجزء التاسع ص ٥٤ من روح المعاني المطبوع سنة ١٣٠١ هـ بمطبعة بولاق ــ أما بقية النصوص التي اوردها الكاتب من كتب التاريخ والتفسير والسير فليست كتبها عندي لأقارن بينها مما يدل على ان كتبه في هــــذا الموضوع على الاقل اكثر من كتبي التي نوه بها .

رابعا ــ أسقطت كلمة : بن : من العبارة الواردة في مقالتي وهي : بن أبي معيط :

خامساً ــ قدمت الكلمة الاولى من لقبي على اسمي في عنوان رده .

وهكذا يبدو لكل متأمل أن سقوط الكلمات او التحوير اثناء النقل والطبع ليست بخطأ واني لا أعد ما ورد في رده من هذا النوع خطأ وان هو عده في مقالتي من الاخطاء .

وأما ما أورده الكاتب من النصوص التي ذكرها المؤرخون والمفسرون واصحاب السير والمغازي عن الاتفاق في صلح الحديبيــــة فهي صحيحة ومشهورة وسأسرد في آخر المقالة ما ذكره ابن الاثير عن كيفية الصلح ونص كتاب المصالحة وما جرى اثناء كتابته من محاورة لان الكاتب لم ينوه بابن الاثير وما ذكره في هذا الشأن .

والآن اعرض الروايــة الــــتي أحببت الاقتباس منها في حديثي عرضاً عن سبب نزول سورة الممتحنة . لقد جاء في الطبقات الكبرى من المجلد الثامن ص ٢٣١ عند ترجمة ام كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط مانصه :

اخبرنا خالد بن مخلد حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز قال حدثني ابن شهاب قال كان المشركون قد شرطوا على رســـول الله يوم الحديبية انه من جاء من قبلنا وان كان على دينك رددته الينا ومن جاءنا من قبلك رددناه اليك فكان يرد عليهم من جاء من قبلهم يدخل في دينه .

وقد فات الناقد الاطلاع على هـــذه الرواية فنفى شرطها نفياً باتاً وعجب مني كيف جئت به في حــــين أنه ذكر لابن سعد رواية غيرها مذكورة في الكتاب نفسه .

وهناك رواية أخرى تحتوي شرطاً آخر أود أن أذكرها اتماماً للبحث وتوخياً للفائدة فقد جاء في الصفحة الخامسة والثلاثين بعد المئة من الجزء الثامن من تفسير الامام الرازي المسمى مفاتيح الغيب والمطبوع سنة ١٣٠٨ هـ بالمطبعة العامرة الشرفية مانصه :

وعن الضحاك ان العهد كان إن يأتك منا امرأة ليست على دينك الا رددتها الينا وان دخلت في دينك ولها زوج ردت على زوجها الذي أنفق عليها وللنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الشرط مثل ذلك ثم نسخ ذلك الحكم وهذا العهد .

وجاء في الصفحة الخامسة والخمسين من الجزء التاسع من تفسير العلامة الآلوسي مانصه :

وعن الضحاك كان بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين عهد أن لاتأتيك منا امرأة ليست على دينك الا رددتها الينا فان دخلت في دينك ولها زوج ان ترد على زوجها الذي انفق عليها وللنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الشرط مثل ذلك وعليه فالآية موافقة لما عليه العهد لكن اخرج ابو داود في ناسخه وابن جرير وغيرهمــــا انه نسخ هذا العهد وهذا الحكم .

يتبين مما ذكر ان الروايات المتعلقة بهذه القضية هي ثلاث :

الاولى : ان يرد المسلمون من يأتيهم من قبل

المشركين دون ان يرد المشركون من يأتيهم من قبل المسلمين وهي مذكورة في كثير من كتب التفسير والتاريخ .

الثانية : ان يرد كل من الفريقين الافراد الذين يأتون من الجانب الآخر وهي رواية واردة في الطبقات الكبرى لابن سعد وهو من الثقات وهذه الرواية تؤيد قولي .

الثالثة : ان يرد كل من الفريقين النساء القادمات من الجانب الاخر ان كن على غير دينه فان كن على دين ذلك الفريق بقين عنده ورددن على ازواجهن ما انفقوا عليهن وهي رواية الضحاك الواردة في تفسيري الرازي والآلوسي .

ولا يخطىء من يقتبس من احدى هذه الروايات الثلاث وان كانت الاولى هي المشهورة على ان الشرط في الرواية الثانية اعدل لأنه يضمن التكافؤ والتساوي بين الفريقين في الوجائب . كما ان الشرط في الرواية الثالثة يحقق بعض التساوي .

وفي سبيل المعرفة وللاطلاع على حسن سياسة الرسول العربي ونهجه القويم وخلقه العظيم . اورد بعض ماجاء في الجزء الثاني من تاريخ الكامل لابن الاثير ص ١٣٣ — ١٣٤ طبعة دار الفكر ببيروت وهذا نصه :

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر ابن لؤي الى النبي (ص) ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك فأقبل سهيل الى النبي (ص) وأطال معه الكلام وتراجعا ثم جرى بينهم الصلح فدعا رسول الله (ص) علي بن أبي طالب فقال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل لانعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر فقال سهيل لو نعلم انك رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب باسمك واسم ابيك فقال لعلي أمح رسول الله فقال لا أمحوك أبداً فأخذه رسول الله (ص) وليس يحسن ان يكتب فكتب موضع رسول الله محمد بن عبد الله — وقال لعلي لتبلين بمثلها — اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن الناس وان من أتى منهم رسول الله بغير اذن وليه رده اليهم ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم يردوه عليه ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل — فدخلت خزاعة في عهد رسول الله (ص) ودخلت بنو بكر في عهد قريش — وأن يرجع رسول الله (ص) عنهم عامهم ذلك فاذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً وسلاح الراكب السيوف في القرب لاتدخلها في غيرها فبينا النبي (ص) يكتب الكتاب اذ جاء ابو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت الى رسول الله (ص) وكان اصحاب النبي لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله (ص) فلما رأوا الصلح دخلهم من ذلك امر عظيم حتى كادوا يهلكون فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل اخذه وقال يامحمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل ان يأتيك هذا قال صدقت واخذه ليرده الى قريش فصاح ابو جندل يامعشر المسلمين أرد الى المشركين ليفتنوني عن ديني فزاد الناس شراً الى مابهم فقال له رسول الله (ص) احتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا انا قد اعطينا القوم عهودنا على ذلك فلا نغدر بهم قال فوثب عمر بن الخطاب يمشي مع ابي جندل ويقول له اصبر واحتسب فانما هم المشركون وانما دم احدهم دم كلب وادنى قائم السيف منه

←

كارل ياسبرز عدو العرب

للدكتور محمد يحيى الهاشمي

اطلعت على المقال الذي دبجه الاستاذ اورخان ميسر في عددحزيران ٦٣ من المعرفة عنمستقبل النوع الانساني لكارل ياسبرز الفيلسوف الوجودي المعروف ، وقد اخذ موضوعه من كتابه الشهير « القنبلة الذرية ومستقبل الانسان » . ونظراً لأن هذا الكتاب يحوي سموما قتالة ، فقد اردت الاشارة اليها .

نشر هذا الكتاب في عام ١٩٥٨ في دارنشر ر . ربير فيمونيخ وهذاهوعنوانهباللغة الالمانية :

KARL JASPERS. Die Atombombe und die Zukunft des Menschen, Muinchen 1958.

يقع هذا الكتاب للفيلسوف الوجودي المذكور بـ (٥٠٨) صفحة من القطع الكبير استعرض فيه الوضع الحاضر والتفكير الفلسفي بـ منع القنابل الذرية ، مبادىء السلم العالمي ، القيم

رجاء ان يأخذه فيضرب به اباه فبخل الرجل بأبيه ونفذت القضية وشهدالشهود على الصلح من المسلمين فيهم ابوبكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وجماعة من المشركين .

فلمافرغ النبي(ص) من قضيته قال قوموا فانحروا ثم احلقوا فما قام أحد حتى قال ذلك مرارا فلما لم يقم احدمنهم دخل على امسلمة فذكر لهاذلك فقالت يانبي الله اخرج ولاتكلم احداً منهم حتى تنحر بُدُنك وتحلق شعرك ففعل فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا حتى كادبعضهم يقتل بعضا للازدحام فافتتح في الاسلام فتح كان اعظم منه حيثامن الناس كلهم بعضهم بعضا فدخل في الاسلام فيتينك السنتين مثل مادخل فيه قبل ذلك واكثر .

وعقب هذه الحادثة واثناء رجوع النبي الى المدينة نزلت سورة الفتح واولها « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا »هذه هي قصة صلح الحديبية والروايات المختلفة عن شروط الاتفاق .

فهل يرى الناقد بعد ماذكرت أن قولي مخالف للحقيقة وهل ينقضي عجبه مني لظنه أني اخطأت . مع العلم أن كل انسان عرضة للخطأ والنسيان وغير عجيب أن يعثر بها اي كان .

ولا بد لي من الاعتراف بأن خطئي كان في ذكر أزواج عاتكة لأني جاريت الاستاذ العمادي في ذلك واكتفيت بالتصحيح من جهة القاعدة النحوية دون أن أنتبه الى الخطأ التاريخي الذي صححه الاستاذ العمادي فيما بعد وقد غاب عن الناقد ذلك والاعتراف بالخطأ صواب .

الاخلاقية التي اضاعتها البشرية ، الضحايا البشرية، اوضاع الحروب واختلاف اشكالها ، الوضع السياسي العالمي ، قضية العالم ووضع هيئة الامم ، دعوة الى العقل وحكم العقـل ، ضد الاهواء والكوارث العالمية المنتظرة .

بما أن هذا المؤلف يؤيد الصهيونية ويتحامل على العرب فاني سوف انشر تلخيص ماجاء في كتابه المذكور ص(١٨٠ — ١٨١) ثم الرد عليه ، ومن الغريب ان جميع الذين كتبوا عن هذا الكتـاب مثل كمال الحاج في ملخصه والاستاذ المار الذكر لم ينتبهوا الى مافيه من سموم. (عنوان هذا الملخص ، كارل ياسبرس ، القنبلة الذرية ومصير الانسان ، منشورات عويدات بيروت ١٩٥٩ ، قدم له كمال يوسف الحاج). وفيما يلي خلاصة النص :

خلاصة كلام كارل ياسبرز

يذكر هذا الكاتب في تحامله بأن اسرائيل دولة تشكلت منذ عشر سنوات ، وان وضعها غير ملائم من جراء تحامل العرب عليها على دعواه . ويرى سبب هذا التحامل خطيئة المسيحيين الذين كانوا يهددون اليهود في اجسامهم وحياتهم مدة آلاف السنين ، وان قتل ستة ملايين من اليهود عن طريق الهتلريين جعلت حياة الباقين مهددة بواسطة النازيين . ويعتقد بضرورة مناصرة اسرائيل . ويتساءل لماذا كان هذا السؤال مهماً جدا من اجل الغرب بالرغم من انه يتعلق بشعب متناه بالصغر ؟ ويجيب على ذلك بقوله : لأن اليهود على زعمه في جميع العالم وفي حكومة اسرائيل تابعون بصورة خاصة للغرب من اجل العهد القديم والجديد ، وقد اعطى اليهود امتن اساس اخلاقي واعمقه للغرب » . من اجل ذلك فهو يناشد امم اوروبا وامريكا عدم التخلي عن اسرائيل بل يتغالى اكثر من ذلك بقوله : « واذا لم يعرف الغرب التضامن في هذا الامر لايكون له تضامن أصلا ويحكم عليه بالموت . فاذا سقطت اسرائيل سقط الغرب » . وهكذا فهذا الـكاتب المتحامل يطلب مناصرة اسرائيل ضد العرب .

هذه هي الخلاصة واقول في الجواب على ذلك :

كنت قرأت عبارة لصاحب كتاب الاحتمالات ريشارد فون ميس هذا نصها :

ان الفلاسفة متى ماتراءت لهم حقيقة علميـة قاموا في المغالاة فيها وبدلا من نقدها على ضوء الواقع يوسعون صلاحيتها ويجعلون منها قيمـة خالدة وعقيدة ثابتة . وان مثل هذا الجمود هو الذي اخر العلوم ومن جراء ذلك نشأت النظرية النسبية . وعندما قرأت ذلك ظننت انه لمن المغالى به ولكن لدى قراءتي هذا الكتاب تبين لي ان هذه الحقيقة ليست صحيحة فحسب بـل هي من صميم الواقع بل انها كلمة بسيطـة جدا تجاه تلك الاخطاء الفاحشة الـتي وقع مؤلف هذا الكتاب فيها .

عرفت هذا المؤلف في دراسة فلسفية عميقة قبل الحرب العالمية الثانية وخاصة كتابه المشهور (الوضع الروحي للزمن) وقد كان محقاً في كل ماحلله وكان عليه ان يتجنب الخوض في الامور السياسية لأنه يعيش في برجه العاجي بعيدا عن الواقع وعن مايجري في العالم . وقد دل على معرفة ضئيلة جدا

في التاريخ فاذا كان لليهود فضل على المسيحية فان لآشور وبابل وسومر وغيرهم فضلا على الشريعة الموسوية ، ونجد اثار التوحيد ايضا عند المسلمين القدماء واذا استقصينا كل شيء فيلزم علينا تقديس الوثنيين لانهم الاسبق في الفكر على الموحدين الذين يقرون بوجود اله واحد .

لماذا ياترى يغفل المؤلف دور العرب وفضلهم على مدنية اوروبا . أجهلا ام تجاهلا ؟ ان اوروبا لم تتيقظ الا بعد ان اضرم علماء العرب شعلة الفكر في عالم الغرب ، حتى اذا سلمنا جدلا بان اليهود هم من بناة المدنية فهل يحق لهم ان يتعدوا على غيرهم ويغتصبوا اراضيهم حتى زيادة عما قررته هيئة الامم ويكون السبب في طرد مليون عربي واذا كان عالم الغرب يريد ان يتبرأ من التفرقة العنصرية او ما كان الاجدر به ان يتبرأ من التعصب الديني الذميم الذي سبب النفور من الدين وكان السبب في انهيار القيم الاخلاقية .

اما تشخيص المؤلف للوضع الحاضر فهو ايضا غير صحيح فبدلا من ان ينتقد الصحف الغربية ويفهمها من كل وجوهها آمن بما سمع دون فكر وروية اما قوله بأن اليهود اضطهدوا فليس من الحق أن نعطيهم سلاحا ليضطهدوا غيرهم ، فاذا كانت المانيا النازية (على دعواه والعهدة على الراوي) قد قتلت ستة ملايين من اليهود ، فما ذنب العرب في ذلك ليتحملوا وزر غيرهم ، واذا كان يرى ضرورة التضامن مع اليهود ، فلماذا لم يسمح بتشكيل مثل هذه الدولة في ديار الغرب بدلا من ان يلقي اثقالها على غير الامم الغربية ؟.

كان كره اليهود غير مغروس في بلادنا العربية والذي غرس ذلك هم الصهيونيون والمساعدون لهم امثاله . ان فلسطين ارض الديانات العالمية الثلاث الاسلام والمسيحية واليهودية ، وقد عاشت هذه الاديان بجانب بعضها بعضا بسلام مدة قرون حتى ظهور الصهيونية التي اضرمت جذور الشقاق وخلقت التفرقة الطائفية التي هي ابغض من التفرقة العنصرية ورجعت بالتاريخ آلاف السنين الى الوراء . اما اليوم فان الشعوب تتقدم والبشرية هي كما قال الرئيس الهندي رذا كرشنن في خطابه في الامم المتحدة في نيويورك عند زيارته للولايات المتحدة : « نحن في نقطة انقلاب من الشعوبية الى الاممية » ولكن هذا الفيلسوف الوجودي ـ ياسبرز ـ يريد ان يذهب بنا القهقرى الى التعصب الطائفي المذموم بل الى الحروب الصليبية المشؤومة ، فالعلم والفلسفة يلزم عليهما ان يقدمانا الى الامام لا يؤخرانا ويرجعان بنا الى الوراء . كان الداعي للحرب الصليبية في فرانسة معذوراً لعدم معرفته الحقائق لأن وسائل المواصلات في تلك العصور المظلمة لم تكن متقدمة بحيث تسمح للانسان بالاستعلامات اللازمة ، ولكن ما عذر هذا الفيلسوف في العصر الحاضر ؟.

يقول صاحب الكتاب ان إسرائيل لم تغتصب أي ارض من العرب والدنيا كلها علمت بطرد مايقرب من مليون عربي وضبط اراضيهم واموالهم فهل هذا العمل عمل شرعي حتى ام انه يجهله او يتجاهله؟ حتى في طرق شراء الاراضي اوجدت الصهيونية حالة اقتصادية صعبة مما اضطر المزارع الفلسطيني الى بيع اراضيه والباقي قد اغتصب اغتصابا . وان

دول الغرب حالت دون حصول العرب على حقهم المشروع ودعايات الصهيونية والتمسك بأرض الميعاد التي اصبحت عقيدة اثرت في عالم الغرب وسببت في مساعدة اسرائيل ضد العرب . وكان يجب على مفكر فيلسوف مثله ان لايكون سطحيا ويعلم ان الدين لايدعو الى اغتصاب الاراضي والاعتداء على حقوق الابرياء .

ان اسرائيل لاتمثل جميع اليهود في العالم بل ان كثيرين من احرارهم يتبرأون منها كالجماعة اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية في واشنطن . وقد الف الكاتب اليهودي الحر الفريد ليليانتال مقالا في مجلة المختار الاميركية بعنوان « راية اسرائيل ليست رايتي » بين فيه انه لايمكن لليهودي الحر الضمير ان يقر بجرائم اسرائيل ويكون تابعا لها . اما الاعتداءات المتوالية من الصهيونيين والمنظمات السرية وقتل الضباط البريطانيين وغير ذلك قد طفحت بها الصحف العالمية ولاادري هل يجهل هذا المؤلف كل هذا ام يتجاهل ؟ ان كان لايدري فتلك مصيبة وان كان يدري فالمصيبة اعظم .

ان فلسطين هي وطن روحي ليس فقط من اجل اليهودية بل من اجل المسيحية والاسلام ايضا . فاذا اقرت الباكستان مثلا بان دين الدولة الاسلام وكان وطنها الروحي مكة والمدينة فهل يحق لها ان تغتصب هذه الاراضي المقدسة بالقوة ام تحترمها وتبجلها وتقدسها وتبتعد عن اراقة الدماء فيها ؟ . لا يتفق المبدأ الديني الروحي والاغتصاب بالقوة واراقة الدماء .

ان من الواجب علينا ان نعرف الدعايات ضدنا سواء كانت المغرضة او الجاهل مؤلفها حقيقتها كي نوقف مثل هذا السيل الجارف ضدنا عند حده ولانتركه يطغى فيقضي علينا ، دفاعاً عن حقوقنا واقراراً بالمبدأ الانساني . وأرى من واجب الدول العربية ان تقوم في الرد على هذا الكتاب وتوزع ذلك في اطراف العالم .

في ملخص الكتاب الذي نوهنا عنه عن القنبلة الذرية ومصير البشرية لياسبرس (هكذا جاءت) وتقديم كمال يوسف الحاج (بيروت ١٩٥٩) في فصل ماذا يجب عمله في الواقع جاء في صفحة (٤٥) مايلي :

« قد تقع اليوم حروب لاتستخدم فيها القنبلة الذرية فهل يصبح شن الحرب افظع ميزات الدول الصغرى ، هذه الدول تقترف اعمال عنف لتعديل اوضاعها فتهدد الاضعف من اخصامها للتغلب عليه عنوة ، وفي الاساليب القديمة وبذلك تهدد حتى الدول الكبرى مثيرة هكذا خطر حرب عالمية . وهذا الخطر له مفعول رادع ، لانه اذا قضت الدول الصغرى بمساعدة ما بالقوة ، فان الدول الكبرى لاتجرؤ رغم ذلك على الالتجاء الى القوة لفرض الحق . ولكن هذا الامتياز للدول الصغرى ذات السيادة ماهو ممكن الا لأن الدول الكبرى غير متفقة للدفاع عن الحق والمعاهدات ».

ان المقصود بالدول الصغرى هو الدول العربية ايضا وهذا كلام ينسجم مع قول كارل ياسبرز بضرورة تضامن الغرب ضد العرب . فاذا كان الاستاذ اورخان ميسر عالج الموضوع من الوجهة الفلسفية فان مؤلف هذا الملخص يعالجه من الوجهة السياسية ؟ ولا نـدري من هو المسؤول عن هذا الملخص؟ ان كمال يوسف الحاج كما وصفه الناشر هو واضع المقدمة فقط ولكن من هو الذي اطلع على رأي المؤلف ورضي بالافتراء علنا فقدم اعترافا بلزوم محاربتنا لصالح اسرائيل ، فهل هناك غفلة ام تغافل ؟

حول مقال

(المذهب التعبيري في المسرح)

قارىء يتهم كاتب المقال

ويشير الى مصدر مقاله ويتحداه

في بريد «المعرفة» رسالة شديدة اللهجة من القارىء السيد عثمان رسول عثمان الباب - ثانوية البحتري - الصف الثاني - ثانوي - موجهة اتهام السيد علي عقله عرسان كاتب مقال (المذهب التعبيري في المسرح) في العدد ٢٦ من (المعرفة) بأنه ضمن مقاله نصوصاً حرفية من مقال الدكتور رشاد رشدي في تقديمه كتاب «القرد الكثيف الشعر» للكاتب الامريكي يوجين اونيل - اصدار سلسلة روائع المسرح العالمي التي تصدر في القطر المصري - ترجمة السيد جلال العشري مراجعة حسن محمود - طبع عام ١٩٦٢.

ويقول السيد عثمان (ها انذا اورد النص الأصلي الذي هو بقلم الدكتور رشدي ثم النص المنشور في مقالة الاستاذ (عرسان) تاركاً لكم مقارنة النصين ومعرفة ما اذا كنت صادقاً ام لا...

١ - نص د. رشاد رشدي:

في ص (٦) النصف الثاني من السطر السابع «يؤمن اونيل بأن الانسان حر في الاختيار وانه يستطيع ان يتحكم في مصيره.»

٢ - نص علي عقلة عرسان:

في ص (١٠٣) اول السطر ماقبل الاخير من مجلة المعرفة: «وتنهض فلسفة اونيل على إيمانه بأن الانسان حر في الاختيار وانه يستطيع ان يتحكم في مصيره.»

٣ - نص د. رشاد رشدي:

في ص (٦) النصف الثاني من السطر التاسع: «ومن هنا جاء انصرافه الى محاولة كتابة التراجيديا.»

٤ – نص علي عقلة عرسان :

في ص (١٠٢) السطر الخامس من المجلة « ومن هنا اتت نزعة اونيل نحو احياء التراجيديا . »

٥ – نص د . رشاد رشدي :

في ص (٦) السطر الثالث عشر : « والصراع في مسرح اونيل ليس صراعا بين الانسان والقدر ، ولا بين الانسان والمجتمع ، وانما هو صراع بين الانسان ونفسه ، والموقف التراجيدي بالتالي ينشب داخل النفس البشرية ، وقد يتبلور كما حدث في المسرحية التي نعرض لها – « القرد الكثيف الشعر » – في ظروف خارجية ، ولكنه يبقى في اساسه صراعا نفسياً » .

٦ – نص علي عقلة عرسان :

في ص . (١٠٤) السطر الخامس. « والصراع في مسرح اونيل ليس صراعاً بين الانسان والقدر ، ولا بين الانسان والمجتمع ، وانما هو صراع بين الانسان ونفسه ، والموقف التراجيدي بالتالي ينشب داخل النفس البشرية ، وقد يتبلور هذا الصراع في ظروف خارجية ، ولكنه يبقى في اساسه صراعاً نفسياً » .

٧ – نص د . رشاد رشدي :

في ص . (٧) السطر الرابع : « يقول اونيل في مقدمة احدى مسرحياته :

ينبغي ان يمنحنا المسرح ذلك المعنى الذي لم يعد في طاقة الكنيسة ان تمنحنا اياه ، واذا كنا اليوم نفتقد الآلهة والابطال لنصورهم ، فان لدينا العقل الباطن وهو الاصل في كل الآلهة والابطال . » .

٨ – نص علي عقلة عرسان :

في ص . (١٠١) السطر الثامن « ينبغي ان يمنحنا المسرح ذلك المعنى الذي لم يعد في طاقة الكنيسة ان تمنحنا اياه ، واذا كنا اليوم نفتقد الالهة والابطال لنصورهم فان لدينا العقل الباطن وهو الاصل في كل الآلهة والابطال . »

٩ – نص د . رشاد رشدي :

في ص . (٧) السطر العاشر : « ومظاهر العقل الباطن هي القدر بالنسبة لأونيل ، والصراع هو صراع الوعي ضد اللاوعي . وهو صراع ينطوي على مأساة ، اذ لا يمكن ان تحرز احدى هاتين القوتين على الاخرى نصراً شاملاً دون ان يفضي ذلك الى الموت او الجنون . والصراع بين الوعي واللاوعي ليس هو في الحقيقة الا الصراع بين الصورة والوهمية للذات والصورة الحقيقية . »

١٠ – نص علي عقلة عرسان :

في ص . (١٠٤) السطر الثامن « ومظاهر العقل الباطن هي القدر بالنسبة لأونيل ، والصراع هو صراع الوعي ضد اللاوعي . . والصراع بين الوعي واللاوعي ليس هو في الحقيقة الا الصراع بين الصورة الوهمية للذات والصورة الحقيقية . »

١١ – نص د . رشاد رشدي :

في ص . (٢٢) السطر الثامن : « وقد قال أونيل عن مسرحية القرد الكثيف الشعر :

ان القرد الكثيف الشعر انما هو رمز للانسان الذي فقد الشعور بالانتماء مع الطبيعة ،

هذا الانتماء الذي كان يتمتع به قديماً كحيوان ، الذي لم يستطع بعد أن يكتسبه على مستوى روحي ، وهكذا يجد الانسان نفسه يقف في الوسط بين الارض والسماء ، مفتقداً لهذا الشعور بالانتماء ، وهو يحاول ان يستعيد السلام ويتلقى طيلة محاولته ضربات من كل السماء والارض ، وقد عبر « يانك » عن هذه الفكرة في كلامه .»

١٢ – نص على عقلة عرسان :

في ص . (١٠٤) السطر الثاني عشر يقول عنه – عن يانك – أونيل :

ان القرد الكثيف الشعر انما هو رمز للانسان الذي فقد الشعور بالانتماء الذي كان يتمتع به قديماً كحيوان والذي لم يستطع بعد أن يكتسبه على مستوى روحي وهكذا يجد الانسان نفسه يقف في الوسط بين الارض والسماء مفتقداً لهذا الشعور بالانتماء وهو يحاول أن يستعيد السلام ويتلقى طيلة محاولته ضربات من كل من الارض والسماء .

١٣ – د . رشاد رشدي :

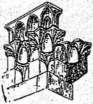
في ص . (٥٣) السطر الأخير وما قبل الأخير : « لأونيل نفسه : وقد كان الصراع في الأزمان الماضية مع الآلهة ولكنه الآن صراع الانسان مع نفسه ، مع ماضيه ، ومع محاولته للانتماء » .

١٤ – نص على عقلة عرسان :

في ص . (١٠٥) السطر الاول « وفي هذه المرحية يتجسد صراع الانسان مع نفسه ، مع ماضيه ، ومع محاولته للانتماء . »

هذه هي المقاطع والجمل المتشابهة في مقالتي الدكتور رشدي والاستاذ عرسان ، اوردتها كما هي عليه تماماً .

هذا ما ورد في رسالة القارىء السيد عثمان رسول عثمان ، وهو يتحدى ان تنشر رسالته وما كشفه . اننا ننشر بكل طيبة خاطر ومع الشكر رسالته بنصها الكامل من حيث المقارنة بين النصوص ، ونغفل كلمات ثانية لاقيمة لها في موضوع التهمة بالذات تاركين للسيد عرسان ، وهو احد الخريجين المرحيين الذين اتموا دراستهم العليا في القاهرة ، ان يدافع عن نفسه ويفسر معنى التشابه او التماثل بين بعض ما ورد في مقاله ، وتقديم الدكتور رشاد رشدي للكتاب المترجم المشار اليه . ولنا كلمة بعد سماع الرد على الاتهام أو عدم الرد .



حول وثائق الأدب المهجري

بين السيدة سكاكيني ، والدكتور الاشتر

جاءتنا كلمة من الدكتور عبـــد الكريم الاشتر ، يقول فيها ان المشادة حول موضوع (وثائقية) الحديث مع الاستاذ ميخائيل نعيمة قد بلغت الحد الذي خرج بالموضوع خـــارج نطاق مجلة (المعرفة) ويريد أن تكون الملاحظة هذه ختاماً للأخذ والرد .

والمعرفة التي تكن للصديقين السيدة وداد سكاكيني المحاسني ، والدكتور عبد الكريم الأشتر ، المودة والتقدير ، تعلن من جانبها أن الموضوع استنفد القول فيه أخـــذاً ورداً ، شاكرة للصديقين حرصها على قيمة المجهود الأدبي الذي من حوله وحده قامت هذه المناقشة الفكرية المفيدة جداً .

الالفبائية السلافية

وعيد العلم والثقافة البلغاري



كيريل ومتود مؤسسا الالفبائية السلافية في القرن التاسع

منذ اكثر من مائة عام والشعب البلغاري يحتفل يوم ٢٤ مايس سنويا احتفالا شعياراتما لتمجيد العمل التاريخي الخالد الذي حققه الاخوان (كيريل وميتود) مؤسسي فن الكتابة والالفبائية السلافية منذ ماينوف عن احد عشر قرنا .

وقد اصبحت بلغاريا بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر بفضل هذا العمل المجيد منارة للعلم والمعرفة في تلك الحقبة من الزمن مما ساعد على خلق وتطور ثقافة الشعوب السلافية واحاطها بسور من الحماية ضد محاولات الفتح والاستيلاء من قبل الاقطاعيين البيزنطيين والجرمان .

ولم يفتأ الشعب البلغاري حتى طيلة سنوات الصراع المرير الذي خاضه لتحرير البلاد من نير العثمانيين ، عن الاحتفال يوم الرابع والعشرين من مايس الذي يعتبره عيد الثقافة والعلم في بلغاريا .

ان عيد الثقافة هذا يسبغ على رجال العلم مزيدا من القوة والاندفاع ويحفزهم للعمل الجدي في سبيل رفاهية وسعادة الشعب وبناء المجتمع الاشتراكي في البلاد في ظل السلام والتآخي مع بقية الشعوب في العالم .

وفيما يلي نذكر احصاء للمؤسسات الثقافية في البلاد البلغارية .

منذ ان استولت الحكومة الشعبية على زمام الحكم في البلاد أحدثت (١٢٠٠) مدرسة جديدة ، واذا اجريت مقارنة مع عدد المدارس في عام ١٩٣٩ يتبين ان عددها تضاعف الى سبع مرات كما تضاعف عدد الطلاب والطالبات فيها الى ١٨٪ وفي المدارس الفنية الليلية والصناعية ٦٨٫٢٦٪ .

ويقدر عدد الطلاب والطالبات في المدارس والمعاهد خلال السنة الحالية بمليون وستمائة وثلاثة عشر الفا ، علما بأن عدد سكان البلاد البلغارية هو ثمانية ملايين . ومما يجدر ذكره ان بلغاريا اصبحت تحتل المكانة الثالثة في العالم من حيث عدد الطلاب

بالنسبة لسكانها ، اذ ان من بين كل عشرة آلاف مواطن يوجد ٦٠ طالبا .

وفي الوقت الحالي يوجد (٩٧٣٠٠) طالبا وطالبة ينتسبون الى ٤٦ معهدا عاليا أو ثانويا .

وفي عام ١٩٦٣ تخرج من المدارس الفنية والمعاهد العليا والثانوية (٣١٠٠٠) طالبــاً اخصائيا في شتى العلوم والفنون ، منهم (٦٧٠٠) اخصائيا في حقل الزراعة و (٣١٠٠) في مهنة الطب و (٣٦٠٠) في فن الهندسة بكافة فروعها.

وقد تقرر ان يكون التعليم الثانوي اجباريا عام ١٩٧٠ في بلغاريا . وسيبلغ عدد الطلاب الاجمالى عام ١٩٨٠ وفقا للتقديرات نحوا من (٢٢٠) الفا منهم ٥٠٪ سيدرسون عن طريق المراسلة أو في المدارس الليلية .

أما المسارح فلم يكن عددها في بلغاريا عام ١٩٣٩ يزيد عن الـ ١٣ مسرحا ، ولكنها الآن بلغت ٤٨ مسرحا يرتادهـا ٦،٣٦٦،٠٠٠ شخصا .



- الفن واستغلال اوقات الفراغ

مجلة بغداد — بغداد

- علم النفس في نظرياته ومدارسه

مجلة رسالة المعلم — عمان

- العلماء الالمان والدراسات العربية

مجلة المجلة — القاهرة

مجلة « بغداد » — العراق

تصدر هذه المجلة وزارة الارشاد في العراق، وهي تعنى بالفنون والآداب بصورة عامة ، وعن مجلة « عالم النفس » ترجم الأستـــاذ « فؤاد عبدالمجيد الاعظمي بحثاً بعنوان «الفن واستغلال اوقات الفراغ» للدكتور بيران وولف ، يقول فيه : يوجد هناك في داخل نفس كل منا قبس من روح الله الخالق المبدع . وهذا القبس الالهي الذي يدفعنا الى الابداع هو مايدعوه علماء النفس بغريزة الابتكار او الانشاء ، وتسلك هذه الغريزة للتعبير عن نفسها شتى الطرق ومختلف الوسائل والسبل . ومما لاريب فيه ان من اهم الاشياء في مشكلة الحياة الناجحة هي مشكلة اعطاء هذه الغريزة المبدعة المعبرة الاهمية التي تستحقها والعناية والرعاية اللازمة وفتح السبيل امام تقدمها وتطورهـــا ونموها وازدهارها .

والفنون كانت منذ القديم موضع اهتمام الرجال والنساء لانهـــا السبل الناجحة والوسائل المناسبة للتعبير عن هـــذه الغريزة وجوهر كل فن هو تحويل المواد الخام لذلك الفن الى تصميم ذي معنى ودلالة رائعة ففي الموسيقى نحن نأخذ الاصوات التي نسمعها ونجعل منها نغماً شجياً ولحناً ساحراً . وفي الرسم نتناول موضوعاً من الطبيعة والحياة ، ونعيد ابداعه وخلقه بحيث يستطيع الآخرون ان يروه مثلما نراه . وفي النحت الذي هو رسم ذو أبعاد ومقاييس ثلاثة نفرغ افكارنا وتصوراتنـا في الشكل العجيني الجامد . وفي الرقص نحن نقيد عواطفنا في حركات عضلية متناسقة ومتوازنة .

وفي الكتابة الادبية نعبر عن تجاربنا للقارىء باسلوب جميل بديع .

ومهما يكن الفن الذي نختاره سواء كان صناعة يدوية كالنقش او أشغال الابرة او الغناء او الرقص او النحت فانه يمثل استسلاما دينيا وخضوعاً روحياً من الذات لهدف او غرض بعيد عن محيط الذات نفسها واسمى منه .

وهذا هو جوهر الفن وأساس اهميته ، وكل شخص يهمل تنمية الجانب الفني فيه ويصدف عن ترقيته ورعايته يكون قد خان ذلك القبس الالهي في داخل نفسه ولا يمكنه الوصول بدونه الى الحياة الحقة الناجحة .

والحقيقة ان الحياة الناجحة هي فن في حد ذاتها . غير ان ممارسة فن معين من الفنون عنصر هام من عناصر فن الحياة . ذلك ان كونك فنانا بالمعنى الابداعي يساعدك على الحصول على السرور المضاعف .

ويقول الكاتب : ان الفلسفة الاساسية للرجل الفنان تختلف عن الفلسفة الاساسية لرجل الاعمال . ذلك ان رجل الاعمال يعالج كل مشكلة من مشاكله عن طريق طرح هذا السؤال «ماهو الشيء الذي استطيع ان أحصل عليه من ذلك ؟ اوماهو ربحي من ذلك ..؟ »

بينما نرى ان الرجل الفنان من الناحية الاخرى اكثر اهتماما بالعمل او تشغيل رأس المال منه بالارباح والفوائد .

ويقول الكاتب في مكان آخر من البحث ملخصاً رأيه : وجوهر الاستمتاع الفني لايستمد ولا يأتي من رأي العالم عن عظمة التصوير او الرسم بل انه يأتي من الجهد والقيام به وصنعه .

رسالة المعلم ـ الاردن

ان علم النفس هو علم السلوك الانساني . اذ اننا لانستطيع دراسة ظاهرة غير معروفة الا عن طريق دراسته ، والانسان كائن حي ، يحوي اجهزة دقيقة ، تدفعه الى ان يسلك سلوكا معينا في موقف معين ، ولتفسير هذا السلوك ولمعرفة اسبابه قامت الدراسات النفسية المختلفة .

وقد نشرت مجلة « رسالة المعلم » التي تصدرها وزارة التربية والتعليم في المملكة الاردنية الهاشمية بحثاً تحت عنوان «علم النفس في نظرياته ومدارسه» للاستاذ حمدي الحنبلي اشار فيه الى المعارك الكلامية التي قامت بين العلماء منذ نشوء هذا العلم ثم قال ان التحليل النفسي قد تطور فانقسم في حياة مؤسسه الى فروع منها : علم النفس الفردي ، ومنها علم النفس التحليلي ، ثم تشعب بعد موت مؤسسه الى علم التحليلين القدامى . والتحليليين المحدثين . وان الافكار والآراء التي أتت بها مدرسة التحليل النفسي . قد لاقت هجوما عنيفا في بداية الامر ، ولكن معظم القوالب الفكرية لهذه المدرسة تسربت الى المدارس الاخرى بمضي الوقت .

وحدث في اواسط القرن الماضي ان كان عالم فسيولوجي يدرس ظاهرة فسيولوجية على كلب في المعمل ، فلاحظ عليه مصاحبات لمثيرات معينة ، فترك البحث الاول واتجه الى البحث النفسي ، فكون مدرسة المثير والاستجابة .

فكانت في بدايتها بدائية ضحلة لا تحسب للعنصر الانساني حسابا . ولكن بمضي الوقت تطورت النظرية واخذت عن بقية المدارس الشيء الكثير حتى اصبحت من اهم نظريات علم النفس ونجحت في المجال التربوي والصناعي .

ثم تشعبت النظريات فكانت احدثها نظرية المجال ، وكانت في بداية امرها قاصرة على الادراك ولكن بتطورها اصبحت لها تطبيقات تكتيكية ناجحة . وان معظم علماء النفس المحدثين يرفضون الاخذ بنظرية معينة . بل نراهم يأخذون بالمنهج التكاملي الذي يأخذ من كل نظرية ما يتناسب مع الموقف . واصبح غرضهم الاساسي الوصول الى الحقيقة .

ولعلم النفس قوالب فكرية علمية اساسية ، مهما اختلفت في تفسيرها لها أو استخدامها اياه .

وان علم النفس هو علم السلوك الانساني ، اذ اننا لا نستطيع دراسة ظاهرة غير معروفة الا عن طريق دراستنا الانسان ككائن حي يحوي اجهزة دقيقة ، تدفعه الى ان يسلك سلوكاً معيناً في موقف معين . ولتفسير هذا السلوك ولمعرفة اسبابه قامت الدراسات النفسية المختلفة وقدمت لنا النتائج المختلفة ايضـاً ، حيث ان مدرسة التحليل النفسي ارجعت السلوك النفساني الى اثر الغريزة الجنسية الشاملة ، في حين ان مدرسة المثير والاستجابة ارجعت السلوك طبقاً الى مؤثرات البيئة وهناك نظرية ثالثة ارجعت السلوك الى الغرائز والدوافع الذاتية ، ونظرية المجال جعلت الانسان يتصرف طبقاً لمقتضيات ترتيب المجال .

مجلة « المجلة » - القاهرة

تحت عنوان « العلماء الالمان والدراسات العربية » نشرت مجلة « المجلة » بحثاً للدكتور مراد كامل . تحدث فيه عن اهتمام العلماء الالمان بالدراسات العربية اهتماماً بالغاً ، ويشير الى ان فجر هذه الدراسات بدأ عام ١٥١٠ على يد « جيوم بوستل » الفرنسي الاصل الذي حمل معه مجموعة مخطوطات نادرة كان قد جمعها من رحلاته الى الشرق .

وكانت هذه المخطوطات هي فاتحة الدراسات العربية في المانيا فقام يونيوس « ١٥٤٥ — ١٦٠٢ » بترجمة بعض أجزاء من الكتاب المقدس الى العربيـــة مستعيناً بمخطوطات من مجموعة بوستل .

ويشير الكاتب الى ان العلماء الالمان وضعوا قاعدة كتب في قواعد اللغة العربية اخذت عن العرب طريقتهم ونهجت منهجاً حديثاً في عرض النحو وفي مقدمتها كتاب « بروكلمان » .

وإشار الدكتور مراد الى ان « نولدكة » نشر كتاب « تاريخ القرآن » سنة ١٨٦٠ وعالج فيه مسألة تاريخ نزول الآيات والسور ونهج في ذلك منهجاً علمياً دقيقاً ، فجاء كتابه عمـــدة لكل باحث في هذا الموضوع .

كما ان « ساخاو » اصدر كتابا في الفقه على مذهب الامام الشافعي ، ونشر « برجشتر سر » كتابا في الفقه على مذهب أبي حنيفة ، واخيراً اهـــتم الاستاذان « براش وشيس » بكتب التشريع الاسلامي وبخاصـــة كتاب الكاساني « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » ونشرا

دراسات لبعض ابوابــه . كما نشر « فوك » بحثاً « عن دور الرواية والرواة في الاسلام » ونشر « برجشترسر » بحثاً عن منهج دراسة الفقه . وله كتاب عن اسس التشريع الاسلامي بحسب الحنفية وقام بنشره بعد موته «شاخت ».

واشار الكاتب الى اهتمام العلماء الألمان بكتب السيرة ففي عام ١٨٦٠ اصـــدر « فستنفليد » سيرة ابن هشام ، وقـــام بترجمتها الى الالمانية « فايل » وكان آخر كتاب صـــدر في السيرة كتاب « بارت » عن « محمد والقرآن » .

وظهرت في منتصف القرن التاسع عشـــر ترجـــة ألمانية لكتاب « الملل والنحل » للشهر ستاني .

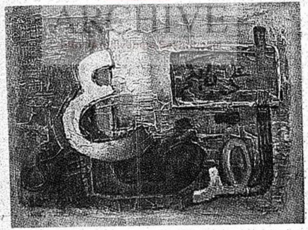
وفي النثر اهتم العلماء الالمـــان بنشر مصادر النثر العربي فنشرت عدة كتب لعـــدة علماء .

وكذلك اهتموا بالشعر العربي والادب الشعبي واللهجات العربية ، والنقوش العربية والاوراق البردية . والدراسات التاريخيـــة ، والتاريخ الاسلامي ، والدراسات الجغرافية ، والعـــلوم الطبيعية ، ويختم الدكتور مراد بحثـــه بكلمة طه حسين « وما انسى فلن انسى الاستاذ ليتمان حـــين لقيته في مؤتمر « ليبزج » وكنت القي حديثي في هـــذا المؤتمر ، واذا الاستاذ ليتمان وكان رئيس الجلسة في ذلك اليوم ، يبكي بكاء شديداً ، كأنه تأثر أن يرى تلميذه يتحدث بين يدي هذا الجمع من العلماء المستشرقين الذين اقبلوا الى هذا المؤتمر في « ليبزج » كانت اذن بين ليتمان وبيني هـــذه المودة التي تكون بين الآباء والابناء » .

معرض الربيع للفنون التشكيلية

حلب – ١٩٦٤

– عرض وتحليل غازي الخالدي



لقد ضاع شهوي على بابكم

تكوين للفنان محمود حماد

من خلال تجربة المعارض التي اقيمت في هذا البلد منذ عام ١٩٥٠ الى الآن ، ونحن نرقب محاولات الفنانين التشكيلية في مجالي التصوير والنحت ، ونتتبع خطواتهم وتطوراتهم ، وكأني بهذه المعارض تقوم بدور الغربال ، السريع الحركة ، يبقي من يبقي ويترك من يترك دون ان يحسب حسابا لزيد أو لعمرو من الناس .

ان طريق الفن شاق وطويل أطول من عمر الانسان، فالفن هو الذي يصنع التاريخ ،وجيل الفنانين في كل عصر من العصور يبني لبنة صغيرة من هذا البناء الشامخ ، ويأتي جيل آخر ليكمل اللبنة الثانية ، وهكذا على مر العصور يقف الفن الخالد كصرح عال له كيان وله شخصية حضارية مرتبطة بالانسان في كل عصر .

والفنان في سورية يبني مع رفاقه جزءاً من هذا البناء الشامخ لتأخذ سورية مكانها في تاريخ الفن ، والواقع أنه ليس في سورية تاريخ للفن الحديث ، واكثر ما انتج الى الان لايمكن ان يدخل باب التاريخ ، التاريخ الحقيقي للفن ، ومسؤولية الفنانين السوريين تبدو هامة وخطيرة من هذه الناحية ، فعليهم وحدهم تقع مهمة بناء تاريخ الفن الحديث في سورية .

والمعارض التي عرفتها سورية منذ عام ١٩٥٠ هي كما قلت كالغربال ، تستقبل اسماء كثيرة ، وتغربلها ثم ينفذ من ينفذ ويبقى من يبقى .

والسؤال الذي يبدو دقيقا هنا : على أي أساس يبقى الفنان في الغربال ، ولا تذروه الرياح،ولا ينفذمن ثقبه الى حيث يذوب ويتلاشى.

ان أي فنان لايمكن له أن يعيش ويبقى هاما فعالا في بناء الحضارة في بلده ، وفي تحمله مسؤولية رسالة الفن مالم يكن انسانا متطوراً ومعبراً عن مرحلته التاريخية بكل ابعادها بكل صدق وبكل جدية رغم مايمر على هذه المرحلة من تغيرات وتقلبات .

إما كيف نفسر التطور عند الفنان فهذا يجيب عليه الكاتب الفرنسي : اندريه بريتون .

يقول : « من البديهي ان النمو هو قانون الحياة ، ويرافق هذا النمو عملية جذرية تغير من ملامح الطبيعة والانسان من جميع النواحي العقلانية والعاطفية والحسية والمادية ، وبالتالي يتغير كل ماصدر عن هذا الانسان ، فالعمل الذي ينتجه الانسان اليوم لايمكن ان يكون حسب قانون النمو والتغير مثل العمل الذي سينتجه بعد سنوات. فلماذا لانعترف بان النمو بالنسبة للفن امر طبيعي ايضا ، باعتبار ان الفن هو احدى الطاقات التي يفجرها الانسان نفسه خلال حياته الطويلة » .

وعلى هذا الاساس اراد بريتون ان يقول ان نمو الفن وتغيره مرتبطان بنمو الانسان وتغيره شكلا ومضمونا .

وبهذه الحقيقة يجب ان نواجه الفنانين عندنا ، ونقول لهم : اين النمو والتغيير في اعمالكم عبر هذه السنين الطويلة التي تغيرتم انتم فيها ؟!!

وبشكل آخر نقول: أين التطور فيما تنتجون؟!

اما التطور الذي نعنيه فليس مجرد تغيير شكلي مفاجىء في الخط أو اللون أو المساحة أو التكوين، انما التطور هو عملية صعبة وطويلة تمتد الى دراسة تجارب السابقين في مضمار الفن ، ثم الى هضم تلك التجارب والاستفادة منها ثم البدء في عملية تبلور

في لباس العصر الحديث على ضوء اصالتنا العربية وشخصيتنا الحضارية، ونكون صادقين مع انفسنا كل الصدق في جميع هذه المحاولات والتجارب، يساير تطورنا النفسي والعقلي والحضاري تطوراً فنياً جذرياً كاملا ، لا أن تعيش في بوتقة مغلقة نرسم ونلون وكأننا في غرفة مظلمة بعيدة عن نور الحضارة ومفاهيم التطور ، ونعزل شخصيتنا : تطورنا الانساني في نمو المفاهيم والاحاسيس والعادات والتقاليد ـ عن تطورنا الفني ، فيبقى الفنان يرسم وكأنه يعبر عن جيل مضى ، وعن عقلية درست ، باحثا عن منفعة موقوتة ، او مناسبة عارضة .

والفن كما يقول دولاكروا في مؤلفه «سيكولوجية الفن» .

« ان الفن لا يبدأ الا في اللحظة التي يتمكن فيها المرء من ان ينصرف عن الطابع النفعي للحياة العملية ، لكي يحرر نفسه من حصار المنفعة او ارادة الحياة » .

« ومهمة الفنان في بلادنا في هذه المرحلة ـ كما يقول الفنان محمود حماد في بحث خاص له ـ اصعب منها في اي وقت آخر لما يحيط بالفن الحديث من شبهات ودجل تجعل الفنان الشاب في حيص بيص ، لايدري اين يضع قدميه ، ولكني متفائل بذكاء وصدق الفنان السوري ، وان احتاج لتحقيق رسالته بعض الوقت والكثير من الجهود والتضحيات » .

ويقول حماد ايضاً :

« ولابد لنا في مستقبل قريب او بعيد من ان نبدأ وان نضيف ولو كلمة صغيرة في سفر الفن العالمي ، كلمة تحمل معنى جديدا ينبع من اصالتنا العربية ومن ذكاء فنانينا وعفويتهم والتصاقهم بارضهم وتاريخهم وأمتهم ، وتجاوبهم بنفس الوقت مع كل التطورات الحديثة الاصيلة خارج حدودهم » .

واخطر ما يواجه فناننا العربي المعاصر في محاولته للتطور هو تعلقه بتجربة معينة أتت له بنتائج ارضت الناس وبعض النقاد ، فاكتفى بهذا النصر الموقت ، ووقف في حدود هذه النتيجة يكررها ويعيدها خوفاً على نفسه من ان يجنح بشكل جديد الى تجربة او اسلوب قد لايرضي الناس من حوله كما نرى في اعمال الفنانين لؤي كيالي ، ممدوح قشلان ، هشام زمريق نعيم اسماعيل ، سامي برهان .

وفي هذا يقول بيكاسو : « عليك ان تختار الاحسن دائماً في كل ماتلقاه من حولك ، ولكن عليك ان تحذر التوقف والتجمد حول ماتراه جيداً في عملك » .

اما الذين يحاولون اغناء تجربتهم الفنية والاستفادة من تجارب الآخرين وامكانات البيئة والتراث والتاريخ والناس والحياة والعصر الحديث فهم قلة ، يعملون ويتطورون ، وبتغير اسلوبهم وتتغير ألوانهم ، وتتغير بالتالي نتائج اعمالهم ولكن شيئاً واحداً يجعلنا نطمئن عليهم وهو ان هذه التجارب التي يحاولونها الآن وهذه البوادر التي تبدو غريبة في اعمالهم ، انما هي وليدة جهد فكري وفلسفي طويلين ، وصلوا اليها بعد ان مروا باكثر التجارب التي مر بها غيرهم ، وتطورهم لم يأت اعتباطا او طفرة كما يخيل للبعض ، انما هو نقطة من طريق طويل مرسوم وضعوه لانفسهم .

من هؤلاء نذكر الفنان محمود حماد في تجربته الجديدة التي ظهرت في اعماله في معرض الربيع لهذا العام ، حيث استخدم وحدات كتابية كموضوع تكوين جديد ، حرص ان تكون العبارات ذات معنى انساني وشعبي بنفس الوقت .

ولماذا نستغرب استعمال الحرف العربي كوحدة اساسية في التكوين، ولا نستغرب استعمال مواسير المياه كوحدة اساسية في تكوينات فرنان ليجيه او المثلث والدائرة والمربع في اعمال كاندنسكي ، او الاشكال الحلزونية اللولبية الطفلية البدائية في اعمال جون ميرو ؟

ان الشهرة مسؤولية خطرة ، وان التزام رغبات الجماهير مسؤولية اخطر وهي دائما ليست في صالح الفن ، ولهذا نرى اكثر الفنانين في بلدنا عرفوا بين الناس باسلوب فني معين ، ورضي الناس عنهم ، تراهم يلتزمون هذا الاسلوب حتى يبقى الجمهور معهم ويرضى عنهم باستمرار .

ولكن ألا يوصل هذا الالتزام السطحي الى التوقف ثم الى التجمد .

ان المسألة بنظرنا ليست مسألة رضا الجمهور اوعدم رضاه ، إنما الحقيقة هي « الفنان » في ايمانه بالتطور او عدم ايمانه ، او بشكل أدق اكثر نقول :

في امكانيته الفنية اوعدمها !

والجمهور الذي يعجب اليوم بلوحة ما يختلف تماما عن الجمهور الذي يكتب تاريخ الفن . اذ ليس اسوأ على الفنان ان يكتب له في تاريخه: لقد تجمد في مرحلة فنية واحدة وبقي يجتر تجربته وخبراته حتى تجمد تماما وانتهى .

ومن الذين تطوروا ايضاً عن اصالة وخبرة وجدية الفنان الياس زيات فالذي يتتبع اعماله منذ بدأ يرسم حتى اليوم يرى كيف ان طاقاته الفنية كثيرة ومتفجرة ومستمرة ، ولم يتوقف ، ولم يهتم لاعجاب جمهور معين او يلتزم اسلوباً معيناً يكرره ويجتره ولكنه كان يرجع حكمه دائماً الى احساسه النظيف الصادق بعمق التجربة الفنية ، ويحكم هذا الاحساس في كل عمل يؤديه .

ومن اطرف مايقال عنه : لوحاته تعبر عن الجنس ، وليست اكثر من فن زخرفي ، ونحن لانرى فيها اي اثر للزخرفة ، او للجنس ، بقدر ما نرى فيها تصعيداً للرغبات الجنسية ، وعمقاً في تجربة اللون بعيداً كل البعد عن بهرجة الزخرفة وتعدد الوانها الصافية كما نرى في اعمال بعض الفنانين الزخرفيين .

اما الفنان فاتح المدرس فاعماله خير مايعبر عنه تمام التعبير في سلوكه ، في مشاكله وبكل مايمت الى حياته بصلة . فاعماله تعبر عن قلق الانسان المعاصر ، قلق يمتد الى اعماق النفس الانسانية ، يعبر عنها فاتح بشكل بساطة وصدق ، وكما تتطور عواطف الانسان وعقليته وايديولوجيته كذلك لوحات فاتح تتطور في خط مواز لتطور افكاره وعواطفه وعقليته .

اما الفنان سعيد مخلوف ، فمنذ ظهر الى الآن لم يأت اليه صديق واحد أوناقد واحد ، اوفنان واحد ، الا وقال له : انت فنان بدائي رائع ، فيك من روح جوجان ، وفيك من روح الحيثيين والاشوريين ، وفناني لاسكو ... الخ ...



الفنان سعيد مخلوف بين تماثيله

ولكن الواقع ان مخلوف يجب ان يعود الى نفسه قليلا ويبحث عن الاسس العلمية للنحت ويدرس تاريخ النحت ويقف على التعاليم التي مهدت لظهور النحت الحديث ، ثم علاقة النحت الحديث بالفن البدائي القديم ، فهو الآن يكرر نفسه ، ويجتر خبراته وتجربته ، بحيث نرى الوجوه عنده متشابهة والتكوينات صارت قريبة من بعضها والحلول التي يطرحها في معالجته للاشكال صارت مألوفة .

وعودة مخلوف الى الدراسة عودة لابد منها لان مخلوفاً فنان اصيل وعنده الامكانية الجديدة في البحث المجدي المبني على اساس علمي مدروس.

ومن ناحية اخرى يمكننا ان نلاحظ ـ في معرض الربيع الحالي ـ ان روح التعبيرية الدرامية مسيطرة الى حد كبير على بعض الفنانين المشتركين في المعرض .

وهذه التعبيرية هي مظهر حضاري هام في تاريخنا الفني الحديث ، وهي نزعة الى الجدية والتخلص من بهرجة التزيينات والحركات الاستعراضية في معالجة المواضيع والافكار التي تظهر من حين لآخر في معارضنا بطابع التسلية واللهو واللامبالاة .

وكمثل لهؤلاء التعبيريين الذين نلمح في اعمالهم روح البحث الجدي والصبر الاكيد ، الفنانة ليلى نصير ، والفنانون وحيد مغاربه ، يوسف الاوبي ، غياث الاخرس .

ونحن في بلادنا وفي فننا اذا كنا بحاجة الى شيء فانما نحن بحاجة الى الجدية والى البحث والى التعمق في التجربة ، والى الصدق في ممارسة هذه التجربة ، فاللوحة الصادقة - كما يقول بيكاسو - اذا ادنيت المرآة منها فان سطح المرآة سيغطى بالبخار تماما كما يحدث عندما يقترب نفس الانسان من المرآة .

هذه الكلمة احب ان يتفهمها الشباب المتحمس للفن الذين لم تتبلور تجربتهم الفنية بعد ، نراهم يتخبطون بين اتجاهات كثيرة كأنما من الضروري ان يلتزم الفنان اتجاها فنيا معروفاً او مدرسة مشهورة حتى يسمى عمله فناً .

بينما الفن غير ذلك ، ويقول تولستوي عن الفن :

« انه احدى وسائل الاتصال بين الناس »



الابله والامل

للفنانة ليلى نصير



من الطبيعة

للفنان وحيد مغاربة

وصدق العمل الفني برأيه بمدى انتشاره ، عن طريق العدوى » ويحدد تولستوي معايير العدوى الفنية بقوله :

« اولا : الاصالة الفردية او الجـــدة . » وهذا امر موفور عند شبابنا الفنانين .

« ثانيا : درجة الوضوح في التعبـــير عن هذه الاصالة . » وهذا ممكن مع استمرار التجربة وتوسع الخبرات .

« ثالثاً : اخلاص الفنان لعمله » . وهذه أهم نقطة في الموضوع .

اذن عملية الفن ليست عملية تقليد ، او تحيز نحو مدرسة معينة او اتجاه ما ، بقدر ما هي اصالة ووضوح وجدية واخلاص .

وبعد هذه المرحلة تأتي عملية التطور ومسايرة العصر في الفكر والمنطق والعاطفة التي تتطور باستمرار مادام قانون النمو هو الذي يسيطر على هذا العالم بأسره .

ولا يمكن لأي فنان مهما بلغ من الخبرة والقوة والاصالة ان يتناسى قانون النمو ويقف امام تيار التطور متجاهلا المفاهيم الجديدة والايديولوجية الحديثة في العلم والفكر والفن والادب والسياسة والحياة .

واذا وقف ، فانه لن يستمر طويلا ، لأن ركب الحضارة المتطور لن يتوقف وسيمضي الى الامام .

قد يقف بعض الوقت أمام كل الناس ، وكل الوقت امام بعض الناس ، ولكنه لن يستمر واقفاً امام كل الناس كل الوقت .

المعارض الفنية في سورية

تقديم حسن كمال

معرض الفنان نبيل المالح

كثرت في السنوات الماضية التظاهرات الفنية الحديثة وأغدقت وزارة الثقافة والارشاد القومي نتيجة للاتفاقات الثقافية المعقودة بين بلدنا والبلدان الصديقة ، أغدقت علينا العديد من المعارض الفنية الاوربية ذات الاتجاهات الفنية المختلفة ومنها الاتجاهات الحديثة وما فيها من غريب ان في التقنية أوفي المضمون أو في الشكل ، وأضحينا نتقبل تلك الاتجاهات محاولين الاستزاده من المعرفة عنها . وسار على هذا الدرب الطويـــل الشاق فريق من ابناء بلدنا الشباب الذين تمرسوا في الاعمال الفنية من بدايتها وحاولوا او جربوا مراحلها الكثيرة حتى بلغوا جوا عاليا من التطور دون أن يأبهوا لما اعترض سبيلهم من صعاب حتى تكللت أعمالهم بالنجاح وساير الجمهور خطواتهم حتى تذوق انتاجاتهم وأعجب بها وأقبل عليها .

وفناننا نبيل المالح اليوم الذي قدمته وزارة الثقافة والارشاد القومي في معرضه الاول في صالة الفن الحديث العالمي هو واحد من ابنائنا الذين خطوا لانفسهم اتجاها معينا في خضم التيارات الفنية الحديثة التي غدت متشعبة الفروع .

وأول مايسترعي انتباه المتأمل في اعمال فناننا هو حسه اللوني العميق فالمعرض بمجموعه يكون سمفونية لونية رائعة تضفي عليه نوعا من الشاعرية الدافئة ، ونوعا من العاطفة الانسانية التي أعارها فناننا جل أهتمامه ولان المعرض في مجموعه لايعدو ان يكون معالجة لمشاكل الانسان باسلوب حديث وبصورة خاصة انسان عصرنا هـذا الذي يشهد ذروة التطور العلمي . ذلك التطور الذي شحنه بالكثير من الاحاسيس الداخلية بالذات هي التي عالجها الفنان لايجاد الصلة بين عالمـــه الداخلي الخاص والعالم الخارجي ، ووضع حد للصراع



جسد
للفنان نبيل المالح

القائم بين العالمين ولوحته نزوة ترمز الى هذا الصراع .

وقد استحالت صور الانسان في لوحاته الى اشباح لاتميزها الا بصعوبة وما هذه الاشباح الا ذكريات خافتة لحوادث لها أثرها العميق في حياة الفنان .

وفي لوحاته محاولات جدية لاختزال الخطوط التكوينية والابقاء منها على مايخلق الشكل .

وكأني بالفنان في معرضه هذا ينظر الى العالم بعين وروح جديدة محاولا التحرر من الصور الذهنية المحفوظة ليوجد صورا جديدة هي انعكاس لعالمه الداخلي .

اما مناظره الطبيعية وما اكثرها في معرضه فقد استحالت الى مساحات لونية يجمع بينهما الانسجام أحيانا ويبرزها التضاد احيانا اخرى وقد اتسم العديد من لوحاته بالطابع التجريدي المحبب والتي لوأعارها الصناعيون ــ وخاصة في مضمار النسيج ــ الاهمية الكافية لأمكن اعتبارها بمثابة نماذج يمكن الاستفادة منها في تزيين الاقمشة لاستعمالات مختلفة .

وصفوة القول ان الفن باتجاهاته الحديثة الحالية لم يعد تعبيرا عن موضوع مرئي معين وانما أصبح تعبيراً عن احساس داخلي يحاول الفنان ابرازه بطريقته الخاصة .

معرض الفنان خالد معاذ

درج الفنان خالد معاذ ان يقدم في كل عام معرضا فنيا يعرض فيه خلاصة انتاجه ، وفي الواحد والثلاثين من آذار الماضي افتتح السيد وزير الثقافة والارشاد القومي معرض الفنان في مرسمه .

ومن الجدير بالتذكر ان الفنان خالد معاذ يهتم بتسجيل تراثنا القديم سواء في فن العمارة الاسلامية او في فنوننا الشعبية وخاصة الأزياء التي تعتبر بلدنا غنية بها لاختلافها باختلاف المناطق الساحلية والداخلية والجبلية والسهلية ، حتى ليكاد الفنان يعتبر مصدرا موثوقا فيها لكثرة اطلاعه الامر الذي جعل هذه المجموعة من لوحاته اغنى ما في المعرض .

اما المباني الاثرية التي سجلها ويسجلها فهي في طريقها الى الاندثار امام اتساع المدينة الحديثة الذي تم على حساب المدينة القديمة الأمر الذي يجعل لعمله الفني قيمة وثائقية نحن أحوج الناس اليها. وهذا الموضوع يفرض عليه اتباع مبادىء المدرسة الواقعية بالرغم من باعه الطولى في ميدان المدرسة الانطباعية والتجريدية والتي عرض بعض أعماله المتمشية مع مبادىء هاتين المدرستين ، غير ان رسالته كفنان يسجل تراث بلده الحضاري تجعله في اغلب الاحيان يلجأ الى الطريقة الواقعية التي لاغنى له عنها لتحقق هذا الهدف .

ويضم المعرض في هذه المرة مجموعة من اللوحات التي تمثل مراكب جزيرة ارواد وقد نفذ الفنان احداها بتقنية جديدة ، وهي استعماله الألوان المائية فوق قطعة من القماش الشفاف في خلق لوحته هذه التي تعتبر بحق من أنجح ما عرض . هذا فضلا عن العديد من الصور الحلوة التي رسمها الفنان بالفحم والتي تسجل بأمانة وذوق جوانب كثيرة من حياتنا الشعبية الفنية بتقاليدها وعاداتها.

والمعرض بثوبه الحديث يعتبر صورة حلوة وصفحة ناصعة عن فنوننا الشعبية وخاصة في مضمار الازياء والعادات والتقاليد .

معرض الفنان كمال محي الدين حسين

مابرحت وزارة الثقافة والارشاد القومي تشجع كافة النشاطات الفنية التي تبشر بخير ، وفي الشهر قبل الماضي اقيم تحت رعايتها معرض الفنان كمال محي الدين حسين في صالة الفن الحديث العالمي. ضم المعرض قرابة ثلاثين لوحة مثلت في مختلفها مواضيع شتى منها الاجتماعي والفلسفي والمناظر الطبيعية والدينية .. وفيها كلها كان الفنان يتبع خطى المدرسة السوريالية هذه المدرسة التي يعتبر « سلفادور دالي » احد زعمائها والتي ظلت ردحا من الزمن تلعب دورا هاما في الحياة الفنية التشكيلية وترك روادها والعاملين ضمن اطارها آثاراً فنية معقدة بعيدة كل البعد عن المدرسة الاكاديمية واذا كان في هذه المدرسة بعض الخروج عن القواعد الكلاسيكية المألوفة فانها ظلت تتسم بطابع الحداثة معبرة عن الحركة اجمل تعبير الى جانب ما فيها من الطرافة واثارة الاهتمام عند المشاهد.

وقد نحا فناننا منحى « سلفادور دالي » غير ان قسما كبيرا من لوحاته كان مطبوعاً بتأثير الفنان « طانجي ١٩٠٠ — ١٩٥٥ » .

والمدرسة الجديدة هي احدى مدارس الاتجاهات الحديثة التي بدأت بالانتشار في بلدنا كغيرها من المدارس الفنية . وبالرغم من النقد الشديد التي تتعرض له المدارس الحديثة في بلدنا فان وجودها ضرورة يفرضها الواقع ويحتمها التطور الفني .

معرض حلقة التكامل الاجتماعي

أقامت حلقة التكامل الاجتماعي والفنون في مقرها بدمشق وتحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومي معرضا فنيا ضم مجموعة من الرسوم التحضيرية لكل من فاتح المدرس والياس زيات والرسوم التحضيرية تلك في الحقيقة لاتقل اهمية عن العمل الفني نفسه لأنها تدل على المراحل التي تم العمل الفني وفقها من جهة وتشير بوضوح الى قوة الفنان واقتداره على التكوين وبالتالي تدل

على ان الاعمال الفنية الجيدة لاتطالها الاعتباطية بل تكتنفها الدراسة الجدية ، يضاف الى هذا كله أن الفنان برسومه هذه يشعرنا بمسؤوليته امام مجتمعه ودوره في تطويره الفني .

والرسوم المعروضة جميعها تدل على ما للخط من اهمية خاصة وأن اكثرها قد تم بالقلم الرصاص . وتتميز الاعمال الفنية في هذا المعرض بالحركة والانطلاق للتعبير عن افكار صاحبها وتحمل بعض تلك الرسوم مسحات لونية شفافة هي في الحقيقة بداية التجارب اللونية التي يمر بها الفنان عند انجازه عمله الفني بشكل نهائي لأن وضع اللون على اللوحة عند الانتهاء من رسمها يحتاج الى تجارب عديدة يجب ان ترضي الاحساس اللوني عند الفنان .

المركز الثقافي العربي

معرض جمعية أصدقاء الفن

في أوائل الشهر المنصرم أقامت جمعية أصدقاء الفن تحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومي معرضها الثاني الذي يمثل انتاج بعض أعضائها الشباب ، وقد تضمن خمسين لوحة وثلاثة تماثيل . ولو استعرضنا الانتاجات المقدمة لوجدناها وقد مثلت في أكثرها مناظر الطبيعة السورية الحلوة ومنها لوحات « تيريز غية » التي تمتاز بشفافية ألوانها واستعمالها الجيد للقواعد الاكاديمية وباحساسها اللون القوي واستعمالها اللون الابيض باتقان أما لوحات « بديعة القواس » ففيها دراسة جيدة وخاصة لوحة الخريف بينما تحتاج في لوحة



محمد وليد عزت

في السوق

« بيسة » الى مزيد من الجهد ليأتي عملها متكاملا وفي لوحات « سالم شوا » عناية خاصة بالاحياء القديمة التي أبرزها الفنان في لقطات رائعة معالجاً فيها مشكلة الظل والنور معالجة حسنة . ومن بعيد تجتذبك لوحات « محمد وجيه مدور » الجيدة بدراستها والمعبرة أروع تعبير بشفافيتها وكأني به يتجاوب نفسياً لا مع الالوان التي أكسبها مزيداً من الانسجام والشفافية الحلوة التي تذكرنا بلوحات الاستاذ نصير شورى وخاصة لوحة « هدوء » أما لوحات « محمد وليد عزت » فتدل على اصالة ومعرفة عميقة بقواعد الرسم وخاصة المائي منها والتي أشارت بوضوح الى احساسه المرهف وقدرته على الاداء ، وكأني بالفنان وقد

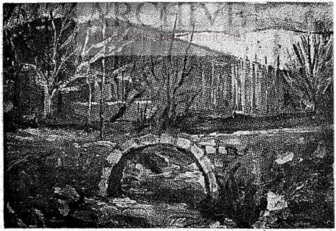
مارس عمله منذ سنوات طوال ، لوحاته مشبعة بالدراسة والتعبير عن حركة الاشخاص الممثلين فيها بالاضافة الى اجادته في خلق الجو الذي يحيط بموضوعه من كل جانب فلوحة خيمة بدو وبيت دمشقي وفي السوق ... كلها لوحات تعبر عن أجواء بلادنا .

ويطالعك في زاوية أخرى من المعرض منظر متواضع صغير « لسامي جمعة » استطاعت التحكم فيه من حيث التلون والتكوين في حين انه في لوحتها الثانية « الهامة » الحصان والعربة يحتاجان الى مزيد من الدراسة .

ومهما يكن فالمعرض الذي نحن بصدده يمثل نشاطاً جديداً يبشر بخير كثير .



وجيه مدور — حديث في القرية



سامي جمعه — منظر من بلودان

المتحف الوطني

معرض الفنان الاسترالي فرانك بيك

تحت اشراف وزارة الثقافة والارشادالقومي اقيم في الحادي والعشرين من آذار الماضي فيجناح المعارض معرض الفنان الاسترالي فرانك بيك .

الفنان بيك قدم سورية كزائر لها مطلع على تراثها الحضاري الرفيع ، فأعجب بالعديد من جوانبها بعد ان زار بعض مدنها وارياقهاوسجل بقلمه وريشته صورا حلوة اوحتها له انطباعاته الحارة عن بلد احبه واعجب به . وتعتبر رسومه العديدة التي رسمها عن بلدنا تعتبر بحق اجمل ماصوره فنان اجني عنها اذا لم يعالج الفنان ناحية معينة دون اخرى ، وان كانت الاشياء الطريفة التي استرعت انتباهه اكثر من غيرها هي المساكن والأسواق القديمة ، المساكن بكل ما تحمل من طابع الشرق واشراقه والريف وما فيه من جمال وحياة ، لقد اعجب بطلعة الرجل العربي وكبريائه فسجل انطباعه عن هذا كله بصور حلوة تفيض بالحركة والحيوية رغم قلة خطوطها التشكيلية تلك الخطوط التي لاتجمع بينها الا الرشاقة واللين ولايهيمن عليها الا كمال التكوين سحرته المرأة العربية بجمالها ورقتها واناقتها وملابسها وخاصة التقليدية منها فصور العديد من الصور عنها وحملها اصدق التعابير واعطى عنها اجمل الصور .

وبصورة عامة اجتذبت فناننا الحياة الشعبية بكل مافيها من بساطة وصدق وحيوية . كما ابرز



لوحة للفنان فرانك بيك

حياة الطبقة الكادحة بوجهها المشرق في مختلف الميادين . وبكلمة واحدة ان الجوانب الكثيرة من وطننا العربي والتي اعجبت الفنان تحدث عنها في لوحاته بصفاء وعمق وهي لعمري بعض مميزات الفنان الذي استحق تقدير شعبنا الذي زار بأعداد كبيرة معرضه واعجب أيما اعجاب بفنه الاصيل .

معرض اعمال طلاب كلية الفنون الجميلة

افتتح في الواحد والثلاثين من شهر ايار الماضي وتحت رعاية السيد وزير التربية والتعليم في المتحف الوطني بدمشق اول معرض من نوعه منذ اسست كلية الفنون الجميلة بدمشق .

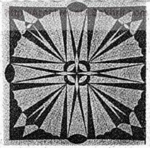
وفي بداية الحفل بهذه التظاهرة القى السيد

عميد كلية الفنون الجميلة كلمة نوه فيها بالحركة الفنية السورية النامية والتي رسخت الإيمان بالفن واهميته منذ اسست كلية الفنون ، وكيف ان عواطف الجمهور وعناية المسؤولين واكبت نمو هذه الكلية التي نقطف ثمارها اليوم ، هذا اليوم الذي يقدم فيه طلبة الكلية نتائج جهودهم في كافة الفروع : الهندسة المعمارية ، النحت التصوير ، الحفر ، والديكور .

وتحدث فيما بعد السيد وزير التربية فأبان ما للفن من اهمية والدور العظيم الذي ستلعبه هذه الكلية في بلدنا مشيدا بجهود الاساتذة والطلاب معلنا تأييد الدولة للحركة الفنية لما للفن من اهمية في حياة الامم .

وفي نهاية الحفل وزع السيد الوزير الجوائز التقديرية والمالية على الطالبات والطلاب الذين نالوا احسن معدل في ارقامهم وهم : ليلى زعرور ، وديع رحمة ، منور حسن آغا ، جرجس رحمة ، ليلى عابدين ، وجان ابو عياش .

ثم قام السيد الوزير بقص الشريط الحريري وطاف الجمهور بقاعات المعرض للاطلاع على انتاج الطلاب الذي كان مثار اعجاب المشاهدين واكبارهم للعاملين في هذه الكلية اساتذة وطلاباً .



ترجمة
متري
حارونة

التمييز بين الهزة الارضية والانفجار النووي تحت سطح الارض

كثيراً مايختلط الامر على الدوائر العلمية المختصة فلا تميز آلاتها العلمية الدقيقة بين انفجار نووي اجري تحت سطح الارض والهزات الارضية الناتجة عن الزلازل . ويقوم العلماء المختصون باجراء بحوث مضنية للتوصل الى طريقة علمية في التمييز بينهما . وقد نجح العلماء في مرصد لامونت الجيولوجي في ايجاد طريقة علمية للتوصل الى ذلك . وتتلخص الطريقة العلمية المذكورة في انزال مرسمة للزلازل (سيزموغراف) الى قاع المحيط الهادي في الصيف القادم . وتتصل هذه المرسمة باحدى المحطات الارضية بسلك طوله مائة ميل . فيمكن بهذه الطريقة التمييز بين الانفجارات النووية والهزات الارضية التي غالباً مايكون مصدرها المحيط الهادي والمناطق المحيطة به .

اصل الصخور الزجاجية (Tektites)

يرى الكثيرون من علماء الطبيعة بأن هنالك ملايين الاطنان من التراب والصخور جاءت الى الارض من القمر . الا أنه ليس بالامكان تمييز مثل هذه الصخور عن غيرها بسبب مشابهتها لصخور الارض وتربتها . وقد قام بعض العلماء بدراسة نوع من الصخور يطلق عليها اسم Tektites أو الصخور الزجاجية لأنها تشبه الزجاج في مظهرها . ويرى هؤلاء الجيولوجيون بانها جاءت من القمر . وقد عثر عليها في سهول شمال امريكا والشرق الاقصى واوروبا وافريقيا . ويرى هؤلاء العلماء بأن هذه الصخور قبل أن تصل الى الارض ذابت من جراء السرعة الفائقة اثناء مرورها بالفضاء ، ثم تجمدت واتخذت لها اشكالا مختلفة بتأثير التيارات الهوائية التي صادفتها في طريقها الى الارض .

ويرى البعض بأن مصدر هذه الصخور هو النيازك والشهب التي تصطدم بالقمر بصورة مستمرة

وبسبب عدم وجود جو في القمر يمنعها من الهبوط الى ارضنا . فسرعة هذه النيازك التي تصدم القمر تبلغ (١٧) كيلو مترا في الثانية . ويرى آخرون أن شدة الاصطدام هذه تحدث انفجارا يؤدي الى نشوء هذه الحفر التي تبدو وكأنها فوهات براكين على سطح القمر . ويختلف اتساع هذه الحفر بنسبة حجم النيزك . والسرعة الدنيا للاشياء على سطح القمر تقدر بكيلومترين واربعة اعشار في الثانية الواحدة . ولا شك بأن جسما يقذف به بمثل هذه السرعة من على سطح القمر ، سيغيب في الفضاء ولكن جزءاً ضئيلاً منه فقط يهبط الى الارض . أما الباقي فيظل في مداره حول الشمس أو حول الارض . ويذهب العلماء الى القول بأن القليل من الصخور والاتربة وصلت الى الارض من القمر في غضون الثلاثين مليون سنة الماضية . ويقول هؤلاء بأن التشابه الكيماوي القائم بين هذا النوع من الصخور وتلك الموجودة على الارض، يدل على ان القمر والارض كانا جزءاً واحداً فانفصلا أو أنهما كانا قريبين ابان تكوينهما .

رؤية الالوان والعمى الطبيعي

ليست المخلوقات متساوية في رؤية الالوان والاشكال . فدودة الارض مثلا لاتعرف غير الضوء والظلمة . فعيونها عبارة عن خلايا حسية لاتمكنها من رؤية الالوان او الاشكال . وكذلك الامر بالنسبة للديدان التي تعيش في الجداول المائية والبرك . فالخلايا الطبيعية الحسية تفتقر الى العدسات البصرية التي تمكن بعض المخلوقات من الابصار .

والنحلة التي توجد لديها الاف العيون الصغيرة تستطيع ان ترى اكثر من الانسان في بعض الاحيان ولكنها مصابة بعمى اللون الاحمر بالرغم من قدرتها على ابصار مافوق البنفسجي والالوان الاخرى .

قاموس لاصوات القردة

تمكن استاذ علم الحيوان في جامعة « كيوتو » من وضع معجم خاص باصوات القردة التي تلجأ اليها الحيوانات المذكورة وقت الخطر او في التخاطب والتفاهم فيما بينها او للتعبير عن مختلف عواطفها واحاسيسها . فيقول الاستاذ ميادي ان هنالك لغة خاصة بالقرود تتفاهم بها . فهنالك الفاظ خاصة بالتحذير من الخطر المحدق بها واصوات اخرى تصدر اثناء وقوع المعارك بينها واصوات متعارف عليها خاصة بالتحية والتعبير عن العواطف بالاضافة الى لغة الاشارات التي تتخاطب بها من مثل هز الكتف الدلالة على عدم القبول واحناء الرأس دلالة على القبول تماما كما يفعل البشر . ويضيف الاستاذ المذكور ان القردة سريعة التعلم بالتقليد والمحاكاة .

حقائق مثيرة عن عالم الحيوان

قام العالم اوزموند بريلاند بتأليف كتاب عن عالم الحيوان احدث ضجة كبرى في الاوساط العلمية لما فيه من معلومات قيمة وغرائب عن كثير من الحيوانات المعروفة في جميع اقطار العالم .

والجدير بالذكر ان العالم المذكور لم يكتف بجمع الحقائق المثيرة عن بعض الانواع من

الحيوانات بل قام بتفنيد بعض الحقائق المعروفة عن بعض الحيوانات ودحضها . واليك بعض ماجاء في كتاب العالم المذكور من حقائق مثيرة ومعلومات شيقة :

● ان النعامة لاتخفي رأسها في الرمال كما يعتقد الكثيرون . صحيح ان النعامة حيوان غبي ولكنها لم تصل الى هذه الدرجة من الغباء .

● وحيوان الخلد ليس اعمى كما يزعم البعض انه حيوان ضعيف البصر ولكنه مع ذلك يبصر ويميز النور من الظلام .

● اما الدب القطبي فلا ينام طوال فصل الشتاء كما يقول البعض . فهو يخرج بين حين وآخر للبحث عن الطعام .

ومن الغرائب التي وردت في كتابه عن بعض الحيوانات الغرائب التالية :

● تعيش في امريكا الجنوبية انواع من السحالي تستطيع السير على سطح الماء مسافة ربع ميل .

● يدافع حيوان اللاما عن نفسه بالبصاق . فللحيوان المذكور قدرة عجيبة على توجيه بصاقه الى كل من يثيره بواسطة اسنانه والى بعض المسافة وبدقة .

● ليست الحرباء اقدر الحيوانات على التلون حسب الوسط الذي تعيش فيه . فهناك انواع من السمك تسمى Flounder و Tuybot (سمك الترس) ، اقدر من الحرباء على تغيير لونها وتتلون بسرعة مدهشة .

● وان هناك حيوانا حقيراً من ذوات الفراء يعيش في شمال امريكا يشبه ابن آوى يقوم بغسل طعامه قبل اكله عدة مرات .

الرياضة وامراض القلب

اجرى الدكتور ددلي وايت عدة اختبارات على خمسة عشر رجلاً من المصابين بامراض قلبية مختلفة ، بين سن الخامسة والثلاثين والخامسة والخمسين من العمر لمعرفة مدى علاقة الرياضة البدنية بامراض القلب واثرها على المصابين بهذه الامراض. وكانت اجسام هؤلاء الرجال قداصيبت بالترهل والرخاوة بسبب عدم ممارسة الرياضة بانواعها والاخلاد الى الراحة التامة . وبعدبرنامج من التمارين الرياضية دام ستة اشهر ، تبين له أن الاشخاص الذين طبق عليهم برنامجه الرياضي التدريجي المذكور بدأوا يشعرون بالراحة التامة ووجد بانهم لم يعودوا يشعرون بأي تعب بعد ممارسة الالعاب الرياضية المطلوبة وفقا للبرنامج الذي وضعه . ولاحظ هبوط مادة (Triglycerides) التي تكثر في دم المصابين بامراض القلب . فقد هبطت من (٢٠٥) مليغرام الى (١٢٥) مليغرام . فثبت للباحث المذكور ان التمرينات الرياضية المعتدلة والمعقولة لايمكن ان تؤثر على المريض كما كان يظن في السابق . بل قد تكون مفيدة له كل الفائدة في اي سن حتى ولو لم يمارس الرياضة من قبل .

القهوة وتأثيرها على الانسان

كثيرا مايبدو علم الطب بصورة النذير المحذر في كثير من مراحل حياة الانسان وعاداته اليومية وغذائه . فكثيراً مانسمع الاطباء يقولون لمرضاهم حذار من الاطعمة المقلية او راقب وزنك ويحذرون المرضى من التدخين . وقد عمد كبار الاطباء الى

التحذير من نتائج ادمان شرب القهوة أو الاكثار منها .

كان الاطباء يقولون بان من خصائص مادة الكافايين الموجودة في القهوة تنشيط الدماغ وانها تؤدي الى ازالة التعب . ولكن الاكثار من شرب القهوة في رأي هؤلاء العلماء يؤدي حتما الى اضطراب دقات القلب ــ الخفقان .

لقد اختبر الكثيرون من الناس شيئاً من اضطراب دقات القلب . ويقول الاطباء أنها غير ضارة . ولكن الكثيرين من الاطباء يقولون بان كثيرا من خفقان القلب واضطراب دقاته لدى المرضى يكون عادة ناتجا عن كثرة شرب القهوة . فقد ثبت للطبيب هيون من سلسلة التجارب التي اجراها على الكثيرين من المصابين باضطراب دقات القلب أن البعض منهم اعتاد شرب من (١٠) الى (٢٥) فنجانا من القهوة في اليوم الواحد . لقد وجد الدكتور هيون هنا ، بان كل فنجان من القهوة يحتوي على (١٠٠) الى (١٥٠) مليغراما من الكافايين . ولهذا فلا غرابة ان يصاب هؤلاء المرضى بخفقان القلب واضطراب دقاته . ويرى هيون ان ادمان شرب القهوة قد يؤدي الى نتائج اخطر من مجرد اضطراب دقات القلب . فبعد التجارب التي اجراها الدكتور بول وزملاؤه في جامعة ايلينوي على الفي مريض بامراض القلب وجد ان كثيرا من هذه الامراض ناتج عن العلاقة القائمة بين النوبات القلبية وضغط الدم العالي وزيادة نسبة الكولسترول في الدم والتدخين ولكنه وجد كذلك علاقة بين هذه الامراض والاكثار من شرب القهوة .

ويقول الدكتور بان الذين اعتادوا تناول اكثر من خمسة اقداح من القهوة يوميا عرضة للامراض القلبية . والجدير بالذكر أن لا الدكتور هيون ولا الدكتور بول ينصحان بالامتناع عن شرب القهوة ولكنهما ينهيان عن الاكثار منها ويأمران بالاعتدال .

زرع الرئــة

اجرى لفيف من الاطباء عملية جراحية فذة تعتبر الاولى من نوعها . فقد قاموا بزرع رئة مكان رئة سجين مصاب بسرطان الرئة ، اخذت من رجل توفي حديثاً . وقد استخدم الاطبـاء عقاراً اسمه Azathioprine للحيلولة دون مقاومة جسم المريض لزرع الرئة الغريبة ، كما هو معلوم في الطب . وكانت قد اجريت التجارب العديدة على هذا العقار الجديد في (٤٠٠) عمليــة اجريت عــلى رئات الكلاب فكانت النتائج مرضية للغاية . وتوفي السجين بعد عشرين يوماً من اجراء العملية ولكن الوفاة لم تكن بسبب الرئة المزروعة بل بسبب تعطل كليتي المريض .

وتعتبر العملية هامة في علم الجراحة ، اذ ثبت بالدليل القاطع ان جسم المريض لم يرفض الرئــة الغريبة المزروعة ، كما كانوا يخشون .

مجهر جديد ذو فعالية هائلة

تقوم الشركة الكهربائية الصناعية المتحدة في لندن ، بصنع مجهر الكتروني وضــع تصميمه خصيصاً لعلماء الاحياء . ويقول العلماء الذين اشرفوا على صنعه بأنه يستطيع ان يكبر الاشياء من الف مرة الى مائتين وخمســين الف مرة دون الحاجة

الى تغيير محوره وسيعرض المجهر المذكور لأول مرة في لندن في معرض الجمعية الطبيعية في شهر كانون الثاني .

الصلع : وهل سيتمكن علماء الطب من علاجه ؟

الشعر موضوع هام جداً بالنسبة للكثيرين من الناس في جميع انحاء العالم لذا فان رؤية سقوطه قد تسبب مايشبه الهستيريا عند الكثيرين .

وقد حاول الكثيرون من علماء الطب معالجته ولكنهم لم ينجحوا الى حد بعيد. وفي غمرة الجهود اليائسة اخذ الكثيرون من علماء الطب يشيرون الى ان العلاج الوحيد هو استعمال الشعر المستعار. الا أن علماء الطب الحديث خطوا خطوات جريئة في علاجه تعد الاولى من نوعها . وبالرغم من أن طريقتهم الجديدة لم تسجل نجاحاً تاماً الا انها أدت الى بعض النجاح .

لقد قام لفيف من علماء الطب مؤخرا بتجربة جديدة للتغلب على الصلع وهي محاولة اجراء جراحة يزرع الشعر بواسطتها في المكان الخالي من الشعر على أن يؤخذ الشعر من الامكنة المليئة بالشعر في جوانب راس الاصلع. ويزرع الشعر في الامكنة الصلعاء على مسافات متفاوتة حتى يغطي الرأس حينما يبدأ في النمو .

ويبدأ الشعر المزروع عادة في السقوط بعد مرور شهر واحد تقريباً . وبعد ذلك بشهرين تبدأ الجذور في النمو ويبدأ الشعر الجديد في الظهور . والجدير بالذكر ان الشعر الذي نبت يتبع نفس الخطوات التي اتبعها الشعر القديم من حيث سرعة نموه وسقوطه .

وعملية زرع الشعر في الواقع عملية في مراحل التجربة ، وتلقى معارضة قوية شأن كل شيء جديد . ولكن العملية ثبتت فائدتها وأدت الى نجاح عظيم في بعض الحالات . ويقول العلماء الذين قاموا بهذه التجربة ان نمو الشعر المزروع استمر في بعض الحالات لأكثر من خمس سنوات . ومع ان النتائج ليست مرضية مائة بالمائة ، الا أن هؤلاء العلماء يؤكدون بأنهم سيتوصلون مع مرور الزمن الى النتائج المرجوة فيقضون على قلق اصحاب الصلعات اللامعة .

والجدير بالذكر ان موضوع الصلع استأثر باهتمام العلماء والاطباء منذ اقدم الازمنة . فقد اكتشفت وصفة طبية على احدى اوراق البابيروس (البردي) يعود تاريخها الى ماقبل أربعة آلاف سنة . وتنصح الوصفة المذكورة صاحب الصلعة باستخدام الدواء التالي المؤلف من اجزاء متساوية من شحم الاسد ووحيد القرن والتمساح والوزة والحية ثم تخلط جيدا وتدهن بها الصلعة .

فرس البحر

اكتشف العلماء في البحار الاستوائية نوعا من فرس البحر يعتبر اغرب ماعرف من هذا النوع فالحيوان المذكور رأس كرأس الحصان وذنب كذنب القرد وجيب لاولاده كجيب الكنغر وجلد كجلد الحشرة وعيون كعيون الحرباء .

والجدير بالذكر ان هذا الحيوان الغريب يسير في البحر بصورة رأسية . ويتألف جلده الخارجي من حلقات عظمية ذات مفاصل . ويعيش هذا الحيوان الغريب على الاسماك الضعيفة وغيرها من المخلوقات البحرية الصغيرة . وفي وقت اللقاح أو التزاوج يقوم الذكر والانثى برقصة مشتركة تضع بعدها بيوضها في جيب الذكر فيحملها حتى تكبر وتصبح قادرة على الاعتناء بنفسها . فيتركها وشأنها بعد خمسة واربعين يوماً من عملية التزاوج.

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

بقلم فؤاد الشايب

سنطلع في هذه الجولة على ملامح التخطيط الاقتصادي واهدافه لدى الشعوب المتخلفة - نماذج من مجتمعات الاقتصاد الزراعي ، ومجتمعات الاقتصاد الصناعي - سنطرح السؤال : هل هناك نهج مقرر يتبعه اي مجتمع متخلف ، في سبيله الى التصنيع والأخذ باسباب التقدم - ملامح الاشتراكية الهندية في آسيا كدولة كبيرة - والاشتراكية الغانية في افريقية ، كدولة صغيرة - كيف يمكن للدول الصغرى ان تحقق استقلالها الاقتصادي - وما هو سبيلها الى هذا الهدف الكبير - ؟!

عرضنا في فصول سابقة ، أن التخطيط غدا ركناً سياسياً من اركان الحكم، وعلى الأخص منذ الربع الثاني من القرن العشرين مهما يكن النظام السائد في مجتمع من المجتمعات ، ومهما تكن اهدافه من سلمية الى حربية ، ومن اصلاحية إلى ثورية . فاذا كان من اهداف التخطيط في المجتمع الاشتراكي أو السير نحو الاشتراكية ، تأكيد سلطة الجمهور الكادح بعماله وفلاحيه ، وهو يمثل الأكثرية المددية وقوة الانتاج المادية، فمن اهداف التخطيط في المجتمع الرأسمالي الحديث ، مجتمع القرن العشرين ، حماية النظام الرأسمالي من الانهيار ، بتضحية بعض مغانمه من أجل

بقائه ، لاسيما بعد أن محا الواقع علمية النظرية الليبرالية في أن قانون العرض والطلب وحده ، كفيل بتنظيم الحاجات وتوزيع الثروة ، وتحقيق الرخاء العام مما كان سائداً في القرن التاسع عشر ، حتى اوائل القرن العشرين ، في فلسفة الفلاسفة ونظريات الاقتصاديين .

فاذا كانت على هذا ، حالة المجتمعات المتقدمة المصنعة تصنيعاً كاملاً ، حتى الآخذ منها أصلا بمبدأ الحرية الاقتصادية ، فأولى بالمجتمعات المتخلفة ، او المتعثرة في مراحل النمو أن يكون التخطيط لها نظام اقتصاد وسياسة ، وسبيل توطيد كيان ، وتسريع نمو ، وتحقيق رخاء مع عدل .

أما وأن التخطيط قد غدا علماً ، وخبرة ، وفناً ، له ما للعلم من قواعد ، وللخبرة من حذق ودربة ، وللفن من سلالم وخطوط وأصول فقد غدا التمرس به ليس رياضة عقلية رفيعة فحسب ، بل ضرورة قومية تشحذ بالاحتكاك بها مواهب المجتمع وفعاليات نشاطه ، وتبرز للعيان فضائل شعبه ، وحكامه معاً . وأما فضائل الشعب ، فتظهر في انه يؤلف مجتمعاً منظماً ذا هدف واضح مركز ، فلا تعيق الفردية فيه شرعية العمل الجماعي ، ولا تقعد به بدائيته عن الطموح الى استبدالها بتقدميته . وتظهر فضائل الحكام في أن التخطيط الذي يمنح الدولة الممثلة بمحكوماتها ، سلطات واسعة ، تحد من كثير من حقوق الأفراد اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، لن يكون ذريعة ابداً الى اقامة نظام (المستبد العادل) لأن هذا النظام خرافة ماجمعت الاستبداد والعدل قط إلا لمصلحة الاستبداد ، ولا إلى تجميل سياسة القيادة (إلى الجنة بالسلاسل) لأنه قد ثبت في تاريخ كل أمة ، منذ فجر التاريخ ، ومنذ أن عرف التأريخ ، أن السلاسل ليست سوى احابيل الأبالسة في قيادة الناس إلى اعماق جهنم .

وهنا ، لن نعود ثانية الى الاستشهاد بالثورة السوفييتية الجديدة على الستالينية كدلالة بارزة من دلالات العصر ـ فقد سبق أن مررنا بالشاهد هذا في فصول سابقة . انما يلزمنا المقال هنا ، بأن نذكر اقوالاً للرئيس خروتشوف ينكر بها الحصول على التقدم بهذا الثمن الباهظ

الذي دفعه الشعب من حرمانه وعذاباته من اجل التسريع ، والتشريك،والتنظيم. كما يجب ان نذكر معاً أنه مهما يكن تشكيك الغربيين في الاتجاه السوفيتي الجديد ، وتشويه واقعه وحوافزه بأنه مجرد تكتيك شيوعي ، ودعاوات شخصية لخلف ستالين ، فمن المؤكد الثابت أن الاتجاه ، قد حفر اقنيته حفراً في حياة الاتحاد السوفيتي ، وفرض نفسه فرضاً على حكامه باعتراف الرئيس خروتشوف واعلانه الرسمي ـ فهو ، على هذا، اكثر من استراتيجية سياسية ، أو حملة دعائية.

يضاف الى ذلك أن الاتجاه السوفيتي مابعد الستاليني ، لا يقتصر في الترويج لمبادئه على كونه يمثل (انسانية) التخطيط الاقتصادي ، إذ ما قيمة اي مجهود علمي وتنظيمي اذا لم يكن هدفه الانسان،فرداً وجماعة ـ بل على كونه يمثل (انتاجية) التخطيط الفعلية الطويلة الأمد ايضاً . اذ لن يكون تخطيط القهر والقسر اوفر انتاجاً ، في ختام الحساب ، كما يتوهم المتوهمون ، او كما كان سائداً في بعض المجتمعات . بل إن الطواعية والرضى اللذين يرافقان اعداد الخطة وتنفيذها هما عنصران اقتصاديان واقعيان ، لا يقل مردودها عن مردود القوة المادية ماثلة في العمل ورأس المال . من اجل هذا، اندفع التخطيط السوفيتي بقيادة الرئيس خروتشوف ـ كما رأينا في فصل خاص ـ نحو قيم انسانية وانتاجية غير معهودة منذ قبل او غير معترف بها . كما قد خطا التخطيط اليوغوسلافي ،(*) خطى جريئة خارج الأطر الماركسية الكلاسيكية ، حتى ليتهم بالمروق والانحراف .

لهذا ، ويغلب على الظن أن المجتمعات المتخلفة ، والسائرة في طريق النمو ، قد اختارت او هي على وشك ان تختار منطلقات للخطة الاقتصادية تبعد كثيراً عن الزوايا الحادة ، وقدرت هذه المجتمعات بعفوية شعبية أو بحنكة قيادية أن وراء كل خطة ، يجب ان تتهيأ وحدة وطنية ، أو أن الخطة نفسها يجب ان تكون عاملاً من عوامل تحقيق الوحدة الوطنية . وقد رأينا في الفصل السابق ان كثيراً من

(*) الاعداد ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ من المعرفة — جولة الشهر —

المجتمعات الناشئة في اسيا وافريقية، يرفض الصراع الطبقي منطلقاً الى التشريك، وان يكن واقعاً تحت اثر الماركسية بالذات ـ وبالتالي فانه يرفض تغليب طبقة على طبقة وينطلق من صعيد المصالحة الاجتماعية والتعاون الوطني الذي تفرض اولويته ظروف النشوء من الحضيض، متخطياً بواقعه تنازع الدكتاتوريتين : دكتاتورية البروليتاريا، ودكتاتورية البورجوازية (*) وعلى هذا فالخلية السياسية في الأساس الاجتماعي، لدى معظم الشعوب الطالعة، هي (الامة) لا (الطبقة) ولقد اعترف الماركسيون انفسهم، بحق هذه الشعوب في تقييم الكيان الجديد، وطنياً لا (طبقيا)، باعتبار أن الحالة النضالية ضد الاستعمار لاتزال قائمة بحيث تلتزم بمبدأ (التجمع) لا بمبدأ (التنازع) .. وعلى الاخص وقد بدل المستعمرون ثيابهم، كما يرى الرئيس نكروماماثلاً في تنكر (السوق الاوروبيـــة المشتركة) وتهيأوا لغزو اقتصادي، ظاهره العون، وباطنه اعادة التعامل غير المتكافىء بين دولة مصنعة قوية، ودولة تبيع كنوزها للسوق بصحن رخيص من عدس ..!! وهو الوضع أو الحـــدث المسمى بالاستعمار الجديد Neo-colonialism .

ومثلما اعترف الماركسيون، للدول الناشئة في آسيا وافريقية، بهذا الحق، كذلك لم يكن بوسع الباحثين الغربيين، ـ أو بعضهم بالأصح ـ الا أن يعترفوا بأن (البرلمانية) السائدة في بعض اوروبة وامريكا الشمالية، ليست بالنظام الذي يمكن أن يستتب في مهب الحركات الصاعدة يستحثها عامل السرعة في المقام الاول وهي تخطط لاقتصادها ومجتمعها الناشئين. وان شكلا ما من أشكال الديموقراطية السياسية، يمكن أن يمارس على مراحل، مع تطور الكيان الاقتصادي، وتنامي

(*) ـ في تبادل التهم بين المعسكرين يصف المعسكر الغربي دكتاتورية البروليتاريا انها لا شيء سوى رأسمالية الدولة ودكتاتوريتها المطلقة ـ كما يصف الشيوعيون الديموقراطية الغربية انها لاشيء سوى دكتاتورية البورجوازية .

ويشير الغربيون حديثاً الى مظاهر التحول السوفييتي في مصطلح جديد لجهاز الحكم اطلقه الرئيس خروتشوف بديلا عن (دكتاتورية البروليتاريا) وهو (حكومة كل الشعب) .

الاستقرار، وهو رأي الرئيس سيكوتوره وتوم مبويا وسواهما من الزعماء الافريقيين .

يبقى أن التخطيط مهما بلغ من دقة العلم والتقنية ورصد المستقبل لا يمكن أن يطبق بنموذج واحد في كل مجتمع من المجتمعات المتقدمة أو المتخلفة شأنه شأن أي جهاز بخاري ، أو كهربائي ، أو ذري ، لا نستعمله الا بقدر ما نستطيع ونستوعب . ومهما يكن من تقارب مستويات التخلف في آسيا وافريقية ، وتشابه المشاكل ، فان أي منهج للتطوير والتصنيع — كما يقول نكروما، لا يمكن أن يكون مماثلاً لآخر . ولا يكفي أن تكون الحوافز متماثلة كالرغبة في تسريع النمو وتحقيق المساواة والعدل .

فالتخطيط في بلد كثيف السكان ، يختلف عنه في بلد ضحل الكثافة السكنية . ويختلف التخطيط في بلد غني بالثروات الطبيعية وعلى الاخص ما يقوم منها بعمود التصنيع كالفحم والزيت والصلب والمصادر الكهربائية الرخيصة الكلفة ، عنه في بلد محروم من هذه الثروات أو ليست متوافرة فيه بالكم التجاري . كذلك فمن هذه المجتمعات من تكون فيه انحصار رأس المال مثل بنك مصر وشركاته (*) وكان جزء كبير من تجارته ومرافقه في أيد أجنبية ، أو على عكس ذلك ، كان اقتصاده بدائياً مقصوراً على التجارة وانتاج المواد الاولية وليس في اقتصاده احتكارات أو رؤوس اموال اجنبية ضخمة. ومن الطبيعي أن يكون رد الفعل الاصلاحي أو الثوري ، تجاه الوضع السائد، يختلف في مجتمع عنه في آخر . بمعنى أن يلجأ مجتمع ما الى التأميم الحاد تحت تأثير ما عاناه بالذات في ظل رأس المـــال الانحصاري ، او الاجنبي ، بينما يقتصر مجتمع آخر على

(*) تمثل مصر قبل الثورة ، في نظر جميع الباحثين نموذج المجتمع الافريقي الذي تجمعت فيه اكبر ظواهر رأس المال الاحتكاري ، ورأس المال الاجنبي معاً . ففي مجال رأس المال الاحتكاري يضرب المثل بعدة شركات ، على رأسها (بنك مصر وشركاته) التي بلغت اثنتين وعشرين شركة . ومثلهـــا شركات السكر ، وشركة التبغ الشرقية ، وشركة الملح والصودا ، وكل واحدة منهـــا تسيطر على مجموعة اعمال صناعية وتحتكرها ، وتبلغ بها أرباحا فلكية .

أما رأس المال الاجنبي ، فلم يكن يستثمر في الصناعة ، ومعظم استثماراته في التجارة والمصارف ووسائل النقل والمواصلات ، حيث يحصل على اكبر ربح بأقل جهد .

التعاون مع رأس المال تعاون غنم وغرم في شركة متساوية الحقوق والواجبات، لاسيما وأن رأس المال الوطني والحكم الوطني في في مثل هذه المجتمعات انما تحفزهما حوافز الاستقلال الاقتصادي ، بله السياسي ، وتهزهما مشاعر وطنية واحدة وتدفعها نحو ساحات النشاط والاستثمار حاجتها المشتركة الى دفع عجلة الانتاج ورفع مستوى المعيشة ، وتسريع حركة التقدم . وفي بعض الظروف ، التي رافقت تكوين الدول الآسيوية والافريقية الجديدة ، رأينا رأس المال ينفض دوره الاناني النفعي ، ليندفع بغير متحفظ في بناء الكيان ، وتدعيم سلطان الدولة بما تفرض من حشد القوى المنتجة ، ومن تحديد نسبة الربح ، او تقرير سياسة شد الحزام . ففي دولة اشتراكية كالهند تقيم خطتها الاقتصادية على حركة تصنيع سريعة ، وفي اخرى افريقية مثل غانا ، يعلن رئيسها اعجابه بنوع من الاشتراكية الماركسية ، نجد ان التأميم لم يكن نهجاً اقتصادياً اساسياً ، بل قد طبق في ادنى حدوده . بل لم يؤخذ به على انه ضرورة من ضرورات التشريك ، او دلالة من دلالاته . ففي بعض الدول الافريقية، عدل عن التأميم أي تفرد الدولة في التملك ، الى التعاون غالباً ، وفي الهند عدل عن التأميم الى التصنيع . اي ان الدولة شغلت بتسريع التصنيع عن مقارعة رأس المال الخاص والقيام بدور هو اولى منها بالقيام به ، في المرحلة الراهنة. ومعنى ذلك ان الاشتراكية الهندية ، سلكت سبيل تطويق رأس المال الخاص ، بدلا من منازلته وجها لوجه ، مكتفية بحق الرقابة عليه دون أن تشل حركته وتفقد مرافقته عبر مراحل طويلة من الانشاء والانماء .

ليس من اليسير حصر اصناف التخطيط لدى شعوب اسيا وافريقية في نموذجين او ثلاثة ، يصح ان نقول ان واحدها اصبح مقياساً او سلماً ، بسبب ان التجريبية التي يمارسها كل شعب والبدائية التي ينطلق منها تدمغانه بجملة من الخصائص المادية ومبرراتها الايديولوجية مما يجعله نسيجاً فريداً بذاته . ومن هنا منشأ الرغبة الحادة في التحرر من اي

ايديولوجية مسبوكة مقررة شرقية كانت أم غربية .

على انه من الممكن، بالرغم من تعدد التجربة وتنوعها، ان نرد معظم الاتجاهات الى تيارين شائعين : احدهما الانطلاق من الاقتصاد الزراعي والثاني الانطلاق من الاقتصاد الصناعي ، فالاقتصاد الزراعي انما يلازم المجتمعات التي تعيش في بقع متسعة من الارض بنسبة منخفضة من السكان ، حيث تتضاءل طاقات الادخار والتوظيف، ويقوم اود الناس على زراعة بدائية ذات محصول رئيسي واحد ، على الغالب من قطن او تبغ ، او سكر او مطاط ، وتجارة محدودة ، وبعض صناعات حرفية واخرى بدائية . في هذه المجتمعات يصبح الانطلاق من الاقتصاد الزراعي ضرورة مادية واجتماعية مبرمة ، لان مضاعفة الانتاجية الزراعية هي السبيل الوحيد الى تأمين موارد مالية تعد للتوظيف الانمائي ، وتوفير مواد اولية لازمة لصناعات التحويل ، وانتاج محصولات زراعية يصدر الفائض منها لتمويل حاجات الاستيراد ، بينما يستهلك النصيب الاول منها لغذاء عدد متزايد من السكان. ولا غنى لهذا النوع من الاقتصاد ، عن استنفاد الطاقة البشرية كاملة في العمل من اجل تسريع الانتاج وتطويره بحيث تنعـــدم البطالة كلياً . ولكي يصح الاتكاء على العنصر البشري في رقعة فسيحـــة من الارض محدودة عدد السكان ، لا بد من توفير الخدمات الاساسية له من تعليم وصحة في المقام الاول، بله الغذاء والكساء، لان هذه الخدمات الاجتماعية وفي مقدمتها التعليم هي - في وصـــف الرئيس نكروما - بالاضافة الى اهدافها الانسانية ، سبيل المجتمع الى انشاء شعب متعلم مدرب ، هو بالحق ، رأس مال موظف مباشرة في مشاريع التقدم . بل كل ما يمكن اقتصاده من ارباح المشاريع العامة بعد اقتطاع النصيب المعد للاستثمار ، يجب أن يرد الى حقول هذه الخدمات . (١)

---

(١) في ميـــدان خدمات التعليم يشار في الاوساط الأجنبية باهتمام الى نجاح حملة الرئيس كاسترو ، والرئيس سيكوتوره في القضاء على الامية قضاء مبرما في كل من كوبا وغينيا . وقد اعلن الرئيس نكروما أن غانا ايضا ستحتفل في عيد استقلالها العاشر بزوال الامية تماما من ربوعها - أي عام ١٩٦٧ -

أما الاقتصاد الصناعي فهو ملازم للمجتمعات الكبيرة بعدد السكان ، سواء أ كانت الارض فسيحة أم ذات رقعة ضيقة. وقد يكون الازدحام السكني ،وانخفاض مستوى المعيشة ، تأكيداً لضرورة التصنيع واولوية المشاريع الصناعية في التخطيط الاقتصادي ، ولا تتمثل هذه الضرورة في امتصاص اليد العاملة وتشغيلها في الانتاج الصناعي ، لرفع مستواها المعيشي ، فحسب ، بل في تخفيف الضغط عن الارض ، وتحويل الطاقة البشرية الى المصنع ، بحيث يتاح للتخطيط الاقتصادي من جهة ثانية أن يرفع من الانتاجية الزراعية ومعها مستوى الفلاح والعامل الزراعي أيضاً .

هذا من حيث حاجة المجتمع الكبير في صراعه مع مشاكله وتخلفه ـ من تشغيل العامل الى تخفيف الضغط عن الارض ـ أما من حيث توافر عناصر الاقتصاد الصناعي في هذا النوع من المجتمعات دون سواه من المجتمعات الصغيرة ، فلا بد من الاشارة الى ان اهم هذه العناصر هو الطاقة البشرية ، والثروات الطبيعية ، والسوق الداخلية الواسعة[1] وهي عناصر تؤلف مجتمعة العمود الفقري الصناعي في مجتمعات ضخمة كالاتحاد السوفيتي ، والصين الشعبية واليابان ، ومؤخراً الهند .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان التصنيع المنطلق من زاويته الحادة ، في مثل هذه المجتمعات ، انما يتم على حساب الكثير من اقتصاد الخدمات الاجتماعية والحاجات الاستهلاكية .وقد سبق ان رأينا في تحليل التخطيط السوفيتي كيف ينحو به الاتجاه الجديد ، نحو الخدمات والاستهلاك تخفيفاً

(١) يعتبر وجود (السوق) اقتصاديا ، حافزاً من حوافز التصنيع وعاملا اساسياً من عوامل نجاحه . ومما يجدر ذكره أن (السوق) في الاستعمار الرأسمالي لم تكن سوقا داخلية فحسب ، بل سوقا عالمية نشأت في احضان المستعمرات بالذات ، وكانت غذاء لثورة التصنيع الاوروبية ابان القرن التاسع عشر بصفة خاصة . من اجل هذا يصف بعض زعماء العالم الثالث ـ العالم الاسيوي الافريقي ـ هذا الاستعمار الجديد Neo - colonialism - بأنه تفتيش عن (سوق) باسلوب اقتصادي لا امبريالي ، وغالباً ما يتخذ الاستعمار الجديد شكل التجمعات الاقتصادية ، والاسواق المشتركة ، التي لا بد من مقابلتها بتجمعات اقليمية مماثلة ، اذا اريد للشعوب المتخلفة ان تفلت من حبال الاستعمار الجديد ، ولا تسقط واحدة تلو الاخرى .

عن كاهل المواطن السوفيتي ، وتفريجاً لكربه الطويل في ظل الصناعة الضخمة الرازحة على صدره طوال ثلاثين عاماً .
ونضيف هنا أن فقرة من فقرات النزاع الايديولوجي بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ، تدور حول التمييع الصناعي ، اهو ضرورة اشتراكية ام لا . وقد كان جواب السوفييت انه ضرورة اشتراكية وواجب انساني، بينما رجمته الصين الشعبية بأنه انحراف عن السير في طريق الشيوعية ورجوع الى اقتصاد رخو يغري بالمواد الاستهلاكية ويخلق طبقة بورجوازية لاتلبث ان تستخفها المغريات ، فتمنحها تبريرات ايديولوجية تزين لها الانقضاض على البروليتاريا، والاطاحة بنظام الحكم .

وقد يكون من المسلم به بالنسبة لمراقب محايد أن تضارب الايديولوجيتين الماركسيتين ناشىء عن اختلاف المرحلة التاريخية التي يمر بها كل من الاتحاد والصين ، فالاول قد تحكم من قمة الصناعة ، والثاني لايزال في حضيضها . انما تتباين النظرتان الى التصنيع تباين القمة عن الحضيض طبعاً . والايديولوجية ، مهما بالغت في التنكر السياسي احيانا ، تبقى تعبيراً عن واقع اجتماعي اقتصادي ، اكثر مما تزعم انها تعبير عن حروف مقدسة ، ونصوص ذهنية مرصوصة في مجلدات فاخرة .

وليست تهمة انهاض التصنيع على صدر الشعب ، وعلى شقائه وحرمانه في المجتمعات الكبيرة ، تتناول مجتمعاً كالصين الشعبية وحده . بل قد كتب باحثون غربيون فصولاً طويلة في تحليل التخطيط الهندي على أنه تخطيط سياسي ، غير مقصود به رفع مستوى العيش وتحقيق المساواة الاجتماعية بقدر ماهو مقصود به اجراء عملية التحويل الاشتراكي الماركسي . وفي رأي هؤلاء الباحثين ان لايخدعن المشاهد أن قطاع الاقتصاد الخاص قائم النشاط في الهند ، وأن نظام الحكم برلماني حزبي ، مفتوح على الاقتراع العام ، كما في بريطانيا أو الولايات المتحدة . لأن الخطة الاقتصادية هي التي تتحكم بالمجتمع الهندي تحكماً مطلقاً ، ويتحكم بالخطة من جهة أخرى اقتصاديون هنود ، غير متصلين بواقع شعبهم ، وتدني مستواه — كما يقول النقاد — يؤازرهم خبراء أجانب من

السوفييت يخططون للهند كأنهم يفعلون ذلك لبلادهم . وينصب مجمل النقد الديموقراطي الغربي للتخطيط الهندي ، في أنه اعطى التصنيع اولوية ساحقة بالنسبة لهدفين اساسيين من اهداف التخطيط في المجتمعات المتخلفة وهما تعزيز الانتاجية الزراعية ، وربط البلاد بمواصلات ملائمة . أما القول بأن التصنيع الهندي هو عبارة عن هجوم اقتصادي على مواقع البطالة في الريف او ضعف العمالة ، فقول لا يثبت الا اذا كان الانماء الزراعي الحديث ، وتوفير المواصلات الضرورية ، لا يستهلكان جزءاً كبيراً من طاقة العمل القائمة بين سكان الارياف ، وهو افتراض خاطىء .

ولا بأس ان نتابع معاً مناقشة التخطيط الاقتصادي الهندي الراهن ، لأنه يعطينا بالحق صورة عن تضارب النظريات في رسم اهداف التخطيط في نموذج من المجتمعات الطامحة الى مباشرة التنمية بالتصنيع ، وقد توافرت لها الثروات الطبيعية والبشرية .

يقول مقرر الخطة الهندية الثانية ١٩٦٠ — ١٩٦٥ في تقرير تقديم الخطة أن معدل التصنيع ونمو الاقتصاد القومي سيعتمدان في المدى الطويل على الانتاج المتزايد من الفحم والكهرباء والحديد والصلب والآلات والكيميائيات والصناعات الثقيلة عامة . مما سيزيد بالتالي من القدرة على تكوين رأس المال . والهدف الرئيسي من الخطة هو العمل باسرع ما يمكن على تحقيق الاستقلال الاقتصادي واستغناء الهند عن استيراد السلع الانتاجية وعلى هذا فان التوسع في الصناعات الثقيلة باسرع وقت ، واجب حددته الخطة .. الخ ..

وينحصر نقد الخطة الموصوفة فوق بالنقاط التالية :

أ — أنها تؤكد تأكيداً كلياً على الصناعة الثقيلة بحيث يصيبها من اجمالي الاستثمار المخصص للسلع الانتاجية ما يوازي $\frac{٦}{٧}$ منه بالاضافة الى نفقات القوى المحركة والنقل التي هي نفقات صناعة ثقيلة أيضاً .

ب — ان الاستثمار في صناعات الاستهلاك لا يكاد يذكر .

ج — لا تزيد أرقام الاستثمار في البرامج

الزراعية عن نصف أرقام الاستثمار الصناعي الثقيل ، أو هي دون النصف .

د — أما أرقام الاستثمار في كل من التعليم والطرق وهما هدفان رئيسيان من اهداف الاقتصاد المتخلف ، فيكاد الاول أن يبلغ ثلث الاستثمار الصناعي ، والثاني يقل عن ربعه .

هـ — ينحصر معظم الاستثمار الصناعي الثقيل أي مايوازي ثلاثة اخماسه في المشروعات التي تملكها الدولة . وفي صناعة الصلب بصفة خاص ينحصر في الدولة ثلاثة ارباع الاستثمار .

ان نقد الخطة الهندية يهدف ايضاً الى التأكيد بأن الدولة في الخطة الثانية قد خفضت من شأن التعليم ، بحيث لم تستطع تنفيذ النص الدستوري القائل بأنه في مدى عشرة أعوام بدءاً من عام ١٩٥٠ يجب أن يتوافر التعليم الالزامي لجميع اطفال الهند حتى سن الرابعة عشرة . اذ في عام ١٩٦٠ لم يشمل هذا الالزام سوى ٦٣ بالمئة من الاطفال بين السادسة والحادية عشرة وسوى ٢٣ بالمئة تقريباً من الاطفال بين الحادية والرابعة عشرة . انما ينبغي على الدولة المتخلفة أن تحسب في حسابها المادي أن التعليم اطلاق للفعاليـــات ، وتوسيع للفرص وتوفير للطاقات الفنية والخبرات وتوسيع للانتاجية الفردية والجماعية ، في ميدان الزراعة ، وهذه كلها ثروات مادية محسوبة ، لاسيما اذا كانت التقاليد والتيارات الاجتماعية السقيمة ، تعمل بالعلن والخفاء على عرقلة روح التقدم . وما يقال في التعليم بالنسبة للمجتمعات المتخلفة ، يقال في الطرق التي تربط اجزاء البلاد ، وعلى الأخص أريافها بمدنها وبعضها بالبعض الآخر ، مما يعزز حركة التبادل الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية ، بالاضافة الى تفتيح الاذهان وتوسيع الآفاق ، بتوسيع الانتاجية نفسها .

أما من حيث الزراعة ، فلا غـــنى للشعوب المتخلفة عن ان تدرك بان مضاعفة الانتاج الزراعي وتصريفه ، شرط للتقدم المادي وحافز للاقبال على الانتـــاج الصناعي . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان المجتمعات المتخلفة اذا لم تنهض بالانتاج الزراعي ، نهوضا يوازن الانتاج الصناعي على الاقل ، فانه يخشى ان يغدو القطاع الزراعي عبئاً على حركة التقدم عامة . ثم

ان التمرس في تطوير الانتاج الزراعي من شأنه ان يكسب العدد الكبير من المواطنين خبرات ومهارات واتجاهات اجتماعية مناسبة للاقتصاد النقدي ، ومؤهلة لممارسة اعمال ادارية وفنية لازمة لقطاع الصناعة .

أما ما جاء في تقرير تقديم الخطة من أن الهدف الاوضح منهـــا هو تحقيق الاستقلال الاقتصادي ، والاستغناء عن استيراد السلع الانتاجية ، فلا مشاحة في ان مجتمعا قاريا كالهند ، وفي جواره دولة قارية اخرى كالصين — وهما في سباق الى التصنيع والتسلح — لا يسعه الا ان يضع نصب العين هدفاً عزيزاً كهدف الاستقلال الاقتصادي . فاذا قال ناقـــد غربي ان هذا المنطق منطق هندسي أو حربي على الارجــــح ، وليس بمنطق اقتصادي ، لان تكوين رؤوس الاموال ، والانماء الصناعي ، غير مرتبطين لزاما بنوع معين من الصناعات الثقيلة ، وأن دولة كاليــــابان ، استطاعت ان تنمي صناعاتها ، وتؤلف اكــــبر حصة من رؤوس الاموال المعدة للاستثمار عن غير طريق الصناعة الثقيلة بالذات ، وبالتركيز على الصناعات الاستهلاكيــة — نقول اذا كان النقد موجهاً بمثل هذه المقارنة ، فلا اكثر من ان يرد المخطط الهندي النقــد الى قائله بان اليابان دولة تصنعت في عزلة فاخرة اتيحت لها ذات يوم ، واتيح لها قدر كبير من الحرية والسلامة الوطنية لتتابع تجربتها بما يتسجم مع تقاليد الصناعة والتجارة السائدة . بينما يختلف الظرف التاريخي الذي تعيشه الهند ، عن الظرف الذي سبق ان عاشته اليابان في بــــدء تصنيعها ، بالاضافة الى ان التصنيع في الهند بصرف النظر عمــا في جوارهـــا ، وعن ظرفها التاريخي ، يمثل حركة رياضيـــة جسدية وعقلية ، يتمرد فيها الهنــدي على الكثير من فروض تقاليده وعاداتـــــه ومقدساته ، دون ان يحين الوقت بعد لتهديمها .

ولعله من الواضح ان الهند شرعت نضالها ضد الاستعمار الانكليزي باسلوب غاندي ، يلجأ الى العادات والتقاليـــــد يجندهــــا في صف المقاومة السلبية ، فاستبدلته من بعد باسلوب (نهرو) لا يطأ

هذه العادات والمقدسات او يمرغها بالتراب لانه لايزال بحاجة اليها ، بل هو يتخطاها الى سواها من الاساليب التي شرعها العالم الحديث ، في نضاله ضد الاستعمار ، وهي اساليب استخدام طاقات العلم استخداما كلياً ، بلا تحفظ في سبيل التغلب على التخلف ، وكان التخلف ابداً مهداً للاستعمار ، ومزيناً له مغامراته، كما أصبح من بعد ، عقدة الشعوب الناشئة، لاتعالجها غالباً باللين ، أو بالتطور الهادىء وكثيراً ماتظهر على الوجوه والعضلات والاكف حركات تشنج عنيفة، وهي قائمة على جذور التخلف تنتزعها من الارض وتنتزع آثارها الصغيرة والكبيرة من كل ارض وسماء .

فاذا قيل أن هدف الاستقلال الاقتصادي الهندي يعني تجارياً ، شبه اغلاق للباب بوجه الصلات الخارجية .فلا مندوحة من الإعتراف بأن هذا الاغلاق هو جانب من جوانب المحاولة ، وليس بالطبع هدفا نهائياً للاقتصاد القومي. ولقد أعترف الباحثون بحق الشعوب المتخلفة في أن تختار لنفسها احدى النظريتين الاقتصاديتين أو الايديولوجيتين السياسيتين في دفع حركة التصنيع . احداهما نظرية (القومية الاقتصادية) وهي ترمي الى الاكتفاء الذاتي والاخذ بسياسة الحرمان والحد من التجارة الاجنبية . والثانية نظرية (العالمية الاقتصادية) وهي ترمي الى رفع مستويات المعيشة ، وتوسيع حجوم التجارة العالمية ، على الطراز الياباني ، مثلاً . على أن الهند وقد اختارت نظرية (القومية الاقتصادية) كما هو واضح من تقرير الخطة ، فلا يبدو أنها تمارسها على الطراز السوفيتي منذ عام ١٩١٧ ، بل هي تأخذ بقدر آخر من النظرية الثانية ، لاسيما وانها في دفع تصنيعها ليست بغنى عن التعامل الدولي بغية تمويل تخطيطها الاقتصادي ، خلافاً لما درج عليه الاتحاد السوفيتي خلال ربع قرن ويزيد، من سياسة الباب المغلق ، وعدم الاتكاء على اي عون اجنبي .

أما أن نصيب الخدمات ، وفي مقدمتها التعليم ، ضئيل في الخطة الثانية ، وكان يجب ان يكون في هذه الثانية ، افضل من الاولى ، فنقد صحيح لا مجال لدحضه

انما يصح الرد على النقد من حيث أن للتخطيط الاقتصادي التصنيعي اهدافا قريبة، وأخرى بعيدة، قادمة لاريب فيها. ولا يمكن الجمع بين هذه الاهداف حزمة واحدة (*) اذا اريد للدولة أن تنفذ حركة التصنيع بلا هوادة. فالاقتصاد المصنع انما يمثل حركة التفاف حول مطارح الجهل والفقر في المجتمع المتخلف وليس حركة هجوم مباشر في خط واحد مستقيم. فلابد اذن من الصبر ومن تحمل الحرمان في مرحلة ما، تطول او تقصر، حتى يبلغ التصنيع اهدافه الطبيعية، فتتحقق بها اهداف توزيع الرخاء، وفك قيود الحرمان والتقنين.

ومهما يكن من منطق هذه النظرية والقائلين بها، ممن يستطيعون تطبيقها في المجتمعات الضخمة، فانها تسير بلا ريب، قليلا أو كثيراً في الخط الماركسي — الستاليني، الذي طوى اهداف الرخاء العاجل ومستوى المعيشة المرتفع، وتجميل الحياة الاجتماعية، من أجل تسريع التصنيع الثقيل، تسريعاً مذهلا ساحقاً.

سبق أن قلنا بأننا لانحاول تصنيف التخطيط الاقتصادي لدى الشعوب المتخلفة وحصره في نماذج وقوالب نهائية، يصح أن تستوعب أي مجتمع في أي زمان ومكان. ولقد حاولنا أن نلم ببعض الملامح بافتراض تصنيف هذه المجتمعات الى اقتصاد زراعي، واقتصاد صناعي. واخترنا للنموذج الثاني، مجتمعاً كبيراً كالهند، حيث تقوم تجربة اشتراكية من أغنى التجارب في ظل نظام ديموقراطي برلماني على الطراز الغربي، وزحمها أسلوب النقد والمناقشة سبيلا الى الاطلاع على تباين النظريات وعلى ملامح التخطيط الاشتراكي الديموقراطي في الهند، وأهدافه.

وسنختار فيما يلي، وختاما لهذا البحث، نموذجاً للمجتمع النامي الصغير،

(*) يجب ان نذكر هنا بأن عدد سكان الهند الذي بلغ اربعمائة مليون، قد ازداد في السنوات العشر الاخيرة وحدها، مايزيد على خمسين مليونا. يسكن القرى منهم خمسة أسداسهم، ويتداولون التفاهم بعشرين لغة — خمس عشرة لغة منها مكتوبة — ولا يتجاوز عدد المتعلمين سدس عدد السكان، بالرغم من الجهود المبذولة في حقل التعليم خلال السنوات العشر الماضية.

في جمهورية غانا، حيث يمثل الرئيس نكروما باشتراكيته الماركسية المسيحية، وبحزبه الواحد، وبطموحه الى التقدم، وبفلسفة الوحدة الافريقية، التي دعا له وبشر، نموذجاً معبراً من نماذج العالم الجديد، العالم الثالث.

ان جمهورية غانا، تشترك مع مجتمعات آسيوية وافريقية في بعض الصفات والملامح وأهداف التخطيط، كما تختلف عن بعضها في نواح اخرى.

أ — ان هذه المجتمعات على الغالب ذات اقتصاد زراعي بنسب تتراوح بين ٧٠ الى ٨٠ بالمئة من الانتاج العام، وتطمح الى تصنيع تدريجي، توفر له من أرضها طاقات الوقود وأسباب النقل والمواصلات، وتسعى الى رؤوس الاموال والخبرات الاجنبية، من يمين ومن يسار، وحسبها تهيأ لها، طالما أنها لا تشعر بوطأة العون الخارجي على سيادتها وحريتها.

ب — تأتي الصناعة من حيث نصيبها من اجمالي الاستثمار العام، في الدرجة الثالثة أو الرابعة بعد الزراعة، والمواصلات والطاقات الكهربائية، وتختلف أهداف الصناعة لدى كل دولة من هذه الدول باختلاف الحاجة اليها والقدرة على ممارستها. ففي بعض الدول، تعتبر الصناعة تخفيفاً للضغط عن الأرض. وفي اخرى تشغيلا لليد العاملة، وفي ثالثة تسريعاً للنمو. والتصنيع في بلد مثل فلسطين المحتلة، هو الوسيلة الوحيدة لاستيعاب اكبر عدد من المهاجرين من جهة، وللتفوق الصناعي على الدول المجاورة ثم لمتابعة أهداف بعيدة لا تختلف قط عن مناهج الغزو الاقتصادي الاستعماري إثر الثورة الصناعية الاوروبية من جهة اخرى.

ج — من ملامح التخلف في معظم هذه المجتمعات ضعف القوة الانتاجية، بسبب انخفاض المستوى الصحي والغذائي والسكني، والتعليمي. وتتراوح الامية بوجه عام بين ٦٠ و ٩٠ بالمئة. وفي بعض خطط هذه الدول، تركيز على الانفاق في الخدمات من صحة وتعليم، على حساب التصنيع.

د — غالباً ما تقوم الدول الناشئة ومن بينها مجموعة دول الشرق الاوسط، على انتاج نوع واحد من المحاصيل، تتميز به

ويؤلف نسبة مئوية كبرى من صادراتها. كزيت البترول، والقطن، والبن، والموالح، والدخان والفواكه.

على أنه قد غدا من أهداف التخطيط الاقتصادي، في بعض هذه الدول، أن تتعدد المحاصيل وتتنوع، لمضاعفة الدخل وتعزيز حركة التصدير.

هـ ـ يفتقر كثير من هذه الدول الى عناصر تكوين الصناعة السريعة. فبالاضافة الى افتقارها كلها الى رؤووس الاموال والخبرات الفنية، فان بعضها يفتقر الى الثروات الطبيعية نفسها التي يحسم دورها عملية التسريع، والانتاج بالكلفة المقبولة.

لذلك فان من اهداف التخطيط الاقتصادي في المجتمعات الفقيرة، انشاء مجموعات من وحدات صناعية صغيرة متفرقة في انحاء البلاد، يسهل تمويلها، وايجاد اسواق لها. ولا تلجأ المجتمعات الصغيرة الى مشاريع كبرى، من مرافق عامة أو صناعات ضخمة الا للواجهة الدعائية السياسية، التي يقصد بها حشد رأي عام وراء قيادة الحكم في فترة من فترات التكوين والبناء.

هذه هي معظم الملامح العامة التي مهما اختلفت لونياتها الصغيرة بين مجتمع وآخر في آسيا وافريقية، فانها ملامح مشتركة وسمات بارزة من سمات المجتمعات الجديدة ولعله من المفيد أن نذكر وأمامنا نموذج جمهورية غانا، كمثال، أن الدولة اذا عجزت عن مباشرة التصنيع على نطاق واسع، فلا أقل من أن تباشر التعليم وتسخو من أجله. على اعتبار أن العلم هو عدة الصناعة والزراعة في دورهما الاجتماعي الجديد.

فاذا لم تتهيأ للصناعة اسباب تمويلها، كما يتهيأ لها في البلاد الضخمة ذات السكن الكثيف والثروات الطبيعية، فلا اقل من أن يعدلها اعداداً مناسباً بالعلم، على درجاته المختلفة من محو الأمية، الى اكتساب الاختصاص العلمي وممارسته عملياً، ففي المجتمعات الضخمة، قد نجد أرجحية الصناعة في سلم الخطة، وفي المجتمعات الصغيرة قد نجد ارجحية العلم والتعليم والخدمات الاخرى الى جانب الاقتصاد الزراعي، وأما المجتمع الذي لم يصح عزمه بعد، بالنسبة لطاقاته، على اختيار اولوياته، فيجب أن يكون مجتمعاً يستمرىء التخلف.

او هو يتنطع للتقدم تنطعـــاً سياسيا ، لا أكثر .

قال الرئيس نكروما في كتابـــه (أفريقية يجب ان تتوحد)

L'Afrique doit s'unir -

انه من الواجب اختراع تعليم يعطينا في اسرع وقت جهازاً مختصاً يخدم البلاد ، على جميع المستويات . ولقدتم اصلاح جامعة غانا بشكل لا اضرار معه ، كما كان الأمر سابقاً في عهد الادارة الاستعمارية ، على المواد الأدبية ، والنظرية الخالصة. وبالرغم من اننا نجد هذه المواد ضرورية ومفيدة ، فهي في هذه المرحلة من حياتنا القومية ، نوع من الكماليات التي لا نسمح لانفسنا منها بالقدر الذي نشتهي » ...

ثم يقول في سياسة التعليم ايضاً : ان العلوم اجبارية في كل فروع التدريس ، وستفتتح مدارس ابتدائية تكنيكية ، يقوم عليها معلمون خريجو علوم ،وستحل هـذه المدارس محل المدارس الابتدائية التقليدية المعروفة » .

وعندما يتحدث الرئيس نكروما عن التعليم الجامعي ، يقرر بأنه تعليم مفتوح الأبواب للبحث والتطبيق معاً وفق تخطيط يستوحي حاجات البلاد في مجالات الصناعة والزراعة والادارة ،والاشراف والتوجيه وان لقب (أكاديمي) انما يمنح للرجال الذين ترغب الدولة في مكافأتهم مكافأة وطنية عليا .

وهو يوجه العلم التجريبي الى دراسة محصول (الكاكاو) ـ مثلا ـ وتنويعه واستخراج مواد تجارية منه،والى استنبات نباتات جديدة ، تصنع منها سلع المأكل والمسكن والملبس ، والى كل ما من شأنه مقاومة الطبيعة حيث تقف دون الانسان وتلوي ساعده ، وتعطل عجلة تقدمه .

على أن كل مجهود في رأي الرئيس نكروما وزملائه من دعاة الوحدة الافريقية ، سيذهب هدراً ، أو لا يقيم في الأرض سوى كل ضئيل من أثر التقدم والنجاح ، اذا لم تنصب الثروات والأيدي والعقول الافريقية في تخطيط اقتصادي واحد ، يشمل القارة الافريقية قاطبة .

انما تنشد الوحدة الأفريقية ، للسبب الاول والأوجه وهو أن العالم المعادي لأفريقية ، والماثل في شكل الاستعمار

الجديد ، هو وحدة، على الصعيد المصلحي والمادي . فاذا توصل الزعماء الافريقيون الى اقامة جدار من الوحدة ، ضد محاولات الاستعمار الجديد ، بوضع الموارد الاقتصادية في خطة مشتركة ، (فاننا نبدع قوة صناعية اقتصادية ، ومالية ، ليس مثلها اي قوة كبرى من قوى الزمن الحاضر) .

وبصرف النظر عن القوى المادية فان الانفصالية تفوت على افريقية كثيراً من الامتيازات التي لا تحققها سوى الوحدة . مثال ذلك » أن سد (إينغا) Inga الذي تحلم به الكونغو حلماً ، لا يمكن ان يصبح حقيقة قط ، مالم تتعاون له جميع دول افريقية ، لأن اي دولة لا تستطيع ان تنهض به وحدها . ولو بني هذا السد ، لوفر طاقة كهربائية قدرها خمسة وعشرون مليون كيلو واط ، اي مايزيد اربع مرات على ماينتجه من الطاقة الكهربائية اكبر سد في الاتحاد السوفيتي وهو سد براتسك Bratsk وان مشروع اينغا وحده ليسهم كثيراً في كهربة مجموع القارة الأفريقية . «

وللمدنية الحديثة ، ميزات من التقنية العصرية ، لا يمكن لكل دولة على حدة ان تظفر بها ، لفداحة تكاليفها التي لا يبررها أو يستوعبها سوى ضخامة السكان . (ولا شيء سوى دمج اراضينا وشعوبنا ومواردنا) بقادر أن يحقق مطمحنا الاول وهو المرور بسرعة من المرحلة ماقبل الصناعية ، الى الوضع اللائق الذي يضمن للجميع مستوى من الحياة رفيعاً .

وغير صحيح أن الدمج ، كما يقول الرئيس نكروما ، ليس سوى وسيلة لتوزيع الفقر ، كما هو ظاهر من الواقع الأفريقي بل الصحيح أن التخطيط العام لاستثمار الثروات البشرية والمادية مجتمعة ، هو الوسيلة الوحيدة لتدارك الشلل ، وعدم التوازن ، ولتكوين رأس المال ، والتخلص من الاشكال المتشابهة في اقتصاد بدائي (التجارة) . وان يكن من المفروض على افريقية ان تستمر في عمليات التبادل بتصدير موادها الاولية واستيراد السلع الضرورية ، فان التبادل يجب ان يتم عن طريق سوق مشتركة ، ونقد مشترك ، يفرضان الأسعار على الاسواق

الأجنبية ، فلا تفرض هذه الأسعار على الافريقيين اسواق مشتركة اجنبية .

ان الرئيس نكروما ، يعتبر السوق الاوروبيـــة المشتركة ، صورة واضحة للاستعمار الجديد (فهي تهدد البلاد المتخلفة التي لاتدخل السوق بالأسعار التعسفية من جهة ، بينما تعد بالعون ، تلك التي تدخلها . وان سياسة المساومة هذه التي تهدف اما الى خلق الشقاق بين الدول الافريقية المستقلة أو الى اجتذابها نحو الشباك الاوروبيـــة ، لتعيد اليوم الى الوجود تلك العلاقة الامبريالية العتيقة (الفارس الاوروبي على ظهر الحصان الأفريقي ..!)

ان عودة الدول الافريقية الى التعامل (الحر) مع السوق الاوروبية المشتركة ، طمعاً بالمساعدات والقروض ، معنـــاه باصطلاح الرئيس نكروما (اختيار النير بحرية) ، وليس بنتيجة فتح وغلبة . وسيغدو الاستقلال الاقتصادي اكثر مايكون بعـــداً ، لان سياسة السوق الاوروبية ، ليست سوى الاستمرار في استلاب المواد الاولية من المنتج الافريقي ببخس الاسعـار ، بحيث ان (العون) ليس سوى نصيب صغير من الاسـلاب والمغانم الكبيرة(*) .

كذلك ، فان (التجارة الحرة) بين بلدين ، احدهما مصنع ، والآخر متخلف ، ستؤدي بالطبع الى نوع من عملية تجميع مستمرة ، ترمي الى ركود المتخلف فافقاره (*) .

ويصف نكروما دعوة سنغور الى وحدة الدخول في السوق المشتركة — وحدة الناطقين بالفرنسية والانكليزية من الافريقيين — بانها دعوة لمصلحة (استعمار جماعي من نوع جديد).

(*) في جزء من مرافعة الرئيس نكروما ضد السوق الاوروبيـــة المشتركة ، يقصد الى الرد على دعوة زميله الرئيس سنغور — السنغال — للدخول في السوق ، والتعاون مع دول السوق ، تعاونا وديا ، ولاسيما اذا دخلت بريطانيا ايضا ، بحيث تدخل معها جميع الدول الافريقية الناطقة باللغة الانكليزية

(*) جملة يستشهد بها نكروما من كتاب الباحث (غونار ميردال) النظرية الاقتصادية والمناطق المتخلفة Economic theory and under - Developpred regioens

اذ من تقاليد اوروبة ان تبقى ما بينها وبين مستعمراتها تجاريا ليس الا ، بدليل ان هذه العلاقة لم تتبدل قط ، منذ وضع المستعمرون اقدامهم على الشاطىء الافريقي في القرن الخامس عشر. وليست المساعدات المالية التي تمنحها السوق اليوم الى بعض دول ماوراء البحار ، لتتعدى انشاء الطرق وسكك الحديد والمرافىء ، التي مهما بولغ في تقييم مغانمها فليست سوى فتات الموائد . ومن الحق ان نظن بان الدول المصنعة تطمح على تصنيع شريكاتها الافريقيات في السوق ، وتمنحها الاستثمارات الكافية لاقامة الصناعة ، فتجازف بموادها الاولية ، وباسواقها الخارجية معاً .

وفي رأي الرئيس نكروما ان مايسمى بالوحدة الجمركية على غرار ماجرى في المانيا في القرن التاسع عشر — زولفيرين Zolverein — لايمكن ان يكون نموذجاً يأخذ عنه دعاة الوحدة الافريقية اذ يجب ان يذكر ان الزولفيرين الالماني لم يستطع قط تكوين رأس المال الذي تحتاجه المانيا، من اجل تطوير تصنيعها ،وليس الا عندما تنازلت (الدول) عن سيادتها للامبراطورية وتوحدت المانيا ، تجمعت لها الطاقة اللازمة لتوسع رأس المال ، وانفتحت الاسواق حيث تستهلك البضاعة المصنوعة . وبهذه الوحدة ، مرت المانيا على عجل من دولة زراعية عام ١٨٧١ الى بلد مصنع عام ١٨٨٥ بل قبل هذا التاريخ ايضا . .

فاذا كانت هذه حالة المانيا منذ ثمانين عاما ، فاولى بالشعوب المعاصرة ، وعلى الاخص في النصف الثاني من القرن العشرين ، ان تكون ادنى الى التجمع وتشكيل الوحدات الكبيرة . ان تقدم العلوم ، والتقنيات الجديدة ، وتحسين وسائل الانتاج ، واساليب الادارة ثم الحقائق الاقتصادية اللازمة لتطور العصر تلزم كلها بانشاء وحدات جغرافية ذات ثروات طبيعية متنوعة ، واعداد ضخمة من السكان ، لاستثمار اكبر قدر من الخيرات . وان هذه التجمعات الضخمة هي الاقدر دائماً على تصنيع نفسها ، ودفع التقدم اشواطاً .

ويتمثل الرئيس نكروما ، بظهور الكتلة الصينية المملاقة ، كيف فرضت

وزنهـــا على الوجود البشري ، فقـام لها الاتحاد السوفييتي جذراً على قدميه ، وطفقت امريكا تصدها عن ابواب الامم المتحدة . وكيف ان السوق الاوروبية المشتركة ، التي تجمع لهـا مئة وسبعون مليونا من السكان ، استطاعت ان تقارع السيطرة الصناعية، - يعني السياسية - التي تمارسها الولايات المتحدة على العالم الرأسمالي.

واذ يطري الرئيس نكروما نهوض الكتلة الصينية وسرعة تقدمها وزيادة انتاجها بمعدل ٢٧٦ بالمئة خلال السنوات السبع الاخيرة في جميع مجالات الانتاج، واذ يلخص تاريخ التصنيع في الاتحاد السوفييتي بأنه قد خلق خلال ثلاثين عاماً ذلك الجهاز الصناعي الذي مكن من اطلاق السبوتنيك وارسال رجل الى الفضاء ؛ لا ينكر عطفه على سياسة التخطيط المركزي والقبض بمجامع اليد على الاقتصاد القومي ، على أنه لا يدعي أن اي نظام غربي او شرقي ، بقابل أن يلائم الحاجات الافريقية فيقول: (امامنا امثلة الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي ، والصين ، والهند وهي كلها قد مارست ادارة اقتصادها على المستوى القاروي ، ووضعت أمامنـــا وسائل واساليب نختار منهـا ما يمكن ان نطبقه على افريقية ، يبقى ان شيئاً واحداً هو المؤكد : اذا لم نخطط لنخرج بافريقيـة من فقرها فستبقى فقيرة . فثمة حلقة مفرغة من شأنها أن تبقي الفقير ابداً على شفير الفقر ، الا اذ انتفض بجهد حاد ، وحطم حلقة الاسباب الباعثة على فقره) ، على أن الصناعة الاساسية التي تستطيع وحدها ان تحطم الحلقة المفرغة للفقر الافريقي ، لا تنهض بالعبء ، الا اذا تم تصميمها على المستوى القاروي الواسع .

أما الاتحادات الجمركية ، والاتفاقات التجارية ، والمبادلات والمواصلات، وسواها من ضروب التعاون والتعامل ، فليست تضير الافريقيين ، ولكنها لا تمس سوى جوانب خارجية من جوهر المعضلة الكاملة. (يبقى أن التوحيد القاروي ، هو وحده قاعدة التقدم، وليس الا بالوحدة السياسية، يصبح اقامة علاقات اقتصادية واسعة عملا ناجعاً. فلنبدأ بالوحدة السياسية أولا

وهي التي ستفتح أمامنا الابواب ، لخلق صناعة مشتركة ، واقتصاد متين ، يتحقق بها حلم افريقية القوية ، المتحررة تحرراً كاملا من الاستعمارين الاقتصادي والسياسي .)

الى هنا نحسب أن ملامح التخطيط الاقتصادي واهدافه قد اكتسبت بعض الوضوح لاكله ولعل موضوع المحاولة القادمة في تحليل الأفكار والعقائد السياسية ، وراء انظمة الحكم في دول آسيا وافريقية يساعدنا على مزيد من توضيح تلك الملامح ، وسنلجأ الى الدراسة المقارنة بين مختلف الايديولوجيات السياسية ، التي نادى بها زعماء اسيويون وافريقيون تعدت شهرتهم بلادهم الى الملأ العالمي الواسع .

●